المنظمة العربية للترجمة

باسكال بيك ـ لوران ساغار
جيسلان دوهان ـ سيسيل ليستيان

أجمل قصّة عن اللغة

ترجمة

ريتا خاطر

بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

لجنة اللسانيات والمعاجم:

بسّام بركة (منسقاً)
حسن حمزة
سعد مصلوح
الطيّب البكّوش
علي أزرياح
سامي عطرجي

المنظمة العربية للترجمة

باسكال بيك - لوران ساغار
جيسلان دوهان - سيسيل ليستيان

أجمل قصّة عن اللغة

ترجمة

ريتا خاطر

مراجعة

د. ميشال زكريا

بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
أجمل قصّة عن اللغة/ باسكال بيك، لوران ساغار، جيسلان دوهان وسيسيل ليستيان؛ ترجمة ريتا خاطر؛ مراجعة ميشال زكريا.
231 ص. ـ (لسانيات ومعاجم)
بيبليوغرافيا: ص 223 ـ 225.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-0-1436-4
1. اللغات ـ الأصل. 2. اللغة ـ تاريخ. أ. بيك، باسكال ب. ساغار، لوران. ج. دوهان، جيسلان. د. ليستيان، سيسيل. هـ. خاطر، ريتا (مترجم). و. زكريا، ميشال (مراجع). ز. السلسلة.
400

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان
هاتف: 753031 ـ 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان
تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، آب (أغسطس) 2009

المحتويات

التوطئة

كيف السبيل إلى جعل دماغ شخصٍ يتفتّق عن تداعي أفكارٍ معيَّنةٍ؟ وكيف السبيل إلى تشكيل صورٍ في ذهنٍ مجهولٍ؟ وكيف السبيل إلى الإيحاء له متى شئنا بأضغاث الماضي الغابر، وبأحلام المستقبل، وبحقائقَ غير مرئيّةٍ أو بكائناتٍ خياليّةٍ؟ هل يتمّ ذلك عبر توارد الأفكار، أم عبر تقنيّةٍ سريّةٍ للتحكُّم بالفِكر؟ طبعاً لا، بل حسبُنا أن نُصدِر أصواتاً بفمنا، حسبُنا أن نتكلّم. إنَّ قابلية التكلّم هذه هي طبيعيّةٌ لدرجةِ أنّنا ننسى كم هي استثنائيّةٌ. علمًا بأنَّ مَلَكةَ اللغة هي وقفٌ على سلالتنا البشرية، أي سلالة الإنسان. فما من جنسٍ حيوانيٍّ آخر قد طوَّر وسيلةً للتعبير عن الفِكر وللتواصل تُضاهيها نفوذاً.

وعليه، يُعَدُّ هذا الكتاب قصّةً تتناول خصوصيّةً وحالةً خارجةً عن المألوف في عالم الكائنات الحيّة، وتميُّزاً قيّماً من وجهة نظرنا، لأنّه قد يكون الحدّ الأخير الفاصل الذي يُميِّز الإنسان عن الحيوان.

ليس الإنسان الحيوانَ الوحيد الذي يُفكِّر، بل إنّه الوحيد الذي يُفكِّر أنّه ليس حيواناً. ومنذ أن أدركَ أنّه فِقريٌّ مُشعِرٌ يُرضِعُ صغاره، أي إنّه من طائفة الثدييّات، ومنذ أن فهِمَ أنّه شقيق القِرَدة العليا،

لكي لا نقول مُستنسَخاً جينيّاً عنها (فهو يتشاطر 99 بالمئة من حمضه النووي مع قِرَدة الشمبانزي)، أصبح الإنسان أكثر تشبُّثاً بامتيازاته. ولكنَّه يخسرها الواحدة تلوَ الأخرى، بحيثُ إنَّ الأداة والثقافة وإدراك الذات والآخر... وما شاكلها من مزايا، لم تعد مُقتصرةً على الجنس البشريّ، فمع تقدُّم العلم وَجَبَ على **الإنسان العاقل** (Homo sapiens) المزهوّ بنفسه أن ينحني وأن يتعرَّف على الأدوات التي تستخدمها طيور الشرشور الجبليّ التي تقطن جزر غالاباغوس (Galápagos)، والتي تلجأ إلى استعمال أشواك شجر الصبّار بغية إخراج يرقانات الحشرات من مخبئها تحت قِشرة الأشجار. كما وَجَبَ عليه أن يُقرَّ بوجود ثقافةٍ لدى قِرَدة الماكاك الآسيويّة، التي عمدت إثر اكتشافها أنَّ حبّات البطاطا المغسولة بماء البحر كانت ألذّ من حبّات البطاطا التي يكسوها الغبار، إلى نقلِ هذه المعرفة إلى صغارها. هذا ووَجَبَ عليه أن يُسنِدَ وعياً إلى قِرَدة الشمبانزي التي تتعرَّف على صورتها في المرآة، وكذلك إلى القِرَدة العليا التي تُظهر قدراً كافياً من التعاطُف لمواساة الأنثى المحزونة أمام جثَّة صغيرها، وللكذب برباطة جأشٍ على أمثالها من القِرَدة بغية الحصول على الحلوى... إلخ.

ولكن يبقى في رصيد خاصيّات الإنسان دماغ عظيم غير مُستكشَفٍ بعدُ بالكامل، ناهيك عن اللغة، التي تُعَدُّ مَلَكةً تدعو إلى الانبهار، لأنَّها تُتيح تسامي مفهومَي الفِطريّ والمُكتسَب، إذ إنَّها راسخةٌ في طبيعتنا البيولوجيّة ككائناتٍ بشرية، كما أنَّها تتَّصف في الوقت نفسه بطابعها الثقافيّ للغاية.

تندرج مَلَكة اللغة في خانة الغريزة، بحسب ما ورَدَ على لسان الألسنيّ الأميركيّ ستيفن بينكر (Steven Pinker)، وهي غريزةٌ مُبرمَجةٌ وِراثياً، بحيثُ إنَّنا لو استثنينا بعض حالات الأمراض الجديَّة، نجد أنَّ الجميع يتكلَّم (بما في ذلك الأشخاص الصُمّ الذين يُقال إنَّهم

«بُكم» أيضاً، والذين «يتكلَّمون» بلغة الإشارات)، فما صادفْنا يوماً على سطح المعمورة شعباً مجرَّداً من القدرة اللغوية. وتستوجِبُ هذه الغريزة بطبيعة الحال التعلّم والتدرّب، أسوةً بالكفاءات المعرفيّة والمُحرِّكة التي يتحلّى بها الإنسان كلّها تقريباً، فلدى الولادة، يتعيَّن على الطفل البشريّ، غير الناضِج بوجهٍ خاصٍّ والقليل المهارة بطريقةٍ مُيَئِّسة - إذ إنَّه لا يكاد يعرف أن يتنفَّس وأن يرضَع -، أن يتعلَّم اللغة، تماماً كما عليه أن يتعلَّم المشي. ولكن إنْ كان الجميع يمشي بالطريقة نفسها نوعاً ما، فثمّة بضعة آلافٍ من اللُّغات المُختلفة المحكية على سطح الكرة الأرضيّة، ما عدا تلك التي اندثرت. ومن النافل التذكير بأنَّ اللُّغات لا تمتُّ لعِلم الوِراثة بأيّ صلةٍ، لأنَّها وليدة الثقافة، كما أنَّ الإشارة اللغوية هي بامتيازٍ ثمرة التعرُّف إلى الهوية وإلى الانتماء الاجتماعيّ.

وللّغة، التي لا تُضاهى في مجال تنظيم أفكارنا ومشاطرة تصوُّراتنا الذهنية وأحلامنا والتحكُّم بالمفاهيم والمحاجّة ونقل المعارف التي هي في أصل الثقافات البشرية، حكايةٌ بمنتهى الجمال، تستحقُّ عن جدارةٍ أن نُخصِّص لها مؤلَّفاً من سلسلة الكتب هذه. وسنروي هذه الحكاية عند ملتقى أنظمةٍ علميةٍ متعدِّدةٍ، نذكر منها: علم الألسنيّة والباليوأنثروبولوجيا(*)، ومبحث الجهاز العصبيّ، وعلم النفس، وعلم الوِراثة. وسنُعالجها ـ كما تعوَّدنا ـ بعيداً عن اللُّغة الاصطلاحيّة، أي من خلال طرح أسئلةٍ بسيطةٍ، وحتّى ساذجةٍ بغية مقاربة ميادين أبحاثٍ هي في أَوْج غليانها وذروة فورانها حول موضوعٍ لا نشكّ في أنَّه لكثرة ما حُكي وكُتِبَ عنه جفَّ الريق ونضبَ الحبر.

[كلّ الهوامش في هذا الكتاب هي من وضع المترجمة].

(*) الباليوأنثروبولوجيا: علم يبحث في أصول الإنسان القديم.

الحلقة الأولى - الأصول: أيُّ تكييفٍ تطوُّريٍّ مغايرٍ قد حدا إلى بروز أداة اللغة هذه، المؤثِّرة والفريدة إلى هذا الحدّ؟ وكيف تطوَّرت في دماغ أسلافنا في الوقت نفسه مناطقُ متخصِّصةٌ وجهازٌ نُطقيٌّ قادرٌ على التلَفُّظ بالأصوات والجَهْر بها؟ إنَّ جذور حكاية وضعنا كحيوانٍ ناطقٍ ضاربةٌ ومتأصِّلةٌ في شجرة عائلتنا، فأسوةً بأيّ مسألةٍ عائليّةٍ، من المناسب دوماً أن نتفحَّصَ الوالدَين والأشقَّاء وأبناء العمّ. وبالنظر إلى هذه الحالة، ينبغي تفحُّصُ القِرَدة العليا، وبوجهٍ خاصٍّ قِرَدة الشمبانزي والبونوبو التي تربطنا بها قربى وطيدةٌ، والتي تتَّصف بالمكر والكَياسة والوُصوليّة إلى أبعد حدودٍ في بيئتها الطبيعيّة. كما أنّها تُبرهنُ في المختبر عن موهبةٍ للتعبير بواسطة لغة الإشارات أو بواسطة القطع البلاستيكيّة الصغيرة الحجم ذات الأشكال والألوان المتنوّعة. وإذا ما «أصغينا» جيّداً إلى أشقّائنا الرئيسات(*) (Primates)، فسنستدلُّ منهم على الكثير الكثير بشأن محاولات النطق الأوَّليّة في سلالتنا. ثمَّ، يبقى علينا أن نُعاين أحافير(**) أسلافنا لنستمدَّ منها الدلائل حول شكلهم الخارجيّ، ولا سيَّما حول طريقة عيشهم، فصناعة الأدوات وغزو الأراضي المترامية الأطراف وطهو الطعام والعناية بالأطفال غير الناضجين ودفن الموتى ورسم المدهونات الجداريّة في الكهوف وعبور البحار بالمراكب... إلخ، تُشكِّل كلُّها إشارات تستلزِم الولوج إلى التصوُّر الرمزيّ وتجعلنا نُمسك بالخيط الذي سيسمح لنا أخيراً باقتفاء أثر بروز مَلَكة اللغة.

يروي لنا باسكال بيك (Pascal Picq)، وهو باليوأنثروبولوجيٌّ ومحاضرٌ في معهد فرنسا (Collège de France)، حكايةَ الأصول هذه بحميَّته المعهودة. هذا الباحِث المطنِب، الذي دفعته الأوسترالوبيتيك

(*) الرئيسات: رتبة من الثدييّات، منها البشرية ومنها القردية.

(**) أحافير: بقية حيوانات أو نباتات متحجرة عائدة إلى عصر جيولوجي سالف.

(Australopithèque) لوسي (Lucy) الشهيرة، إلى التخلّي عن الفيزياء النظرية، وهي اختصاصه الأساسيّ. هو بالطبع غزير الكلام، وكونه مناهضاً للتفكير العقيم الذي يدور في حلقاتٍ مفرغةٍ، فهو يتصرَّف بما يُخالف العادة والعُرف ويحارِبُ الأفكار الموروثة ويُثير الأسئلة المُربِكة ـ وهي عديدةٌ ـ ما أنْ نلامس مسألة تكوين سلالتنا. وقد أدَّت به أبحاثه إلى الاهتمام بعلم البيئة لدى القِرَدة العليا (grands singes)، فغدا مدافعاً شرساً عنها. ولكنَّه وقفَ نفسه خصوصاً لدراسة تطوُّر أسلاف الإنسان، أي فصائل الإنسيّات (les hominidés)، وتكيُّفهم. وآخِذاً بمنتهى الجديّة مهمَّته في نشر المعارف، ألَّف بيك العديد من الكتب، كما أنَّه شكَّل مصدر إلهامٍ لتصميم رقصةٍ لحساب شركة هاليت إيغايان (Hallet Eghayan) مُقتبسةٍ عن أعماله حول المشي على قدمَين اثنتين.

الحلقة الثانية ـ أسطورة اللُّغات: ماذا نعرف عن اللُّغات التي كان يتكلَّمها أسلافنا؟ وهل إنَّ اللُّغات المحكية اليوم تتحدر من لغةٍ أمٍّ واحدةٍ؟ ثمّة أمرٌ واحدٌ مؤكَّدٌ، ألا وهو: منذ أن عرف البشر الكلمة، ما انفكَّت اللُّغات تتنوَّع. هذه هي القصّة الحقيقيّة لأسطورة بابل التي تمتدُّ على مدى عشرات آلاف السنين. إنَّها حكايةٌ مُسلسَلةٌ طويلةٌ تتألَّف من عدّة حلقاتٍ يُعيد الألسنيّون تشكيلها من خلال ترصُّد آثار الماضي الغابر في لغات اليوم، ولكنَّهم يركنون على حدٍّ سواء إلى معطيات الأرخيولوجيا[*] وعلم الوِراثة. ومن شأن تقاطع المجالات المُثمِر أن يُغْني بشكلٍ ملحوظٍ معارفنا حول اللُّغات التي كنَّا نخال أنَّ صفحتها قد طوِيَت إلى الأبد، ولا سيّما لغات المزارعين الأوائل في العصر الحجريّ الأخير. ويسمحُ لنا هذا الكلام

(*) أرخيولوجيا: علم الأثريات.

المُستعاد بأن نقفَ على طريقة عيش أسلافنا، ولكن أيضاً على ثقافتهم ونظام القربى لديهم، فضلاً عن معتقداتهم.

تُبرهن لنا إعادة شريط الزمن أنَّ «لهجاتنا المحليّة» قد عرفت تاريخاً متقلِّباً تحكمه قوانين خاصّة سنعمد إلى اكتشافها. إننا نحصي اليوم ما يُناهز الستة آلاف لغةٍ مُختلفةٍ محكيّةٍ في مختلف أصقاع الأرض، منها حوالى الـ 800 تُحكى في جزيرة غينيا الجديدة فقط! ولكنَّ هذه الثروة اللغوية في دائرة الخطر، إذ إنَّ نصفها على الأقلّ مُهدَّدٌ بالاندثار بحلول نهاية القرن، ويرفعُ بعض المتشائِمين عدد اللُّغات المُهدَّدة إلى 90 بالمئة من مجمل اللُّغات! فهل سيتكلَّم العالم بأسره خلال المئة سنةٍ المقبلة اللُّغة الإنجليزية، أو الصينيّة، كما تكهَّنَ رُسل الشؤم الكثيرو التنبُّؤ بالكوارث؟

لم يكن لوران ساغار (Laurent Sagart)، وهو ألسنيٌّ ومدير أبحاث في المجلس الوطنيّ للبحث العلميّ (Centre national de la recherche scientifique) (CNRS) في معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (École des hautes études en sciences sociales) (EHESS)، من أنصار المذهب الكارثيّ، كما لم تكن الشَّكاسة إحدى صفاته، فهو شغوفٌ بدراسة تطوُّر اللُّغات، وقد بعثَ هذا الشغفَ في نفسه مدرِّسُ اللُّغة اليونانيّة الذي علَّمه في الصفّ الرابع المتوسِّط. احتفظَ ساغار من طفولته التي أمضاها في مدينة دوردون (Dordogne) بميله إلى الاطِّلاع على حقبة ماقبل التاريخ، وقد سمحَ له إلمامه باللُّغة الصينيّة بأن يصبح واحداً من أبرز الاختصاصيِّين العالميِّين في الألسنيّة التاريخيّة التي تُعنى بدراسة لغات شرق آسيا، كما أنَّه كان يأسفُ لأنَّ الجمهور العريض لا يُقدِّر جيِّداً مجال اختصاصه، وهو لم يدَّخر وسعاً من أجل أن تصبح أعمال الألسنيِّين، التي تُعدُّ أداةً عظيمة الشأن لتحرِّي قصّة نشوء السلالة البشريّة

وفِكرها، في متناول الجميع. وضارباً عرض الحائط انشغالات الصّفائيِّين(*) (Puristes)، الذين يرومون إلى تحجير اللُّغة - فوحدها اللُّغات الميتة لا تتطوَّر!، يحمل ساغار راية الدّفاع عن التعدُّديّة اللُّغويّة، لأنَّها السلاح الأفضل للمحافظة على تنوُّع اللُّغات.

الحلقة الثالثة ـ كيف يتعلَّم الأطفال اللغة: إنَّها حقّاً معجزةٌ لا تنفكُّ تثير الدهشة، حين يغدو الطفل المُستَهِلُّ الحديثُ الولادة خلال ثلاث سنواتٍ متكلِّماً متشدِّقاً قادراً على سرد الحكايات وإنشاد الأراجيز، كما أنَّه يُبيِّنُ عن مهارةٍ في استعمال قواعد اللُّغة حتّى قبل أن يتعلَّم القراءة أو يدرسَ قواعد تصريف الأفعال. ولكن كيف يكون هذا التعلُّم السريع ممكناً؟ وكيف ينجح الطفل في تمييز صوت والدَيه عن سائر الأصوات المُحيطة به؟ وكيف يتعرَّف على الكلمات في دفق الكلام المُستمرّ؟ وكيف يتمرَّن للسيطرة على مئات العضلات الضروريّة للتلفّظ بالكلام؟ وكيف يتعلَّمُ قواعد النحو في لغته الأمّ من دون أن يعلِّمه إيّاها أحدٌ؟

بتنا نعرفُ الآن أنَّ ما يسمحُ باجتراح هذه المُعجزة المتواضعة هو واقع أنَّ الشبكات العصبيّة لدى الإنسان الرَّضيع تكون عند الولادة، وحتّى قبلها، مُهيَّأةً مُسبقاً لتعلُّم اللغة. في بضع سنين خَلَتْ، أصبح بمقدورنا أن نرى مباشرةً، بفضل التطوُّر الذي لَحِقَ بالتصوير الطبقيّ الطبيّ، كيفيّة عمل دماغ الأطفال، وبدأنا نفهم كيف يكتسب الأطفال القُدرة اللغوية، وأصبحَ باستطاعتنا بالتالي أن نُجيبَ على الأسئلة التي يطرحها الوالدان، على غرار: «هل ينبغي إسماع الجنين مقاطع لغوية لشكسبير في فترة الحمل؟»، و: «في كنف عائلةٍ تتكلَّمُ بلغتَين، هل ستختلط هاتان اللُّغتان في رأس الولد؟»، و: «لِمَ

(*) الصفائيون: هم من يتكلّفون الحرص على صفاء اللغة.

يقول ولدي «لقد آخَذتُ المُلبَّس» («j'ai prendu des bonbons»)؟».

تتحدَّثُ جيسلان دوهان (Ghislaine Dehaene)، وهي طبيبة أطفالٍ ومديرة أبحاث في المجلس الوطنيّ للبحث العلميّ (CNRS) التابع للمعهد الوطنيّ للصحّة والبحث الطبيّ (Institut national de la santé et de la recherche médicale) (INSERM)، الذي يُعنى بالتصوير الطبقيّ العصبيّ المعرفيّ، باستفاضةٍ عن هذا الموضوع، فلطالما انجذَبَت دوهان منذ سنوات تحصيلها العلميّ إلى مسألة تكوّن المَلَكات المعرفيّة التي يتحلّى بها المولودون الجدد، وقد قضَت وقتاً طويلاً في رصد التجارب ودراستها وإعدادها، بغية التمكُّن من «رؤية» دماغ الأطفال حين يكون في وضعيّة العمل، وقد طبَّقت ذلك مع أبنائها الثلاثة. وهي ترى في هذا الأمر رهاناً أساسيّاً أمام طبّ الأطفال العصبيّ، الذي تفوق معرفتُه بالأمراض الخطِرة ـ للأسف ـ معرفتَه بنموّ الطفل الطبيعيّ، وهو نتيجةً لذلك غير مُحصَّنٍ لمواجهة اضطرابات التعلُّم لدى الصِّغار المُصابين (عسر القراءة، عُسر الكلام... وغيرها)، التي من النادر أن يُصادفها الأطبّاء في المُستشفيات، ولكنَّها تُسمِّم الحياة اليوميّة وتقضّ مضاجع الأهالي وتُبلبل الأطفال.

بآذانٍ صاغيةٍ وعيونٍ مسمَّرةٍ على شفتَي دوهان، اللَّتين ما انفكّتا تَفْتُران عن ابتسامةٍ، تابعنا بانبهارٍ حديثها عن كيفيّة تقدُّم الأطفال التدريجيّ المُذهِل باتّجاه اكتساب مَلَكة اللغة. وعقب سماع حديثها، لا بدّ أنّنا سنصغي من الآن فصاعداً إلى الأطفال بذهنيّةٍ مختلفةٍ تماماً.

أثناء الحوارات التي أجريتها مع باسكال بيك ولوران ساغار وجيسلان دوهان، استشهَدَ كلٌّ منهم بدوره بطُرْفَةٍ سأرويها في هذا الصدد بمثابة التمهيد. إنّها قصّةُ مجموعةٍ من الأطفال الصُمّ في مدرسةٍ متخصّصةٍ في مدينة ماناغوا (Managua) في نيكاراغوا

(Nicaragua)، ففي مطلع الثمانينيّات، لم يكن الرَّعيل الأوَّل من الشبّان المُصابين بالصَّمَم المُلتحقين بالمؤسّسة متمكِّنين بعد من لغة الإشارات، حيثُ إنَّ ذويهم لم يكونوا «يُؤشِّرون»، وكذلك كان شأن الطاقم العامل في المدرسة، الذي كان هدفه تحضير هؤلاء للتعبير عمّا يريدون قوله، ولقراءة الشِّفاه. ومع كرّ الأشهر، وضعَ التلاميذ بشكلٍ عفويٍّ نظام رموزٍ إشاريّةٍ للتواصل في ما بينهم. بيد أنَّ نظام الرموز هذا لم يكن يُعَدُّ لغةً حقيقيّةً، بل نوعاً من الرطانة أو الصَّبِير(*) الكافي ليقول أحدهم للآخر: «أنتَ لعِبَ مع أنا في الملعب» («toi jouer avec moi dans la cour»). ولكنَّه لم يكن جديراً بتأدية وظائِف اللغة كافّةً، أو بالولوج إلى المعاني المجرَّدة أو بتحرير التواصل الآني كليّاً من قبضة حاضر الإحساسات.

وأتت المفاجأة مع الجيل الثاني من الأولاد الذين التحقوا بالمدرسة، فلقد حوَّل هؤلاء الشبّان الصُمّ بمنتهى «العفويّة» هذا التواصل الإشاريّ التلقائيّ إلى لغة إشاراتٍ مزوَّدةٍ قواعدَ لغةٍ وتركيبٍ، باختصارٍ: إلى لغةٍ حقيقيّةٍ قادرةٍ على التعبير عن غنى الفِكر البشريّ وعن تعقيده ككلّ. ولكن هل ينبغي أن نعتبر أنَّ اللغةَ، التي يعرف الإنسان ـ كما رأينا ـ كيف يعيد ابتكارها في شتَّى الظروف، تُشكِّل أولى ثروات هذا الأخير وجوهر هويَّته؟ سنكتسب هذه القناعة بلا أدنى ريب مع بلوغ هذا الكتاب خاتمته السعيدة، إذ إنَّ **الإنسان العاقل** هو قبل كلّ شيءٍ **إنسانٌ متكلِّمٌ** (Homo loquens).

سيسيل ليستيان (Cécile Lestienne)

(*) الصبير: لغة مزيج من عدة لغات.

الحلقة الأولى

نحو مصادر اللغة

مَن هو ذلك الكائن الغامض العجيب الذي ينتمي إلى رتبة الرئيسات، والذي كان أوّل مَن شَرَعَ منذ فجر التاريخ بالتواصل على نحوٍ مختلفٍ؟ مع العلم بأنَّ هذه القابليّة المُستجدَّة، أي مَلَكَة اللغة، لم تستقرّ في دماغ الإنسان العاقل (Homo Sapiens) إلاّ على مرّ قصّةٍ تطول فصولها، وتطوُّرٍ سارَ بخطى بطيئةٍ. وبفضلها، يعمد أجدادنا إلى الإسقاط النفسيّ في الماضي والمُستقبل، كما أنَّهم يعطون أنفسهم حقوقاً ويفرضون واجباتٍ ويُبدِّلون وجه المعمورة. إلاّ أنَّ الطريق الممتدَّة من الأصوات التي كانت تصدرها القِرَدة وصولاً إلى الحوارات الشكسبيريّة كانت طويلةً.



الفصل الأول

في البدء كان الكلمة

صمت الأحافير

ـ سيسيل ليستيان: نحن ثمرةُ تاريخٍ طويلٍ. وتُظهِر شجرة التطوُّر الكبرى أنَّ الفرع الخاصّ بنا، أي فرع الإنسان، قد انفصَل عن سائر فروع القِرَدة العليا منذ ما يُقارب الـ 5 أو الـ 7 ملايين عام، وقد حدَثَ ذلك في مكانٍ ما من قارة أفريقيا. ومنذ تلك الحقبة السحيقة، اكتسبت سلالتنا قدرةَ المشي على قدمَين اثنتين، ويداً مرِنةً بوجهٍ خاصٍّ، ودماغاً كبيراً لا يزال غير مستكشَف بالكامل، وتُضاف إلى كلّ ذلك مَلَكة اللغة. وتُمِدُّنا الأحافير، على ما أظنُّ، بالدلائل الدامغة حول اكتساب هذه الامتيازات الأولى. ولكن ما الذي نستطيع معرفته بشأن بروز اللغة؟ فالكلام لا يتحجَّر...

ـ **باسكال بيك**: كلّا بالتأكيد. ولربَّما كان ذلك السبب الذي يجعل هذه المسألة تثير كمّاً كبيراً من المناقشات بين أهل الخبرة، فلقد حرَّكت ألسنتهم وأقلامهم فتحدَّثوا عنها بذرابةٍ. فالكتابةُ وحدها تُشكِّل البرهان الجازم على أنَّ أجدادنا كانوا يتمتَّعون بمَلَكة لغوية. إنَّني أمزح بالطبع، فجدّياً لا يخطر في بال أحدٍ قطّ أنَّ أسلافنا لم

ينبسوا ببنت شفةٍ منذ حوالى الـ 8 آلاف أو الـ 10 آلاف سنةٍ منتظرين أن يُصار إلى اختراع الكتابة، فصحيحٌ أنَّ الكلام لا يتحجَّر، إلاّ أنَّنا نملك مؤشّرات على وجوده، والإشكاليّة تكمن بالطبع في تفسيرها. إنْ كانت مسألة أصل اللغة تُعدُّ مسألةً جوهريّةً إلى هذه الدرجة، فذلك لأنَّ اللغة مُشارِكةٌ في جوهر تحديد الإنسان نفسه، باعتبار أنَّها حكرٌ عليه. وتطالعنا هذه الفكرة في العديد من النصوص المُقدَّسة، ومن جملتها النصّ الشهير الذي يبدأ بعبارة «في البدء كان الكلمة...». وفي ثقافتنا الغربيّة، أي ثقافة الكتاب المُقدَّس، أنَّ الإنسان هو على صورة اللّه ومثاله، لأنَّه يملك القدرة على الكلام وعلى تسمية الأشياء، أي بالتالي على جعل الأشياء موجودة. هذه هي النقطة الفاصلة، ومفادها: بواسطة مَلَكة اللغة وفعل القول، يكون الإنسان قادراً على الخلق. هذا أمرٌ مُذهلٌ! ففي مجال اختصاصي، على سبيل المثال، تفتح الباليوأنثروبولوجيا، أي عمليّة اكتشافِ أحافير تعود لجنسٍ جديدٍ وإعطائها اسماً، سبيلاً لتخليد ذكرى هذا الجنس.

ـ إذاً، الإنسان هو حيوانٌ ناطقٌ، وهذا ما يجعله مُتميّزاً في عالم الكائنات الحيّة؟

ـ يتبجَّح الإنسان بأنَّه الوحيد الذي يتمتَّع بمَلَكة لغوية. ويقضي المنطق إذاً بأن يكون مَن يتكلَّم إنساناً. وليس هذا الموقف بجديدٍ، فمثلاً: في كتاب **حلم دالنبير** (*Le Rêve de d'Alembert*) للكاتب ديديرو (Diderot)، يتوجَّه الكاردينال إلى إنسان الغاب الذي يعيش في حديقة الملك قائلاً: «تكلَّم وسأعمِّدكَ». فمنذ أن سلَّمنا ـ وبصعوبةٍ ـ بأنَّ أصل الإنسان قِردٌ، لم نَكَلَّ ولم نَمَلَّ من التنقيب عمّا يُحرِّر الإنسان من الوضع الحيوانيّ. وتشكِّل اللغة الحدّ الأخير الفاصل الذي يُميِّز الإنسان عن الحيوان.

- أليس من باب الغرور أن نحسبَ أنَّنا الكائنات الوحيدة التي تتمتَّع بمَلَكة لغوية؟ أمَا من مَلَكاتٍ لغويةٍ لدى الحيوانات؟

- إنَّ الحديث عن وجود ملَكة لغوية لدى الحيوانات هو على الأرجح. . . كلام مبالغ به، لأنَّ اللغة البشريّة هي نمط تواصلٍ فريد جدّاً من نوعه، فالحيوانات تتواصل في ما بينها بواسطة الحركات (يمدُّ قِرد الشمبانزي يده مثلاً ليستجدي الطّعام)، أو بواسطة وضعيّة الجسد (يعتني الطاووس بهندامه ليُغري جميلته)، أو عبر الروائح (بحيثُ إنَّ بعض السنَّوريات تبول لتعلِّم منطقتها، وكذلك تعمدُ الفراشات إلى جذب شريكها بواسطة الهرمون الفَروز(*) (Phéromones) الذي تقذفه خارج جسمها)، أو بواسطة مجموعةٍ هائلةٍ من الإشارات الصوتيّة، على غرار: الصراخ والصفير والقوقأة والقُباع والمواء والصُّفار والنعيب وغيرها من أصوات الخُوار والعجيج. وتسمح هذه الإشارات قاطبةً بحصول تفاعلٍ بين حيوانَين متجانسَين أو أكثر، ولكنَّها لا تُعَدُّ لغاتٍ بحصر المعنى.

رقصة النحل

- لمَ لا نستطيع أن نتحدَّث عن مَلَكة لغوية في ما يتعلَّق بهذه الحيوانات؟

- لكي لا أدخل في التفاصيل، سأكتفي بالقول إنَّ نقطة الاختلاف القائمة بين التواصل غير الكلاميّ ومَلَكة اللغة التي نملكها تكمن في الإبداعيّة، إذ يمكننا بالطبع أن نقفَ مندهشين بحقٍّ أمام روعة تغريد العصافير وأمام تعقيد الرقصة التي يؤدِّيها النحل أو الاستعراضات الزفافيّة التي تقوم بها أسماك أبو شوكة أو الطاووس أو

(*) إفراز غُدِّيّ شبيه بالهرمون، يقذف خارج الجسم.

اللَّبونات المُغوية. غير أنَّ مجموعة التواصلات غير الكلاميّة هذه محصورةٌ جدّاً في الواقع، فالحيوانات تتواصل لتتنادى (تُنادي الأمّ مثلاً صغارها، ويُنادي الذكر الأنثى، أو بالعكس) ولتُدافع عن نفسها أو لتهجُم أو لتستسلم أو لتحذِّر من الخطر أو لتجامع أو لتلقي التحيّة... بيد أنَّ المسألة تتعلَّق في أغلب الأحيان بتصرُّفاتٍ مُقَوْلبةٍ جدّاً، فرقصة النحل ـ مثلاً ـ تسمح لهذه الحشرة بإخطار أخواتها بوجود أزهارٍ باتِّجاه الشرق يُمكنها أن تَجْرُس مونتها منها... إنَّها تزوِّدهم بمعلوماتٍ حول مكان وجود الطعام، هذا كلّ ما في الأمر. ولكنَّها ـ مثلاً ـ لا تدلُّهم على الغيمة الجميلة التي تتَّخِذ شكل فيلٍ.

ـ توضَّح لنا الأمر في ما يتعلَّق بالنحلة، ولكن ماذا عن الأجناس التي تتمتَّع بطرق تواصلٍ أكثر تعقيداً بكثيرٍ، على غرار الدلافين والحيتان والفيلة؟

ـ والقِرَدة أيضاً! إذ لا زال أمامنا الكثير لنكتشفه عنها، ولكنَّنا سنتطرَّق إلى هذه المسألة لاحقاً. إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هو الآتي: هل تملك هذه الحيوانات ملَكة لغوية؟ سأقوم بسرورٍ بدور محامي الشيطان، وسأجيبُ بأنَّه ليس لدينا فكرةٌ عن هذا الموضوع، إلاّ أنَّ الأمانة العلميّة تُلزِمنا بالإقرار بالأمر التالي: لسنا أكيدين من عدم قدرة هذه الأجناس على إدراك التمثيل الرمزي الذي يجعل ملَكَة اللغة التي نتحلَّى بها أعظَم شأناً من سائِر طرق التواصل، بفضل قدرتها على إنتاج كميّةٍ لامتناهيةٍ من الأقوال. وبتعبيرٍ آخر: لسنا على ثقةٍ مُطلقةٍ بأنَّ بعض الحيوانات لا تستخدم أيّ شكلٍ من أشكال تمثيل العالم، ولكنَّنا نفتقر اليوم إلى أيّ مؤشّر للجزم بهذا الأمر، ونعلمُ في المقابل أنَّ لغتنا ليست مجرَّد قائِمةٍ تضمُّ مجموعة علامات، مهما كانت كاملةً، أي إنَّ الكلمات لا تُعبِّر عن مجرَّد انفعالٍ (كأنْ نقول: «أخاف» «j'ai peur»، و: «أحبُّك» «je

«t'aime»)، أو التماسِ (كأن نقول: «هاتِ» «donne»، و: «اغربْ عن وجهي» «va-t'en»)، بل إنَّها إشارات لغوية اعتباطيّةٌ، تسمح لنا بالرُّجوع إلى أغراضٍ أو أحداثٍ بعيدةٍ في الزمان والمكان. وإليكم المثل التالي: يُمكننا بالطبع أن نُعبِّر بشكلٍ جيِّدٍ عن الأشياء بواسطة الحركات والإيماءات، بحيثُ إنَّني أستطيع مثلاً أن أشير بإصبعي إلى قلم الحبر الأحمر اللَّون الموجود على الطاولة، وأن أومِئ إليكِ بأن تمرِّريه لي، أو ـ على العكس ـ أن أجعلكِ تفهمين أنَّني أقدِّمه لكِ كهديّةٍ. ولكن في ظلّ غياب اللغة، أواجه صعوبةً أكبر بكثيرٍ إنْ أردتُ أن أحدِّثك عن قلم الحبر الأزرق اللَّون المُرقَّط بالأخضر الذي أهدتني إيّاه جدَّتي التي تلقَّته بدورها كهديَّةٍ من أميرةٍ روسيّةٍ كانت منفيّةً من بلادها، وذلك بمناسبة عيد ميلادي السادس عشر وأخذَت عليّ عهداً بأن أُهديه عندما يحين الوقت المناسب إلى الولد البِكر الذي سأُرزَق به ذات يوم. أرأيتِ؟! فإلى جانب الأغراض والمقامات والوقائع غير الملموسة في السياق المحسوس الذي نتواجَد فيه، تسمحُ لنا اللغة بأن نُعبِّر كذلك عن الفروض والواجبات والالتزامات... أو بإنجاز أفعالٍ تنِمُّ عن محضِ مُخيِّلةٍ.

تسمية الأمور «بأسمائِها»

ـ لكنّ الأشخاص الصُمّ البُكم يستطيعون كذلك أن يخبروا هذا النوع من القصص بواسطة الحركات.

ـ بالضبط. ولكنَّ لغات الإشارة هي لغاتٌ حقيقيّة، كما أنَّها تراعي المِيزتَين اللُّغويتَين اللَّتين تتَّصف بهما اللغة المحكيّة، ألا وهما: التلفّظ المزدوج و«اعتباطيّة» الإشارة اللغوية. ويتمثَّل التلفّظ المزدوج بواقع أنَّنا نستطيع بواسطة عددٍ محدودٍ من الأصوات، التي نُطلق عليها اسم الفونيمات (Phonèmes) أن نخلقَ كميّةً لامتناهيةً من الكلمات أو أجزاء الكلمات التي تُعرَف بالمونيمات (Monèmes)، فمثلاً: لا

تنطوي في اللُّغة الفرنسيّة كلمة «rat» («جرذ») على المعنى نفسه الذي تنطوي عليه كلمة «chat» («هرّ»)، بسبب أنَّ صوتَي «r» و«ch» يُميِّزان معنى واحدتهما عن الأخرى. وعلى المستوى الثاني، تندمج المونيمات بدورها لتنضيد المعاني. والمثل النموذجي على ذلك هو تصريف الأفعال في اللُّغة الفرنسيّة، على غرار تصريف فعل «manger» («أكَلَ») الذي يتجلّى كالآتي: «mange, mangeait, mangera ...» («أكَلَ، قد يأكلُ، سيأكلُ...»)، أو على الشَّكل التالي: «mange, mangeons, mangez ...» («كُلْ، لنأكل، كُلوا...»)، حيثُ تُبدِّل حركة آخِر الفعل صيغة الأفعال الزمنيّة والضمير الفاعل. ومع أنَّني لستُ اختصاصياً في لغة الإشارات، لكنَّني أعلمُ أنَّه يُصار فيها إلى استعمال «التلفّظ المزدوج»، بحيثُ نعمدُ إلى تغيير صيغة الفعل الزمنيّة من خلال إبعاد اليدَين عن الجسم أو تقريبهما إليه على سبيل المثال. أمّا بالنسبة إلى «اعتباطيّة» الإشارة اللغوية، فتتعلّق المسألة بالتسليم بأنَّ العلاقة التي تربِط الكلمة (أو الإشارة) بما تُشيرُ إليه هي ذات طابع اصطلاحيٍّ محض. وهكذا، إنَّكِ تُطلقين على هرَّتكِ التي تأكل الجرذَ اسم «chat» («هرّة») لأنَّك فرنسيّة الجنسيّة، ولو كنتِ ألبانيّةً، لكنتِ أطلقتِ عليها اسم «maçok»، وإنْ كنتِ من جزر تاهيتي، كنتِ تسمِّينها «pi'ifare»، في حين أنَّكِ كنتِ أطلقت عليها اسم «ikati» لو كنتِ من الزولو... وهكذا دواليك. وبالتأكيد، إنْ أنتِ أسمَيتِ هرَّتكِ «miaou» («مياو»)، قد يبدو ذلك أكثر طبيعيّةً. ولكن حتّى هذا النمط من المحاكاة الصوتيّة يُعَدُّ اعتباطياً إلى حدٍّ ما، إذ إنَّ هرَّتك الفرنسيّة تموء وكأنَّها تقول (مياو)، ولكنْ كلُّ هرَّةٍ أميركية تحترم نفسها تموء قائِلةً «meow» إزاء ديكٍ أميركيٍّ يصيح قائِلاً «cock-a-doodle-doo»، وليس «cocorico» كابن عمّه الفرنسيّ، ولا «quiquiriqui» كنسيبه الإسبانيّ.

ـ إذاً، يندرج التمثيل والتلفّظ المزدوج واعتباطيّة الإشارة

اللغوية... في عداد مِيزات اللغة البشريّة. أليس ثمّة ما يُعادِلها لدى الحيوانات؟

ـ سأكرِّر مرَّةً أخرى ما قلته، لا يزال أمامنا الكثير لندرسه ونفهمه قبل التمكُّن من الإجابة عن هذا السؤال بشكلٍ قاطع، ولا بدّ من التنويه بأنَّ غالبيّة هذه الأبحاث تستغرق وقتاً طويلاً وتُكلِّف أموالاً طائِلةً ويكون من العسير تحقيقها. وهكذا، كَثُرت ـ مثلاً ـ الشروح حول لغة الحيتان، فنحن على يقينٍ أنَّها تتواصلُ في ما بينها، ولكن من رابع المستحيلات تقريباً أن نتمكَّن في بيئتها المائيّة الطبيعيّة من إدراك التأثيرات التي تُخلِّفها هذه الألحان على مجمل أفراد المجموعة، حتّى لو أنَّ الباحثين قد توصَّلوا إلى تبيان بعض العناصر المُوائِمة، إضافة إلى أنَّ تفسير أنظمة رموزها الاجتماعيّة هو أمرٌ دقيقٌ وحسّاسٌ، لأنَّ هذه الأجناس بعيدةٌ عنَّا، فحتّى لو كان باستطاعتنا أن نربِّي الحيتان في حوضٍ ضخم والعيش لأشهرٍ بينها من أجل «سماعها تتكلَّمُ»، أشكُّ في أنَّنا سنتمكَّنُ من فهمها بشكلٍ أفضل، ففي مثل هذا السياق الذي يُراقبه الإنسان، سنمرُّ على الأرجح بمحاذاة التواصل الطبيعيّ والعوامل التي تُحفِّز هذا التواصل في الطبيعة. في الواقع، لم نعثر مُطلقاً على مجمل مِيزات اللغة البشريّة لدى جنسٍ حيوانيٍّ واحدٍ، ولكنَّنا قد نقع على مِيزات مُعادِلةٍ لبعضٍ منها لدى أجناسٍ حيوانيّةٍ متعدِّدةٍ، إذ يلفتُ بعض الألسنيِّين الانتباه مثلاً إلى أنَّ تغريد العصافير هو مؤلَّفٌ انطلاقاً من وحداتٍ صوتيّةٍ أساسيّةٍ، هي النوتات، يتمّ تنسيقها وفق تغيُّراتٍ نغميّةٍ مختلفةٍ في اللَّحن، ويصل عددها إلى المئة لدى بعض الأجناس. فهل ينضوي ذلك تحت خانة التلفّظ المزدوج؟ هذا أمرٌ يصعبُ تأكيده. كما أنَّنا نستطيع التنويه بأنَّ ثمّة «لهجاتٍ محليّةً» لدى عصافير الزرزور مثلاً، كوجود طُرُقٍ للشدو وضروبٍ مختلفةٍ من فنون تأليف الجمل الموسيقيّة تختلفُ تبعاً للمجموعات.

والحال أنَّ هذه التغاريد تبعثُ برسائلَ، من مثل: «هذه منطقتي» («c'est mon territoire»)، و: «أنا أستيقظ من النَّوم» («je me lève»)، و«أنا أخلدُ للنَّوم» («je me couche») . . . فهل باستطاعتنا أن نتحدَّث عن لهجاتٍ محليّةٍ في هذه الحالة؟ ربَّما. زِد على هذا أنَّنا لاحظنا وجود بشائِر إضفاء المحتوى الدلاليّ للوحدة اللُّغويّة لدى القِرَدة الأفريقيّة الخضراء اللَّون.

«حذارِ، عُقابٌ!»

ـ أيّ قِرَدةٌ موهوبةٌ طبيعياً لعلم الدلالة؟ ماذا تقصد بقولكَ هذا؟

ـ سأوضح مزعمي. لا تتَّصِف عموماً تصويتات (vocalisation) الرئيسات بالطابع الرّمزي الذي يكون للّغة المحكيّة، إلاّ أنَّ روبير سيفارث (Robert Seyfarth) ودوروثي شيني (Dorothy Cheney)، وهما باحثان في علم السلوك الحيوانيّ، قد برهنا في أواخِر السبعينيّات أنَّه كان لبعض القِرَدة الأفريقيّة، المعروفة أيضاً بالقِرَدة الخضراء اللَّون، والموجودة في محميّةٍ في كينيا، ثلاث صرخاتِ إنذارٍ مختلفةٍ يتطابق كل منها مع الحيوانات الثلاثة القانِصة الأساسيّة التي كان من الممكن أن تهاجمها، ألا وهي: الفهد والعُقاب الأفريقيّ والأصَلَة. وفي الواقع، عندما كان قِرد «يصرخُ» «حذارِ، فَهدٌ!» («attention, léopard»)، كان سائر أفراد المجموعة، حتّى تلك التي لم تكن ترى الحيوان المتوحّش، تجثُمُ على أغصان الشَّجر في أعلى نقطةٍ يمكنها بلوغها لكي تجنِّب نفسها الخطر. أمّا لدى سماعها صرخة «حذارِ، عُقابٌ!»، («attention, aigle!»)، فكانت تهرول لتختبئ تحت أيّ غطاءٍ لتصبِحَ في مأمنٍ، في حين أنَّها عندما تسمعُ صرخة «احترس، أصَلَة!» («alarme, python!»)، كانت تنظر إلى الأرض حولها قبل أن تلوذ بالفرار وتحتمي في الأشجار. . .

وهذه الصرخات يتمّ تعلّمها، إذ حين يُخطئ الصّغير ينهره البالغ بقسوةٍ!

- بمعزلٍ عن صرخات الإنذار هذه، هل تمّ تحديد صرخاتٍ تنطوي على دلالةٍ في ما يخصّ الطعام مثلاً؟

- ليس لدى القِرَدة الأفريقيّة الخضراء اللَّون، ولا لدى قِرَدة الشمبانزي، فهذه القِرَدة تُصدر طبعاً صرخاتٍ ذاتَ صلةٍ بالطعام ولكنَّها صرخاتٌ نوعيّةٌ شاملةٌ، فما من صرخةٍ مثلاً تدلُّ على كلمة «موزة» أو «فستق عبيد»، حتّى وإنْ كانت حدّة الصرخات والاهتياجات ذات الصلة وقفٌ على المَيل المُعلَن لهذا النوع من الأطعمة أو ذاك. ولا تزال حالة القِرَدة الأفريقيّة الخضراء اللّون فريدةً من نوعها في سجّلات العلماء الذين يُعْنَوْن بدراسة الرئيسات. ولكن لم يسبق لنا مُطلقاً أن رأينا هذه القِرَدة الصغيرة تتبادل الصرخات للإشارة إلى الأمر الآتي: «عجباً، أمس دنا فهدٌ منّا وارتعدت فرائصنا من الخوف...»، («tiens, hier, un léopard est arrivé, on a eu drôlement chaud...»)؛ أم أنّنا لم نتوصّل بعد حتّى الآن إلى فكّ شيفرة مثل هذا القول.

- لا يُصادفنا مثل هذا الأمر في سِجلاّت علماء الرئيسات، ولكنَّنا نقع عليه في سجلاّت علماء الطيور. وأودُّ أن أتحدَّث تحديداً عن حالة أليكس (Alex)، وهو ببغاءٌ رماديّ اللَّون من الغابون (Gabon) تُربِّيه الأميركيّة أَيرين بيبيربيرغ (Irene Pepperberg). ويعرِفُ أليكس ما يُناهِز الأربعين كلمةً، ويُميِّز الجزرة عن الموزة، ويُدرك الفرق بين المسمار والمطرقة، ويستطيع أن يُسمِّي هذه الأغراض، كما أنَّ بمقدوره أن يقول بلغةٍ إنجليزيةٍ سليمةٍ «أريد الغرض الفلانيّ» («je veux tel objet»)، وطالما أنّه لم يحصل على الغرض المطلوب يواظبُ على رفض كلّ ما يُعطى له، ولا ينفكُّ يُكرِّر مطلبَه الأوَّل إلى

أن يُلبّى. زِد على أنّه يعرف سبعة ألوانٍ، ويستطيع أن يعدَّ حتّى الرقم ستّة، علاوةً على أنّه تعلّم مفهومَي المُماثِل والمُخالِف. أوَلا يُثبِتُ أليكس أنّه يتحلّى بكفاياتٍ مُذهلةٍ تتجلّى من خلال قدرته على التصنيف والعدّ؟

ـ أنتِ على صوابٍ. لقد خلنا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن أنّ الببغاوات لا تتحلّى سوى بقدرةٍ خارقةٍ على التقليد وحسب، كأنْ تقول مثلاً: «كوكو يريد قالب حلوى» («Coco veut gâteau»). ولكن الحال هنا أنّنا نرى ببغاء يتمتّع بقدراتٍ خارقةٍ. المسألة تتعلّق من جهةٍ بحيوانٍ مختبرٍ تلقّى تدريباً مُكثّفاً، ومن جهةٍ أخرى، لن يقول أليكس ألبتّة أموراً مثل: «البارحة، أمضيتُ فترة بعد الظّهر وأنا أعدّ الجزر والموز مع أيرين. فبادئ ذي بدءٍ، أنا لا أحبّ الموز وأؤثِر عليه بزر دوّار الشّمس. وإنِ استمرّ الوضع على حاله، سأُحجِم عن فعل هذا الأمر» («Hier, j'ai passé l'après-midi à compter des carottes et des bananes avec Irene. Je n'en peux plus. D'abord je n'aime pas les bananes, je préfère les graines de tournesol. Si ça continue je vais démissionner»).

ومن المُستبعد كذلك أن يقول أليكس ما يلي: «مع أنَّ أيرين التي ترجع معرفتي بها إلى عهدٍ بعيدٍ تعلمُ أنّني أعتقد أنّها تعلمُ أنّني لا أحبُّ الموز» («Irene, que je connais depuis longtemps, sait pourtant que je pense qu'elle sait que je n'aime pas les bananas»). بتعبيرٍ آخر: لن يلجأ هذا الببغاء إلى استعمال التكرار (Récurrence)، وهو خاصيّةٌ أخرى من خصائص اللغة البشريّة يخوّلنا إدخال كلماتٍ أو جملٍ، الأمر الذي يتطلّب درجةً كبيرةً من الدقّة.

المسخ الواعِد

ـ ولكن، ألا يدعو إلى الاستغراب أن تنفرِد سلالتنا في مملكة الحيوان بابتكار طريقةٍ للتواصل على هذا القدر من الفعاليَة والتميُّز؟

ـ كان الأميركي ستيفن بينكر (Steven Pinker) ليُجيبَك بأنَّكِ تقولين ذلك لأنَّك لستِ فيلاً. فلو كنتِ كذلك لكنتِ مبهورةً بوجود الخرطوم! فما الذي حدا إلى ظهور مثل هذا العضو الفريد إلى هذه الدرجة من الفرادة خلال أطوار النموّ، إذ يتألَّف الخرطوم من منخورَين يصل طولهما إلى المترَين وعرضهما إلى الثلاثين سنتمتراً، كما أنَّه يحتوي على ستِّين ألف عضلةٍ؟! إنَّه معجزةٌ تتجلَّى من خلالها القوَّة والدقَّة في آنٍ، بحيثُ إنَّ هذا الجِسئيّ(*) (Pachyderme) قادرٌ بواسطة خرطومه أن يقتلعَ الأشجار وأن يُمسكَ قلماً ليرسمَ به خطوطاً دقيقةً، كما أنَّ باستطاعته أن يرفعَ أثقالاً هائلةً وأن يقتلعَ شوكةً صغيرةً. هذا وبإمكانه أن يمسكَ كأساً زجاجيةً بمنتهى الرقّة من دون أن يكسرها، ولكن بمنتهى القوّة في الوقت نفسه، بحيثُ لا يقوى على انتزاعها منه إلاّ فيل آخر، فبواسطة الخرطوم يتنفَّسُ الفيل، ويشربُ، ويثعبُ(**) الآبار، ويشتمُّ الطعام (أو ثعابين الأصَلَة) على قطر كيلومترٍ أو أكثر، ويستعين به كذلك ليتواصل، عبر إصدار أصواتٍ متعدِّدةٍ تُشبِه صوت الأبواق، والطنين، والصفير، والصُّفار، والزمجرة، وغيرها من أصوات النهيم والصئِيّ(***)...

والآن وقد انقرضت فِيَلة الماموث ـ وهي أبناء العمّ المقرَّبون للفِيَلة ـ، بات الفيل الحيوانَ الوحيد الذي يملك عضواً بهذه الروعة.

(*) الجِسئيّ: صفيق الجلد من الحيوانات.

(**) يثعبُ: ينقل الماء بالمِثعَب، أو بالمِمْصَص، أي يسحبه مصّاً.

(***) النهيم والصئيّ: صوت الفيل.

أمّا ابن عمّه الأرضيّ الأقرب، أي حيوان وَبْر الصنوبر (L'hyrax)، فلا يُشبهه إلاّ شبهاً قليلاً، وهو يملك خُرطوماً من أكثر الخراطيم ابتذالاً. هذا الخُرطوم هو الذي ينبغي أن يُصنَّف بمثابة ابتكار الطبيعة المُستهجَن المُخالِف للمألوف، ومع ذلك فهو لا يُثير دهشة الأحيائيِّين، وما من باحثٍ يؤكِّد أنَّ الخرطوم ظهَرَ دفعةً واحدةً بين ليلةٍ وضحاها، بحيثُ إنّنا لم نسمع على لسان أيّ باحثٍ مَزْعماً مفاده أنّه ذات يوم صافي الأديم وعالي النسيم وضعت الفيلة الأمّ ذات المنخورَين الطبيعيَّين دغفلاً له أنف ضخم ينمُّ عن طفرةٍ مُذهلةٍ، وأنَّ هذا الذكر الصغير ـ إذ إنَّه بالطبع سيكون ذكراً! ـ سيلقى نجاحاً تناسلياً منقطع النظير، إلى درجة أنّ الفصيلة برمَّتها ستجد نفسها متزينة سريعاً بخرطومٍ غريبٍ.

ـ هل هذه هي نظرية المِسخ الواعِد؟

ـ تماماً. ولكن تبدو هذه النظرية مدعاةً للسخرية في ما يخصّ خرطوم الفيل. برأيي، إنّها مُثيرةٌ للسخرية بالقدر نفسه في ما يخصُّ اللغة أيضاً، على الرَّغم ممّا يزعم البعض بشأنها، وعلى رأسهم الألسنيّ نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، الأشهر من أن يُعرَّف، والذي يؤكِّد أنَّ اللغة البشريّة هي رهن وَحْدَةٍ خاصّةٍ كامنةٍ في الدماغ تُشكِّل مركز وجود قواعد اللُّغة التوليديّة الكلّية التي ظهرت في الجنس البشريّ من دون أن تكون خاضعة لقوانين الاصطفاء الطبيعيّ. وإجمالاً، يستلزِم التواصلُ عبر اللغة تحليلاً تركيبيّاً مُعقَّداً في تمفصلاته لدرجة أنّه يصعبُ علينا جداً أن نتخيَّل وجود أنظمةٍ متوسطة النظام اللغوي.

ـ من غير المقبول إذاً أن نقول بإمكانيّة حصول طفرةٍ وراثيّةٍ تفشَّت بسرعةٍ بين البشر. ولكنْ، ثمّة جيناتٌ للغة...

ـ ثمّة أسسٌ وراثيّةٌ للغة، إذ إنَّ أيّ طفلٍ بشريٍّ قادر على تعلُّم اللغة ولو كان غير طبيعيٍّ أحياناً، أو حتى إنْ كان يشكو من مرض الصَّعَل(*)، إذ إنَّ الطفلَ الصَعْلَ لا يكون عاجزاً عن اكتساب اللغة. وبالعكس، تؤدِّي بعض الاضطرابات الوِراثيّة إلى اضطراباتٍ في تعلُّم اللغة، وأعتقدُ أنَّك ستناقشين هذا الموضوع مع جيسلان دوهان لاحقاً. ولكن علامَ يدلُّ ذلك؟ إنْ دلَّ على شيءٍ فعلى أنَّ دماغنا مزوَّدٌ بقدراتٍ فِطريةٍ لتعلُّم لغة ما، وأنَّ لهذه القدرات أسساً وراثيّةً، ولكنَّ ذلك لا يُثبتُ أنَّها نوعيّةٌ حكماً.

جينات اللغة

ـ لم أفهم الفارق الدقيق. . .

ـ حسناً، يعني ذلك أنَّه لا وجود لجينةٍ واحدةٍ مسؤولة عن اللغة، بل عدَّة جيناتٍ، وأنَّ هذه الجينات لا تُشكِّل على الأرجح مجموعةً مُخصَّصةً للغة وحسب، إذ إنَّنا نعثر في الطبيعة على العديد من التصرُّفات العصيّة على التحليل لأنَّها في الواقع محصِّلةُ جيناتٍ متباينةٍ. فلنراقب على سبيل المثال سلوكَ النحلة: إنَّها تبني في قفيرها نُخروباتٍ (Alvéoles) من شمعٍ مسدَّسة الشَّكل. علماً بأنَّه ما من **جينةٍ واحدةٍ** مسؤولة عن بناء النخرُوب المسدَّس الشَّكل، بل إنَّه نتيجة معطياتٍ متنوِّعةٍ نذكر منها مثلاً: طول قوائِم الحشرة وإفرازاتها. . . إلخ. قِس على ذلك اللغة، فبالتأكيد ما من جينةٍ واحدةٍ للغة، بل ثمّة زمرةٌ من الجينات التي تشترك اشتراكاً مباشراً بدرجاتٍ مختلفةٍ في عملية إنتاجها وفهمها.

ـ فعلاً، تبدو جينةٌ واحدةٌ أصغر من أن تتمكّن من التحكُّم بوظيفةٍ على هذا القدر من التعقيد.

(*) مرض الصَّعَل: مرض خَلْقي يولد صاحبه ذا دماغ صغير الحجم.

ـ مع أنَّ هذا هو ما قيل بشأن الجينة المُسمَّاة «فوكس پ2» (FoxP2)، التي تؤدِّي في شكلها المُحوَّل إلى حصول حالات خللٍ وظيفيٍّ في اللغة! ولكنَّ الأمر لا يكون بهذه البساطة طبعاً، ذلك أنَّ الملكة اللغوية تتطلَّب من جهةٍ وجود قدراتٍ معرفيّةٍ تتألَّف بنوعٍ خاصٍّ من منطقتَي بروكا (Broca) وويرنيك (Wernicke) الشهيرتَين، والواقعتَين عموماً في نصف كرة الدماغ اليُسرى، كما أنَّها تستوجِب من جهةٍ أخرى وجود إوَالةٍ (mécanique) تشريحيّةٍ مُكيَّفةٍ، أي وجود لسانٍ مَرنٍ للغاية وغائرٍ، ليسمح لنا بالنطق بالأحرف الصائِتة المُعقَّدة كافَّةً، فضلاً عن حنجرةٍ مركَّزةٍ آليّاً في أسفل البلعوم (ما أدَّى إلى بروز جوزة العنق الشهيرة المعروفة باسم تفاحة آدم) لكي تُمكِّننا من تبديل نغمة الأصوات. وأنوِّه بشكلٍ عابرٍ بأنَّنا ندفع غالياً ثمن هذا الأمر، إذ إنَّ موضع الحنجرة يحول دون قدرتنا على الشّرب والتنفُّس في الوقت نفسه، وإنَّ مئات الأشخاص يموتون سنويّاً حول العالم بسبب «المجرى الخاطئ». وكما ترين، من المحال أن تكون هذه المتطلَّبات المُسبقة، المعرفيّة منها والتشريحيّة، قد نشأت بين ليلةٍ وضحاها، أو أن تكون قد انبثقت عن طفرةٍ سحريّةٍ أصابت جينةً واحدةً، فلا بدّ أنَّها نشأت بالأحرى عن تبدُّلاتٍ في مجموعةٍ معقَّدةٍ من الجينات، ومن جملتها جينة «فوكس پ2»، التي يؤثِّر شكلها المحوَّل على قسم الدماغ المعنيّ باللغة بالقدر نفسه الذي يؤثِّر فيه على تشكُّل البُلعوم. ونفهم على الفور أنَّ ما كان يبدو انتهازيّاً فوق الحدّ، كظهور مناطق دماغيّةٍ للغة ونزول الحنجرة نزولاً في محلّه لتستقرَّ في أسفل البلعوم، ليس فيه ما يُثير الدهشة إلى هذا الحدّ، إذ ما من شيءٍ خارقٍ للطبيعة في هذا الأمر، تماماً كما أنَّ خرطوم الفيل لم يَنْمُ بشكلٍ عجائبيٍّ.

ـ لم يتمّ ذلك طبعاً بفعل معجزةٍ، ولكنَّنا لم نفهم بعدُ السببَ الذي دفعَ بأجدادنا إلى التكلُّم.

ـ آه! إنَّ السؤال عن «السبب» هو سؤالٌ سيِّئٌ جدّاً، ذلك لأنَّنا إنْ تصدَّينا إلى مسألة الأصول التي تتحدر منها ميزةٌ ما من خلال النظر إليها من زاوية «السبب» الذي أفضى إليها، فسينتهي بنا المطاف في أغلب الأحيان إلى استنتاج تحصيلِ حاصلٍ دارويني جديدٍ ونموذجيٍّ، يعتبرُ أنَّ كلّ ميزةٍ هي ثمرة تأقلُم لولاه لَما كان الاصطفاء الطبيعيّ أبقى عليها. ونطلق على ذلكً اسم التدليل المنطقيّ «البانغلوسيّ»، تيمُّناً بشخصيّة الطبيب الصالح بانغلوس (Pangloss)، التي اخترعها الكاتب المسرحيّ فولتير (Voltaire) في كتابه المُعَنْوَن **كانديد** (*Candide*). فمن وجهة نظره، إنْ كانت أرنبة الأنف ناتئةً مثلاً، فذلك لكي نتمكّن من وضع النظارات، والدليل أنَّنا نضعها بالفعل. وإنْ سحبنا هذا الأمر على الفِيَلة الأوائِل، التي كانت مزوَّدةً بأنفٍ أطول من الذي كانت تملكه سائِر الفِيَلة، فيكون جديراً بالتصديق أيضاً أن نتصوَّر أنَّها قد حدَّثت نفسها قائِلةً: «عجباً! إنَّ هذا الشيء عمليٌّ. وهو سيُمكّننا بعد بضعة أجيالٍ من رفع جذوع الأشجار ورشّ الماء على أنفسنا للاستحمام!: «Tiens! C'est pratique ce truc: dans quelques générations, cela nous permettra de soulever les troncs d'arbres et de prendre des douches!».

تكييفاتٌ تطوُّريّةٌ مغايرةٌ

ـ ولكن لا أحد يقول ذلك! إنَّ أسلوبك كاريكاتوريٌّ ساخرٌ.

ـ ليس إلى هذا الحدّ. إليكِ كيف تُفسّر بعض الكتيِّبات المعروفة ظهور المشي على قدمَين اثنتين: «لقد بارَحَ أجدادنا الغابة وقصدوا السُّهُب(*)، فانتصبوا واقفين حينئذٍ ليتمكّنوا من الرؤية أعلى من مستوى الأعشاب، ولترصُّد القوانِص!».

(*) السهول الكثيرة العشب.

ـ أتَّفِق معكَ حول هذه النقطة. فهذا تدليلٌ منطقيٌّ لاماركيٌّ (lamarkien) صِرْف.

ـ أجل. غير أنَّنا نعلم منذ داروين (Darwin)، أنَّ البيئة لا تخلق شيئاً على الإطلاق، فالوظيفة لا تخلق عضواً، وبناءً عليه لم يظهَر المشي على قدمَين اثنتين بسبب أنَّ أجدادنا كانوا بحاجةٍ إلى رؤية الأفق، كما أنَّ العين لم تظهر لأنَّه كان يتوجَّب على المرء أن يرى، ولا ظهَرَ الجناح لأنَّه كان يتوجَّب الطيران... ولم تظهر اللغة ـ قطعاً ـ بسبب أنَّه كان ينبغي التكلُّم، فالبيئة تصطفي الأفراد نسبةً إلى ما خصَّتهم به الطبيعة من نِعَم، أو أنَّها على العكس تلغيهم، ويكون الأمر بهذه البساطة، إذ عندما يُجابه الأفراد تبدُّلات البيئة، فإمّا إنَّهم يملكون ـ أو لا يملكون ـ المِيزات المؤاتية للتصدِّي لها. ويقتصر دور البيئة على الاصطفاء من بين المِيزات الموجودة أصلاً.

ـ نعم، ولكن لا بدّ أحياناً من بروز مِيزات جديدةٍ، وإلاّ لكنَّا لا نزال في طور الأميبات التي تطفو في المحيط!

ـ بالطبع. تنبثق مصادر التجديد عمّا نطلق عليه اسم «عوامل التطوُّر الداخليّة»، أي علم الوِراثة بالمعنى الواسع المدلول، وإمكانيّاته وألاعيب الاحتمالات فيه، وهي هائلةٌ، على الرَّغم من أنَّنا، ومعنا القِرَدة العليا، جنسان معقَّدان تحتوي خريطة الجينوم لدينا على عددٍ قليلٍ من الجينات يبلغ 28 ألف جينةٍ فقط! ولكن ينبثق مصدر التجديد الأساسيّ، أي بروز مِيزات جديدةٍ، عن طواعيَة السحنة المُذهِلة وعن تنظيم الجينات وترتيبها. وبمقتضى مماثلةٍ ملائِمةٍ، يصحُّ الأمر نفسه على اللغة التي تحتوي على كلماتٍ قليلةٍ وأقوالٍ محتملةٍ عديدةٍ...

ولنلخِّصَ ما أوردناه نقول: عندما تتحوَّل الجينات، جرَّاء

الطفرة، تظهرُ ميزاتٌ جديدةٌ، فإنْ كانت هذه الأخيرة ضارّةً تتمُّ إزالتها، وإلاّ فهي تحظى بفرصٍ جيِّدةٍ لأن يُصار إلى الإبقاء عليها. وسأردِّد عبارةً سبق لي أن ابتكرتها، ألا وهي: في شؤون التطوُّر، توجد العوامل الداخليّة ـ أي الجينات ـ في التفكير، والعوامل الخارجيّة ـ أي البيئة ـ في التدبير.

ـ ولكن كيف تمّ الانتقال من الخِطم العاديّ إلى الخرطوم، ومن مجموعة الأصوات إلى اللغة المتلفَّظة؟

ـ إنَّ التطوُّر هو مَلِك التكييف المغاير («bricolage»). وبه يُمكن إعادة استعمال بعض الميزات المُحايدة، أو تلك التي تضطلع بمهمّةٍ معيَّنةٍ، بغية جعلها تُنجِز أمراً مختلفاً تماماً. في اللُّغة الخاصّة بالأحيائيِّين التطوُّريِّين، يُطلق على هذا الأمر اسم «التهايُؤ» («exaptation»)، وهو عبارةٌ عن ميزةٍ ذات طابعٍ فيزيولوجيٍّ أو تشريحيٍّ أو سلوكيٍّ أو معرفيٍّ، لم يتمّ اصطفاؤها ولكنَّها قد تعود بمنفعةٍ في سياقٍ بيئيٍّ أو طبيعيٍّ أو اجتماعيٍّ جديدٍ.

لِمَ أو كيف؟

ـ هلاّ ضربتَ لنا، هنا، مثلاً على ذلك.

ـ هبْ مثلاً الأجنحة لدى العصافير، والتي وُجِدت في البداية بهدف التقاط الحشرات أو التبختُر، أو أيضاً بهدف إنزال الحرارة لدى الديناصورات أسلاف الطيور. وإليكِ مثلٌ آخر يطالنا أكثر، ألا وهو المشي على قدَمين اثنَتين. بمقتضى تدليلٍ منطقيٍّ دارويني جديدٍ، يمكننا أن نعتبر أنَّ بعض أفراد فصائل الإنسيّات الأولى كانوا يَنْصِبون قامتهم أفضل بقليلٍ من الآخرين، وبما أنَّهم تميَّزوا في بيئةٍ أكثر انفتاحاً، فقد تكاثروا في ما بينهم، ممّا عزَّزَ هذه الميزة على مرّ الأجيال. وبحسب نظريات التطوُّر المعاصرة، يتمّ الاهتمام بضرورات

دليل حركات القِرَدة العليا المُحرِّكة وطواعيَتها. وقد تبيَّن أنَّ القِرَدة العليا كلّها، التي تتعلَّق بأغصان الأشجار، كانت قادرةً أيضاً على أن تنتصبَ واقفةً وأن تمشي حين كانت تتنقَّل على الأرض، ما يعني أنَّ دليل الحركات المُحرِّكة المُصطفاة لتمكين القِرَدة من التدلّي من أغصان الأشجار والتسلُّق العموديّ على طول جذع الشجرة تُجيزُ نمطاً آخر من التحرُّك العَرَضيّ غير المُصطفى، ألا وهو: المشي على قدمَين اثنَتين. وعندما أَلِفَتْ هذه الأنواع نفسها على تخوم السهوب والغابات، تمّ تفضيل قابليّة المشي على قدَمَين اثنَتين، ومذ ذاك تمّ اصطفاؤها ومن ثمّ تعزيزها.

ـ هل تندرج اللغة أيضاً في خانة «التهايؤ»؟

ـ أظنُّ ذلك، فبادئ ذي بدءٍ لا يتطابق أيّ شرطٍ من الشروط التشريحيّة والفيزيولوجيّة الضروريّة لجعل اللغة أمراً ممكناً، مع أيّ قلبٍ حقيقيٍّ للأوضاع، فمثلاً: لم يستأثِر إصدار الأصوات بحنجرتنا، التي تُستَخدَم أوّلاً لتنظيم الدفق التنفسيّ، وصحيحٌ كذلك أنَّه لا غنى عن اللِّسان للنُّطق، لكنَّه ضروريٌّ أيضاً لمضغ الطعام وللتذوُّق، ولا تُشَغَّل في دماغنا مناطقُ اللغة الشهيرة وحدها حين نتحدَّث، فهي تشترِكُ أيضاً وبنوعٍ خاصٍّ في سيرورة عمليّاتٍ معرفيّةٍ أخرى، من مثل التعرُّف على حركات الوجه. وقد لجأت اللغة ـ بهدف التطوُّر ـ إلى استعمال عناصرَ موجودةٍ أصلاً. إنَّه تكييفٌ مغايرٌ أفضى إلى ظاهرةِ الظهور المُفاجئ (phénomène d’émergence)، أي بتعبيرٍ آخر إلى نشوء خاصيّةٍ أو وظيفةٍ لا يُمكن لها أن ترتبط بمجموع خاصيّات الأجزاء التي تتألَّف منها. وتتجلّى الصعوبة حين نتكلَّم عن حالات التهايؤ في أنَّ ذلك يُخالف السؤال عن «السبب» («Pourquoi?»)، في حين أنَّ السؤال الصحيح ينبغي أن يتناول «الكيفيّة» («Comment?»). وأسمعُ خلال المؤتمرات، حول «السبب الذي دفعَ

بالإنسان إلى التكلُّم»، ردوداً من مثل: ليتعاطى الشأنَ السياسيّ، ولينقلَ ثقافته، وليُغويَ النساء، وليرويَ الحكايات، وللمحاجّة، ولإقناع بني عشيرته بضرورة القيام بهذا الأمر أو ذاك... إلخ. صحيحٌ أنَّ مَلَكَة اللغة التي نتمتَّع بها تخوِّلنا فعل كلّ هذه الأمور، لكنَّ السؤال الوحيد الذي يُمكننا محاولة الإجابة عنه إجابةً علميّةً هو الآتي: «كيف برزت قدرات اللغة المعرفيّة وجهازنا النطقيّ؟». وسأجيبكِ على الفور: لا نملكُ بعدُ الجوابَ الشّافي عن هذا السؤال! ولكن إنْ نحن اتَّبعنا النهج الصحيح، يُمكننا أن نصوغ بعض الفرضيّات وأن ننشئ سيناريو قابلاً للمراجعة والتعديل بموجب الاكتشافات الجديدة.

ـ ما هو هذا النهج؟

ـ ينبغي بادئ ذي بدءٍ أن نحوِّل نظرنا عن سُرَّتنا، وأن نردَّ الإنسان إلى عائلته، أي عائلة القِرَدة العليا. وهذا ما يُسمَّى بـ «التموضع النِّساليّ»، ومن ثمّ نمحِّص في الخاصيّات المُشتركة كافَّةً التي تجمع بين لغتنا وطرق تواصل القِرَدة العليا. فنستنتج حينئذٍ أنَّ آخر جَدٍّ مشترَكٍ (آجَم) (Dernier Ancêtre Commun DAC) بيننا كان يتمتَّع بهذه الميزات، وأنَّ ذلك كان يُشكِّل استعداداً مُسبقاً للغة. إنَّه أمرٌ محتملٌ على أيّ حالٍ، بل مُرجَّحٌ. ومن ثمّ نُعِدُّ سيناريو على ضوءِ ما نعرفه عن الأحافير العائِدة إلى هذا الجَدِّ الآخِر المشترك بيننا و**الإنسان العاقل**، ونبحث عن المؤشّرات التي تسمح لنا بتصوُّر كيفيّة بروز اللغة البشرية والرسوخ في سلالتنا، بالنظر إلى ما يُمكننا الكشف عنه من خلال تشريح جمجمتهما والتأمُّل في طريقة عيشهما ونشاطاتهما التي أعادت الأرخيولوجيا الـ «قَبْل - تاريخيّة» تشكيلَها. وهنا أصبحتُ في مجال اختصاصي، والغريب أنَّه لم يتمّ التعمُّق فيه كثيراً من هذا المنظور، وبالتالي، يقتضي في المرحلة الأولى أن نعيد

تشكيل آخِر جدٍّ مُشتركٍ بين الإنسان والقِرَدة العليا. في حين يتعيَّن في المرحلة الثانية أن نتعقَّب تطوُّر الميزات المُرتبطة باللغة على مرّ سلالتنا.

الفصل الثاني

كلام القِرَدة

في دماغ إنسان الغاب

ـ إنَّ الأثر الأوَّل الذي ينبغي أن نقتفيَه هو إذاً أثر أبناء عمِّنا الأقربين، أي القِرَدة العليا. فلو فحصنا دماغها، علامَ نعثر؟

ـ لم نجد فيه خلال فترةٍ طويلةٍ شيئاً عظيماً. ويُعزى ذلك إلى عدّة أسبابٍ: **أوّلاً**، لأنَّنا لم نكن نملك في الماضي المعدّات والتجهيزات التي نملكها اليوم، ولكن **أيضاً** لأنَّنا لا نعثر إلاّ على ما نكون مهيَّئين لرؤيته. والحال أنّنا لم نكن نتوقَّع اكتشاف مناطق اللغة في أدمغةٍ هي بعد كلّ حسابٍ أصغر بكثيرٍ من أدمغتنا، إذ إنَّ حجم دماغ قِردَة الشمبانزي والبونوبو يتراوح بين 350 و400 سم^3، في حين يبلغ حجم دماغ الغوريلاّ 500 سم^3، بينما يصل حجم دماغ إنسان الغاب إلى 400 سم^3 في مقابل 1400 سم^3 لحجم دماغ الإنسان الحديث. ولكن لا يُعدّ حجم الدماغ المعيار الوحيد، وإلاّ لكانت النسوة تتكلّمنَ أقلّ من الرجال، والرجال أقلّ بكثيرٍ من الفِيَلة. فالمسألة هي أيضاً مسألة تنظيمٍ. ولقد لاحظنا بادئ الأمر أنَّ دماغ قِرد

الشمبانزي كان لامتناسقاً، أسوةً بدماغنا، فعلى سبيل المثال: إنَّ الشقّ الجانبيّ المعروف باسم شقّ سيلفيوس (scissure de Sylvius)، وهو الأخدود العميق الذي يُعيِّن حدود فلقة العظم الجداري في الجُمجمة، هو أطول لجهة اليسار منه لجهة اليمين. ومن ثمّ، اكتشَفَ باحثون أميركيّون في نيويورك عام 1997 في قشرة دماغ قِرَدة الشمبانزي لجهة اليسار، وجود نموٍّ في المنطقة القِشريّة الصُدغيّة المعروفة باسم (planum)، وهي منطقةٌ متخصّصة في إنتاج الكلام لدى الإنسان.

ـ ما حاجتها إلى هذه المناطق المُسمَّاة مناطق اللغة بما أنَّها لا تتكلَّم؟

ـ هذا سؤالٌ وجيهٌ وخاطئٌ في آنٍ، إذ إنَّ هذه المناطق تصلحُ، إلى جانب القدرات المعرفيّة التي تحويها، للقيام بأفعالٍ مختلفةٍ، على غرار الحركيّة. ومن المهمّ إذّاك أن نعرف كيف يتمّ إشراكها بالتساوي في وظائف التواصل الرمزي. ولكنَّ هذه الدراسات هي في بداياتها، ولا زال أمامها شوط كبير لتقطعه، كما أنّنا نمنِّي النفس كثيراً بتقنيات التصوير الطبقيّ الطبيّ الجديدة، التي من شأنها أن تُحسِّن عمليّة سبر طريقة عمل دماغ القِرَدة العليا. ولدينا الآن بعض الآثار لنقتفيها، على غرار «الخلايا العصبيّة المرايا» «neurones miroirs»)، التي اكتشفها جياكومو ريزولاتي (Giacomo Rizzolatti) في الثمانينيّات، والتي يكون عددها كثيراً لدى القِرَدة بوجهٍ خاصٍّ، ووافراً أكثر بعدُ لدى الإنسان. ونُطلق عليها اسم «مرايا» لأنَّها تتفعَّل بالطريقة نفسها حين نُنجز مهمّةً ما، وحين نُشاهِد شخصاً آخر يُنجزها. إنَّها بالطبع تضطلع بدورٍ على جانبٍ من الأهميّة في الآليّات العصبيّة، التي تخوِّلنا التقليد والتعلُّم، أو التي يتمّ إشراكها في التطابق مع الغير وفي العلاقات الاجتماعيّة وفي عمليّة فهم ما يفعله

الآخر، وحتّى فهم ما يجول في خاطره. والحال أنَّ حالات التهايؤ تنشأ في قلب حالات الإطناب هذه. وعليه، يتعيَّن علينا أن نبحث في هذا الموضع عن الأصول المعرفيّة التي تتحدَّر منها اللغة البشريّة التي ترمزُ ـ في غالب الظنّ ـ إلى تطوُّرٍ في نظام التعرُّف على الفعل. ومن ثمّ إنَّ وجود هذه المناطق في دماغ قِرَدة الشمبانزي يُعلِّل بلا ريب أداءها في المُختبر، وهو أداءٌ يُفرِزُ نتائجَ مذهلةً حقّاً، فحين نُمرِّنها تبدو القِرَدة ـ أبناء عمِّنا ـ متشدِّقةً.

«أنا شمبانزي، أنتَ غوريلاّ»

ـ كم مضى من الوقت على محاولتنا تعليم القِرَدة الكلام؟

ـ ترجِع هذه الفِكرة إلى القرن الثامن عشر على الأقل، ولقد عبَّر عنها كلّ من اللّورد مونبودو (lord Monboddo) الذائِع الصيت في بريطانيا، والفرنسيّ جوليان دو لا ميتري (Julien de La Mettrie)، وهو خصمُ ديكارت (Descartes)، والذي كان على أتمّ الثّقة من إمكانيّة تعليم القِرد الكلام، شرط أن نبدأ تدريبه منذ نعومة أظافره. ولكنَّها سقطت بعد ذلك في غياهب النسيان، إثر اكتشاف حقبة ما قبل التاريخ وأحافير البشر الأوائِل، فلمّا بات مسلَّماً به أنَّ الإنسان يتحدَّر من القِرد، تمّ التركيز على البحث عن «الحلقة المفقودة» الضائِعة، وتمّ إهمال أبناء عمِّنا المكسوّين بالشعر والنابضين بالحياة. وترجِع أولى محاولات تعليم قِرَدة الشمبانزي لغةً، هي اللُّغة الإنجليزية بالنظر إلى هذه الحالة، إلى القرن العشرين فقط. وقد باءت كلُّ المحاولات بالفشل، بما في ذلك واحدةٌ من أكثر المحاولات شهرةً، وهي عبارةٌ عن تجربةٍ قام بها في أواخِر الأربعينيّات مطلع الخمسينيّات ثنائيٌّ أميركيّ من آل هايز (Hayes)، وهما باحثان قاما بتربية قِرد شمبانزي ـ أسمياه فيكي (Vicky) ـ كما

لو كان ولداً، غير أنَّ جهودهما ضاعت سدى وذهبتْ أدراج الرياح، فبعد أشهرٍ طويلةٍ من التدريب، كان فيكي يرطُنُ بأربع كلماتٍ غير واضحةٍ، ألا وهي: **بابا** (papa) و**ماما** (mama) و**كأس** (cup) و**فوق** (up)، وهي كلماتٌ تصلح في حفلات أعياد الميلاد ولكنَّها محدودةٌ جدّاً!

ـ ولكنْ، وبالرَّغم من هذا الفشل، لم تتوقَّف المحاولات عند هذا الحدّ.

ـ كلاّ، فلقد كان واضحاً كوضوح الشمس أنَّ القِرَدة العليا لم تكن قادرةً على التكلُّم كالبشر. ولكن، وبعد أن دارت سِجالاتٌ كثيرةٌ حول مسألة افتقار قِرَدة الشمبانزي إلى الذكاء، تمّ التنبُّه إلى أنَّ حنجرتها كانت على أيّ حالٍ عاليةً جدّاً، ممّا يحول دون قدرتها على تغيير طبقات صوتها للنطق بالكلام! وحينها قرَّر باحثان آخران، هما آلان وبياتريس غاردنر (Allen et Beatrix Gardner)، تربية قِرْدةٍ أنثى صغيرةٍ من فصيلة الشمبانزي اسمها واشو (Washoe)، كما لو كانت طفلاً أصمّ، فعلَّماها لغة الإشارات الأميركيّة. وحصَدَت واشو في السبعينيّات نجاحاً باهراً لدى وسائل الإعلام. إلاّ أنَّها ليست القِرْدة الوحيدة التي برهَنَت عن مواهبَ لغوية، فلا ينبغي أن ننسى كوكو (Koko)، وهي قِرْدةٌ أنثى من فصيلة الغوريلاّ درَّبتها فرانسين باترسون (Francine Patterson) على لغة الإشارات، وكذلك سارة (Sarah)، وهي قِرْدةٌ صغيرةٌ من فصيلة الشمبانزي علَّمها دايفد وآن بريماك (David et Ann Premack) لغةً ترتكز على مجموعةٍ من القطع البلاستيكيّة التي يرمزُ كلٌّ منها إلى كلمةٍ معيَّنةٍ (وتحرِّك سارة هذه القطع البلاستيكيّة الصغيرة ذات الأشكال والألوان المتنوِّعة لتعبِّر من خلالها)، ناهيك عن شانتيك (Chantek) وهو إنسانُ غابٍ تدرَّب على يد لين مايلز (Lyn Miles).

ـ إنَّها زمرةٌ فعليّةٌ من القِرَدة المُتكلِّمة! ولكن عمَّ تتحدَّث هذه القِردة؟

ـ عن أمورٍ عديدةٍ في الواقع، فقد أفضى الأمر بواشو، حسب ما أعلنه آل غاردنر، إلى استيعاب ما يُناهز الـ 150 كلمةً/ رمزاً تقريباً. كما أنَّها تستطيع أن ترتِّبها لكي تُركِّب بواسطتها جملاً صغيرةً من النمط التالي: «أنا خرجَ بسرعةٍ» («moi sortir vite»)، وهذا ما نُطلق عليه اسم «لغة طرزان». زِد على ذلك أنَّها امتلكت قدرةً على التصنيف، إذ إنَّها تضع الأدوات في فئةِ الأدوات والأطعمة في فئةِ الأطعمة، كما أنَّها تضع القِردة في جهةٍ والبشر في جهةٍ أخرى، ولكنَّها تُصنِّف نفسها في خانة البشر! أمّا سارة، فهي تتحكَّمُ بكمٍّ كبيرٍ من العناصر البلاستيكيّة الصغيرة، فهي تنسبُ إلى المثلَّث الأزرق معنى «تفاحة» («pomme»)، ممّا يدلُّ على أنَّها تعرفُ كيفيّة استعمال الرموز الاعتباطيّة. والأفضل من ذلك هو أنَّ واشو التي كان روجيه فوتز (Roger Fouts)، وهو أحد طلّاب آل غاردنر، يُخرجها للتنزُّه، قد قامت بتبنِّي قِردٍ ذكرٍ صغيرٍ اسمه لولي (Loulis)، وعلَّمته «التأشير»، تماماً كما علَّمها البشر أن تفعل. والواقع أنه رغم أنَّ هذه القِرَدة العليا كلّها أبهجت قلوب مربِّيها، إلاّ أنَّ الغبطة العامّة ذَوَتْ عام 1979 وخبَا وهجها.

ـ ما الذي طرأ؟

ـ نشرَ شخصٌ أميركيٌّ آخر يُدعى هيبرت تيراس (Hebert Terrace) مقالةً مدمِّرةً، فقد عمل هذا الباحث مع شمبانزي أسماه نيم شيمسكي (Nim Chimpsky)، تيمُّناً (بشكل هزلي!) بالألسنيّ الكبير نعوم تشومسكي. والحال أنَّه، وبحسب تيراس، لم يكن نيم موهوباً كما كان يبدو عليه، فهو لا يُنتِجُ جملاً «فِطريةً أصليّةً»، ويُكرِّر بكثرةٍ، ويُقلِّد مدرِّبيه بشكلٍ أساسيٍّ. وتتَّصف أقواله الأكثر طولاً

بطابعها التكراريّ، فهو يقول مثلاً: «أعطي برتقالةً أنا أعطي أَكَلَ برتقالةً أنا» .(«donner orange moi donner manger orange moi»). والأسوأ هو أنَّ تيراس، وبعد أن أشبعَ الدراسات التي قام بها زملاؤه دراسةً وتمحيصاً، فضحَ اعوِجاجها العلميّ وضعفها المنهجيّ، واتَّهمهم بالمغالاة في تأويل مآثِر محميِّيهم القِرَدة، وبرؤية رموزٍ حيثُ لا أثر لوجودها، وبالكشف عن قواعد نحو وتركيبٍ في مجرّد حالات إطنابٍ لغويٍّ... إلخ. وقد ردعَت المقالة التي كتبها تيراس هذا النوع من الأبحاث بشكلٍ جديٍّ، فغابت عمليّاً القِرَدة المتكلّمة طوال 15 سنةً عن السمع، إلى أنْ برزت أعمال سو سافاج رومبوف (Sue Savage-Rumbaugh) التي تناولت القِرد كانزي (Kanzi) الشهير.

دروس قِرد البونوبو

ـ إنَّ لكانزي قصّةً مذهلةً على ما أعتقد...

ـ **أوّلاً**، ينتمي كانزي إلى فصيلة قِرَدة البونوبو، وهي فصيلةٌ فريدةٌ من القِرَدة العليا القريبة من قِرَدة الشمبانزي. إنَّ قِرَدة البونوبو فاتنةٌ، لأنَّها ماكِرةٌ ومسالمةٌ ـ نادراً ما تتقاتل ـ، وتترك زمام السلطة للإناث، وتحلُّ نِزاعاتها كلّها بالجُماع. ولقد أبصر كانزي النور في مركز ييركز للرئيسات (Yerkes Primate Center)، الواقع في أطلنطا (Atlanta)، وبعد مرور ساعاتٍ معدوداتٍ على ولادته قامت القِرْدة ماتاتا (Matata) ـ وهي أنثى مهيمنةٌ ـ باختطافه، ولم ترجعه أبداً إلى والدته البيولوجيّة لوريل (Lorel). بعد مضيّ ستّة أشهرٍ، أُدخِلت ماتاتا في برنامجٍ لتعليم اللغة أعدَّته جامعة جورجيا (Université de Géorgie)، وقد بذل مدرِّبوها قصارى جهودهم لتعليمها استخدام مجموعة القطع البلاستيكيّة التي ترمز كلٌّ منها إلى كلمةٍ معيّنةٍ، إلاّ أنَّ ماتاتا لم تكن تلميذةً موهوبةً جدّاً. وقد شارك كانزي في الدروس

التي تلقّتها أمّه كلّها، ولكنّه لم يكن يُبدي أيّ اهتمام بالموضوع، إذ إنَّ الرموز لم تكن تستقطب انتباهه، فقد كان يؤْثِر عليها اللّعب والتعلّق بثدي ماتاتا للرضاعة. وعندما بلغَ كانزي من العمر عامَين ونصف، تمّ فصله عن والدته، فظلَّ على مدى ثلاثة أيّام هائِماً على وجهه في المختبر وكأنّه روحٌ معذَّبةٌ في النار، ولكنّهُ ما لبث أن برهَن لمدرِّبيه على حين غفلةٍ أنّه يدرك معنى القطع البلاستيكيّة العشرة التي طابقتها والدته بشقّ النفَس، وأنَّه يُجيد استعمالها. الأفضل القول إنَّ كانزي يفهم اللُّغة الإنجليزية، أو بالأحرى اللُّغة الأميركيّة المحكيّة. وأظنّ أنَّ كانزي بات اليوم يستعمل 250 قطعةً من مجموعة القطع البلاستيكيّة، وأنّه يفهم على الأقلّ 500 كلمةٍ.

ـ كيف تمّ التأكُّد من أنّه يفهم بالفعل ما يُقال له، وأنَّه لا يُفسِّر نبرة صوت المتكلِّم وحركاته فقط؟

ـ لأنَّه أُخضِع للاختبار، فكانزي يفهم حين نكلِّمه عبر الهاتف! فعلى سبيل المثال، تطلب إليه مدرِّبته سو أن يُعطيها صورة شقيقته بانبانيشا (Panbanisha)، فيقوم بذلك! وكانت إجاباته صحيحةً بنسبة 90 بالمئة، كما أنّنا نرى المدرّبة سو في فيلم وثائقيٍّ تضعُ قناعَ لِحام لتُخفي ملامح وجهها، ثمّ تطلبُ من كانزي أن يفكّ رباط حذائه وأنْ يُخرِجَ المكنسة الكهربائيّة، فيمتثل للأمر! ولكن عندما تطلب منه أن يضع المفتاح في الثلاّجة، يتردَّد قبل القيام بذلك. فهل كان تردُّده لأنَّه لم يفهم المطلوب، أم لأنَّه وجد الأمر عبثيّاً؟ إنَّ ما تعلّمناه من كانزي ومن آخرين من بعده، هو أنَّ القِرَدة العليا قادرةٌ **أوّليّاً** على تعلُّم بضع مئاتٍ من الكلمات، لا بل هي قادرةٌ على ابتكارها، كأنْ تقول مثلاً «**عصفور ـ ماء**» («oiseau-eau») للإشارة إلى الإوزّ (Cygne)، فهي تركّبها بشكلٍ بسيطٍ للغاية، من خلال جمع ثلاث أو أربع كلماتٍ كحدٍّ أقصى. ولكنّنا لسنا واثقين في المقابل إنْ كانت

تستخدم قواعد لغةٍ أم أنَّ المسألة تتعلَّق بمجرَّد عملية ترتيب كلماتٍ. ويبدو كانزي مع ذلك وكأنَّه يضع بمنهجيّةٍ الفعلَ قبل الغرض، فيقول «عَضَّ طماطم» («mordre tomate») و«خبَّأ فستق عبيد» («cacher cacahuète»)، ولا يقول العكس أبداً.

ـ هل يُعَدُّ ذلك بدايةً لاستخدام قواعد اللُّغة التوليديّة بحسب تشومسكي؟

ـ يصعبُ تأكيد ذلك، لأنَّ الأمر عكس ذلك بداهةً. ويزعم بعض الباحثين أنَّ قِرَدة الشمبانزي قادرةٌ على بلوغ مستوى كلام طفلٍ في عامه الثاني، وهو العمر الذي يفهم فيه صغير الإنسان كَلَّ ما نقوله له، كما أنَّه يمتلك في هذا السنّ مجموعةً معيّنةً من مفردات اللُّغة التي تقع تماماً قُبَيل التفجُّر اللُّغويّ الذي سيسمح له بتركيبِ جملٍ حقيقيّةٍ وطويلةٍ. ولكن يُبدي باحثون آخرون تحفُّظاً أكبر بكثيرٍ، ويرون أنَّه لا يُمكن مماثلة النتائج التي تُحقِّقها القِرَدة على شاكلة كانزي، مهما كانت جديرةً بالملاحظة، بالكفايات اللُّغوية التي يملكها الطفل البشريّ، لأنَّ هذه الرئيسات تُعبِّر عفويّاً ـ بنسبة 90 بالمئة ـ بصيغة الأمر، فباستطاعتها أن تُعبِّر عن رغباتٍ أو طلباتٍ من النمط التالي: «كانزي أكلَ موزة» («Kanzi manger banane»)، أو عن أوامر (مثلاً: «أنتَ لعِبَ مع كانزي» («toi jouer avec Kanzi»))، . . . بيد أنّها عاجزةٌ تماماً عن سرد القصص (كأنْ تقول مثلاً: «أمسِ ذهبتُ في نزهةٍ برفقة سو ورأيتُ الفراشات» «hier je suis allé me promener avec Sue et j'ai vu des papillons»)، أو حتّى عن جذب الانتباه أو التزويد بمعلوماتٍ عن العالم الذي يُحيط بها (كأنْ تقول مثلاً: «انظر إلى الغيمة الزهريّة اللَّون الجميلة» («regarde le joli nuage rose»)، وهي أمورٌ يكون بمقدور الطفل، حتّى وإنْ كان في سنّ الحداثة، أن يقوم بها.

العالم من منظار شيمب (Chimp)

ـ ما هي وجهة نظرك الشخصيّة حول هذه المسألة؟

ـ هنا أيضاً سأؤدِّي دور محامي الشيطان. لو كانت القِرَدة العليا تُخبِر عن حالةٍ معيَّنةٍ في العالم، فهل يكون باستطاعتنا أن نفهمها؟ أشكّ في ذلك. فعندما نطلب إليها أن تأخذ البرتقالة الموجودة على الطاولة وتستجيبُ هي للأمر، فنحن نرى طبعاً وبوضوح أنَّها فهمت ما قلناه. وكذلك حين تُطالب القِرَدة مُدرِّبيها بلعب اللُّعبةَ التي تقضي بأن يطارِد طفلٌ طفلاً آخر محاوِلاً مَسَّه، وتُعرَف باسم «chat perché»، فإنَّ ذلك يُترجَمُ بواسطة فعلٍ مباشرٍ. هذه أدلّةٌ منظورةٌ، ولكن إذا ما أخبرَنا كانزي عن طفولته وعن انفعالات الحبّ التي تختلج صدره، فهل يكون باستطاعتنا أن نفكّ ترميز ما يقوله؟ إذ حين يتجاذب واشو (Washoe) ولوليس (Loulis) أطراف الحديث بينهما، يبدو وكأنَّهما يخترعان إشارات، فهل هي مجرَّد تومئةٍ، أم إنَّها نوعٌ من رطانة تهدف إلى قول: «أرأيتِ هؤلاء المغفَّلين الساذجين؟! إنَّهم لا يفقهون شيئاً بالتأكيد» («t'as vu ces gros ploucs, ils ne pigent décidément rien»)؟ أنا لا أقول إنَّ القِرَدة العليا قادرةٌ على التوصُّل إلى استخدام تواصلٍ رمزيٍّ متطوِّرٍ، ولكنَّني لا أنفي كذلك قدرتها على فعل ذلك، فجلّ ما أقوله هو الآتي: لا نعرف شيئاً عن هذا الموضوع. ومردُّ ذلك على الأرجح إلى أنَّنا لم نطرح الأسئلة السديدة، ولأنَّنا مقيَّدون أيضاً بالمقاربة الاختبارية.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّه لم يسبق لنا مُطلقاً أن درسنا مجموعاتٍ بكاملها من القِرَدة العليا. ويُعزى ذلك إلى سببٍ بديهيٍّ، مفاده أنَّ هذا النوع من الدراسات يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلَّب صرف أموالٍ طائلةٍ، فالنتائج

الراهنة التي نتوصَّل إليها هي في نهاية المطاف محصورةٌ في نطاقٍ ضيِّقٍ، لأنَّها ترتكز على بعض الأفراد المعزولين عن المجموعة وليس على نموذج تمثيليٍّ. ويشقُّ علينا أن نستنتجَ الخلاصات على ضوء أعمالٍ طُبِّقت على قِرَدةٍ تختلفُ من حيثُ السنّ والأصل و«التنشِئة»... ناهيك عن أنَّها تنتمي إلى أجناسٍ مختلفةٍ.

ـ بالضبط، يُزعَمُ أنَّ قِرَدة الشمبانزي موهوبةٌ أكثر من غيرها...

ـ إنَّها قصّةٌ قديمةٌ. لقد دَرَسَ روبير ييركس (Robert Yerkes)، وهو رائدٌ في مجال علم دراسة الرئيسات، قِردَين من فصيلة الشمبانزي اسمهما شيمب (Chimp) وبانزي (Panzee). وقد بدا شيمب أكثر تيقُّظاً وكياسةً وموهبةً. وبعد مضيّ نصف قرنٍ، اتَّضحَ من الصور الفوتوغرافيّة أنَّ شيمب كان قِرداً من فصيلة البونوبو! واليوم، تعتقد سو سافاج رونبوف بالفعل أنَّ هذه الفصيلة من القِرَدة تملكُ قابليّةً أكثر من سواها للغة. ويُشاطرها عالم الرئيسات الشهير فرانز دو وال (Frans de Waal) الرأي. ولكن كيف السبيل إلى التأكُّد من هذا الأمر؟ فلا تُظهر الدراسات الوِراثيّة على أيِّ حالٍ أنَّ قِرَدة البونوبو هي أقرب إلينا من قِرَدة الشمبانزي. وبالطبع، إنَّنا نشهدُ لكانزي بأنَّه قردٌ موهوبٌ بامتيازٍ، وكذلك هو حال شقيقته الصغيرة بانبانيشا. ولكن يبدو لي من العسير تعميم المواهب التي يتمتَّع بها قِردٌ أو اثنان على الفصيلة برمّتها، ففي نهاية المطاف، لا تكون القِرَدة سواسيةً، شأنها شأن البشر، إذ إنَّ بعضها موهوبٌ أكثر من سواه.

ـ هل كان كانزي «موزارت اللغة» في عالم قِرَدة البونوبو؟

ـ هذا أمرٌ محتملٌ، ولكن لا يجدر بنا التقليل من قيمة قدرات القِرَدة العليا الأخرى بشكلٍ عامٍّ، على غرار قِرَدة إنسان الغاب، الأكثر هدوءاً إنَّما الأكثر رزانةً وبأشواطٍ بعيدةٍ، فهي بالطبع لا تُخبر

قصّة حياتها. ولكنْ واهمٌ مَن يعتقد أنَّها تعيش اللَّحظة بلحظتها ولا يسعها أن تأخذ تجارب الماضي في الحسبان، وأنَّها تجهل جهلاً مُطبقاً مفهوم الفعل المستقبليّ. ثمّ إنَّ هذه الدراسات المختبريّة، على علّاتها، قد برهنت رغم كلّ شيءٍ أنَّ أبناء عمِّنا القِرَدة تملك استعداداتٍ معرفيّةً حقيقيّةً للتواصل الرمزيّ، وهذه أولى بشائر اللغة. وبالطبع، إنَّ الظروف في المختبر تكون بمنتهى الخصوصيّة، إذ يخلقُ المُختبِرون اصطناعيّاً التوافقَ: ففي الطبيعة، لا تتَّفق القِرَدة على جعل المثلَّث الأزرق اللَّون يعني «تفاحة»، أو على أنَّ تلك الحركة باليد تعني «فستق عبيد». وأخيراً، لقد تلقَّت هذه القِرَدة تدريباً مُفرِطاً، ولا يجدر بالطبع مقارنتها بالأطفال، بمَن فيهم الأطفال الصمّ المدرَّبين على لغة الإشارات، لأنَّ هؤلاء، ومن دون أن يتلقّوا تدريباً خاصّاً، يتعلَّمون الكلام أياً تكن بيئتهم وأيّاً تكن ثقافتهم، وسواء أكان ذووهم يكلِّمونهم أم لا. ومع ذلك، لا يخلقُ المختبِر من العدم «وَحْدة اللغة» («module langage») في دماغ هذه القِرَدة موضوع التجارب، بل إنَّه يكشِف استعداداً مستتراً، أي إمكانيّةً في حالة كمونٍ، تملكها القِرَدة العليا إنَّما لا تستخدِمها على ما يبدو، ولكنَّها موجودةٌ. وبالعودة إلى مفهوم التهايؤ، لا بدّ لنا من التنويه بأنَّ هذه الإمكانيّة، أي هذه القدرة المُبشِّرة بالتواصل الرمزي، كانت موجودةً لدى جدِّنا المُشترك، وقد قامت سلالتنا بتطويرها.

سأُضيف ملاحظةً نادراً ما تتمّ الإشارة إليها، ومفادها: لقد تعلَّم كانزي اللغة لأنَّه كان يرغب في إنشاء روابطَ اجتماعيّةٍ مع الآخرين، أي مع البشر بالنظر إلى هذه الحالة، فنحن طرفٌ في علاقةٍ فريدةٍ من نوعها تربط عنصراً بعنصرٍ آخر ينتمي إلى أجناسٍ مختلفةٍ. ويُطلق الفيلسوف دومينيك ليستيل (Dominique Lestel) على ذلك اسم «حيواناتٍ فريدةٍ من نوعها».

سياسة القِرَدة

ـ ما الذي نعرفه عن قدرات التواصل الرمزيّ لدى القِرَدة العليا، ليس في إطار تفاعلها مع البشر إنَّما في الطبيعة؟

ـ لا زال جوابي هو هو، ومفاده: لا نعرف شيئاً عظيماً. ومردّ ذلك دائِماً إلى الأسباب نفسها، ألا وهي: يتطلَّب ذلك إجراء دراساتٍ طويلة الأمد وباهظة الثمن وأحياناً خطِرة. اسمعي ـ مثلاً ـ ما الذي حلّ بعالمة الرئيسات دايان فوسي (Diane Fossey): لقد أمضت دايان حياتها في الغابة مع الغوريلّات وقد تعرَّضت في النهاية للقتل على يد صيّادين غير مرخَّص لهم قانونيّاً بالصيد، كما أنَّنا نصطدم باستمرارٍ بالعقبة الأساسيّة التي يُثيرها علم السلوك الحيوانيّ، ألا وهي: لا نرى إلاّ ما نكون مهيَّئين لرؤيته، فعلى سبيل المثال: لم يخطر في بال أحدٍ أنَّ القِرَدة كانت قادرةً على تعاطي شؤون السياسة، إلى أن كشَفَ فرانز دو وال (Frans de Waal) دسائِس قِرَدة الشمبانزي المُقيمة في حديقة الحيوانات الواقعة في مدينة أرنهم (Arnhem) في هولندا، قائِلاً: كان الذكور يُعِدّون التحالفات الحقيقيّة لقلب الطاولة واستلام زمام السلطة في لحظةٍ معيَّنةٍ. وقد زعم بعض المتشكِّكين أنَّ القِرَدة الأسيرة كانت على الأرجح منحطَّةً ـ أو مُغذَّاةً بما فيه الكفاية ـ لكي يكون لها متَّسعٌ من الوقت لترسيخ هذا النمط من التحالفات. ولكنّ هذا السلوك لم يكن موجوداً لدى أبناء عمِّنا الأحرار الطلقاء. وميدانيّاً، شرَعَ فريقُ عمل البروفسور توشيسادا نيشيدا (Toshisada Nishida) بمراقبة قِرَدة الشمبانزي بطريقةٍ مختلفةٍ، وتمكَّن من ملاحظة مدى ألمعيّة ذكائها الاجتماعيّ وقابليّتها لتعاطي الشؤون السياسيّة وكيف أنَّها تعمد إلى إخفاء منافستها الداخليّة لتُشكِّل تكتُّلاً حين تدعو الحاجة. وإخال أنَّنا بتنا اليوم مستعدِّين لرصد التواصل الرمزيّ. . . في حال كان موجوداً.

ـ وصفَ العالِمُ بدراسة الرئيسات كريستوف بوييش (Christophe Boesch) مؤخَّراً كيفيّةَ تواصل قِرَدة الشمبانزي من خلال القرع على جذوع الأشجار لتزويد القِرَدة أمثالَها بإرشاداتٍ حول الطريق الواجب سلوكه ومدّة فترة الاستراحة.

ـ إنَّ هذا الوصف قريبٌ من الواقع وغير مستبعدٍ ألبتّة. وقد روى لي كريستوف عدّة ملاحظاتٍ أخرى مُفاجِئةٍ أكثر بكثيرٍ، فمثلاً: إنَّ القِرَدة، وخصوصاً القِرَدة العليا على شاكلة قِرَدة الشمبانزي، هي حيواناتٌ وَصوليّةٌ (communicatifs) إلى أقصى حدودٍ. وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة، فقد بيَّنت بعض الدراسات بمنتهى البراعة وجود علاقاتٍ متبادَلةٍ بين النظام الغذائيّ وعلم البيئة الاجتماعيّ وحجم التكتُّلات الاجتماعيّة وحجم الدماغ. وباختصارٍ: كلَّما كان النظام الغذائيّ حاوياً لطعام ذي نوعيّةٍ غذائيّةٍ أفضل وموزَّعةٍ بدرايةٍ في البيئة، اتَّسعت التكتُّلاتُ الاجتماعيّة وتنقَّلت الأفراد وأصبحت العلاقات الاجتماعيّة أكثر تعقيداً، وإذ ذاك يغدو التواصل لُحْمَةً حقيقيّةً تؤمِّن تماسك الجماعة.

ـ تتطابق إذاً درجة تواصلٍ رفيعة المستوى لدى القِرَدة العليا مع تكيُّفٍ ذي صلةٍ بطريقة عيشهم؟

ـ تماماً. إنَّ قِرَدة الشمبانزي ـ مثلاً ـ تغزو أرضاً مترامية الأطراف جدّاً، الأمر الذي يجعلها بحاجةٍ إلى مشاطرة المعلومات حول مكان وجود الموارد الغذائيّة، وموضع الحجارة التي ستستخدمها لكسر حبّات جوز الهند، أو للتزوّد بالمعلومات حول وجود الحيوانات القنّاصة، أو حتّى حول وضعها الانفعاليّ. هذا ومن شأن خلوّ وجوهها من الشعر أن يُسهِّل عمليّة التعبير عن إيمائيّاتٍ متعدِّدةٍ، إذ يعي كلّ فردٍ وضعه الانفعاليّ والقصديّ الخاصّ، كما يعي ويدرك وضع الآخرين. وهكذا، يعمد قِرد الشمبانزي ـ مثلاً ـ الذي يُعاني

الكَرْب إلى إخفاء وجهه بيدَيه، لكي لا يتنبَّه الآخرون إلى حالته. ويصل إدراك الذات هذا، وإدراك الحالة النفسيّة الداخلية والتطابق مع الغير، إلى حدِّ ممارسة الكذب. وهذا هو حالُ أحد قِرَدة الشمبانزي الموجودة في محميّة غومبي (Gombé) في تنزانيا (Tanzanie)، الذي كان موهوباً بوجهٍ خاصٍّ لإيجاد الموز الذي كان يُخبِّئه المراقبون. وقد كانت قِرَدة الشمبانزي الأخرى تُدرك ذلك وتُسارع للَّحاق به لأخذ الأطايب منه. وذات يوم، تنبَّه هذا القِرد إلى أنَّ المراقبين كانوا يضعون الفواكه في مخبأَين، فتوجَّه علناً إلى المخبأ الذي كان يحوي عدداً أقلّ منها، فقلَّده الآخرون وتعاركوا للحصول على هذه الفواكه، واغتنمَ هو فرصة الفوضى الحاصلة لينسلَّ سرّاً ويذهبَ بسلام إلى مخبأ الموز الآخر. أرأيتِ، لسنا بحاجة إلى اللغة للإخلال بالواجب تجاه الآخرين وللتحكُّم بهم! ولكن بفضل اللغة، أمسى ذلك فنّاً عظيم الشأن في سلالتنا.

الكلام بمثابة التَّفلية

ـ ألا ينبغي إذاً فصل مسار تطوُّر اللغة عن مسار تطوُّر التواصل؟

ـ لم تظهر اللغة باعتبارها صيغةَ تواصلٍ إضافيةً. زِد على أنَّنا إذا ما محَّصنا، من بين الوظائف التي تؤدِّيها لغتنا، تلك التي يتمّ استيفاؤها عبر وسائل التواصل التي تستخدمها القِرَدة العليا، نلاحِظ أنَّ ملَكة اللغة الخاصّة بنا هي راسخةٌ بصلابةٍ في صيغة تواصلٍ ضاربةٍ في القِدَم.

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ يُمكننا مثلاً الاستناد إلى لائحة الوظائف اللغوية التي أعدَّها الألسنيّ رومان جاكوبسون (Roman Jakobson) الذي يُميِّز بين ستّ وظائفٍ، ألا وهي: **أوَّلاً ـ الوظيفة المرجعيّة،** التي تقضي بالتزويد

بالمعلومات، بما في ذلك من خلال التحدُّث عن أغراضٍ أو أشخاصٍ لا يقع نظرنا عليهم، كأنْ نقول مثلاً: «يوجد عصير تفاحٍ في المطبخ» («il y a du jus de pomme dans la cuisine»). ولقد لاحظنا وجود هذه الوظيفة لدى القِرَدة الأفريقيّة الخضراء اللَّون («ثمَّة فهدٌ في طريقه إلينا» «il y a un léopard qui arrive»)، وقِس على ذلك رقصة النحل («ثمّة ورودٌ في الحقل جهة الجنوب» «il y a des roses dans le champ au sud»). ولكن بينما تتواصل الحيوانات بشأن الحاضر المحسوس، تسمَح لنا لغتنا بالتطرُّق إلى المجرَّد والمجهول والماضي والمستقبل... إلخ، وتملك لغتنا قوَّةً خلّاقةً ـ كالتحدُّث عن اللَّه وعن ثابتة بلانك (Planck) ـ تفتقر إليها أوَّلياً سائرُ طرق التواصل.

ـ ما هي الوظيفة الثانية؟

ـ تسمح لنا **الوظيفة الثانية** بترجمة الانفعالات التي تختلج صدورنا، كأنْ نقول مثلاً: «رائع!» («génial!»)، و«تبّاً!» («zut!»). وبالطبع، ليست اللغة، حتّى في ما يخصُّنا، الوسيلة الوحيدة لنقل تأثُّرنا، إذ إنَّنا نعبِّر عن الغبطة التي تغمر قلوبنا وعن الغضب الذي ينتابُنا وعن الحزن الذي يعتصرنا من خلال ضرب الكفّ بالكفّ والتبسُّم وذرف الدموع، ومن خلال اللُّجوء إلى الإيمائيات والتكشير عن الأسنان للضحك أو للتهديد.. وكذلك تفعل القِرَدة العليا.

أمّا **الوظيفة الثالثة**، فهي وظيفة إقامة الاتصال، التي ترمي إلى إنشاء اتِّصالٍ والمحافظة على علاقةٍ، أي ما يتطابق لدينا مع قول عباراتٍ من مثل: («صباح الخير، كيف حالك؟ الطقسُ جميلٌ اليوم...» «Bonjour, comment vas-tu? Il fait beau aujourd'hui...»). أمّا لدى القِرَدة، فتحلّ التفلية ـ وهي نشاطٌ على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة يهدفُ إلى التخلُّص من القمل والطفيليّات، ولكنْ أيضاً إلى التخفيف

من جَذوة التوتُّر وتهدِئته ـ محلَّ استحواذ علم الأرصاد الجويّة على أحاديثنا. ويؤكِّد كلّ من العالم بدارسة السلوك الحيوانيّ روبن دانبار (Robin Dunbar) والعالِم الأحيائيّ العصبيّ جان ديدييه فانسان (Jean-Didier Vincent) أنَّ الكلام هو نوعٌ من تفلِيةٍ على نطاقٍ واسع، لأنَّ القِرد لا يستطيع أن يُفلّي أكثر من بضعة قِرَدةٍ من أمثاله (إذ ينجح بصعوبةٍ بتفلية أكثر من خمسين قرداً)، في حين أنَّ الكلام يسمح لنا بأن نَعِظَ مئات الأشخاص. وبالتالي، إنَّ اللغة هي التي سمحت لنا بالانتقال من عشيرةٍ تضمّ بضع عشراتٍ من الأفراد كحدٍّ أقصى، مروراً بقبيلةٍ تتألَّف من بضع مئاتٍ من الأشخاص، وصولاً إلى جماعاتٍ لا تنفكُّ في ازديادٍ أكثر فأكثر.

ـ ماذا عن الوظائف اللغوية الأخرى؟

ـ إنَّ **الوظيفة الرابعة** هي الوظيفة الندائية التي نُعرِب من خلالها عن رغباتنا والتي تسمح بالتأثير على الآخر، كأنْ نقول له مثلاً: «تعال إلى هنا» («viens ici») أو «أعطِني الخبز» («donne-moi le pain»). وهنا أيضاً، لا يكون الكلام ضرورياً دائماً، فمثلاً: يستطيع كلبي أن يُفهمني أنَّه يريد الخروج للتنزُّه عبر جلب طوقه لي! وكذلك تكون أنثى الشمبانزي قادرةً على إرغام صغارها على المجيء من خلال جرِّهم بالشعر الذي يكسو ظهورهم... ولكنَّها تكون بلا حول ولا قوّة إذا ما تحرَّش بها قِردٌ مغازِلاً بينما يتظاهر الذكر المُسيطر بعدم التنبُّه لما يجري. فكيف السبيل لأن تقول له: «اسمع يا بعلي، لقد تحرَّش بي الآخر وحريٌّ بك الدفاع عنّي» («écoute mon gars, l'autre m'a tapé dessus, tu dois me défendre»)؟ إنَّه لمن العسير أن نعبِّر عن الحقوق والواجبات في ظلّ انعدام وجود اللغة...

أمّا **الوظيفتان الأخيرتان**، فهما حكرٌ على اللغة البشريّة، ألا وهما: **الوظيفة الشعرية، والوظيفة الاستعاريّة** (كأن نقول مثلاً:

«لكثرة ما هي عيناكِ عميقتان فقدتُ ذاكرتي فيهما» («tes yeux sont si profonds que j'y perds la mémoire»)، ووظيفة تعدّي اللغة، التي يستخدمها المرء لضبط حديثه الخاصّ (كأن يقول مثلاً: «هل ما زلت تتابع تسلسل أفكاري؟» («tu me suis?»).

وبحسب الباحثين، ثمّة وظائف أخرى، على غرار: **الإخلال بالواجب، والسرد، والبرهنة** ... إلخ، ولكنّنا سنمحّص لاحقاً هذا الأمر، فالمهمّ أن نفهم أنَّ قدرة اللغة البشريّة المُذهلة والفريدة من نوعها هي متأصِّلةٌ في أشكال تواصلٍ أخرى.

ـ يُخال للسّامع أنَّه كان من الممكن أن تبرز اللغة في سلالة القِرَدة العليا.

ـ نعم، فبطريقةٍ معيَّنةٍ يُصبح السؤال كالآتي: «لمَ لا تتكلَّم القِرَدة العليا؟». وقد أجاب أحد الفلاسفة عن هذا السؤال قائِلاً: «لأنَّها لا تريد أن نسخِّرها للعمل!». ولكن لندَع المزاح جانباً، فبالعودة إلى الأمور الأكثر جديّةً نقول: إنَّنا تطوَّرنا في بيئةٍ مختلفةٍ. ولقد شهدت سلالتنا تاريخَين متباعدَين، فمنذ آخر جَدٍّ مشتركٍ (آجم) بيننا، أي قبل 6 أو 7 ملايين سنة مضت، انفصل مسار سلالتَينا ومصيرهما، فانتقل أسلاف سلالتنا من الغابة إلى السهوب المُشجَّرة ومنها إلى السهوب الأكثر انفتاحاً، وأضحوا ذوي قدَمين تخصصيَّتَيْن وعدَّلوا نظامهم الغذائيّ، واخترعوا أدواتٍ وثقافاتٍ في تطوُّرٍ دائِمٍ، وتعقَّدت حياتهم الاجتماعيّة... وينبغي البحث من هذا الجانب للاهتداء إلى بروز خاصيّات اللغة البشريّة انطلاقاً من الجذور المُشتركة بيننا وبين القِرَدة العليا. واتَّضح أنَّ التطوُّر كان طويل الأمد حتّى الإملال في سلالتنا، في حين لم تعمد القِرَدة أبناء عمِّنا القابعة في الغابات إلى تطوير هذه القابليّة، ولكنَّها تدبَّرت أمرها جيِّداً من دونها!



الفصل الثالث

ما كان يقوله السَّلف

كائنات أرسطو

ـ لنُعِدْ عقارب الساعة حوالى الـ 7 ملايين سنةٍ إلى الوراء، لكي نرجع بالزمن إلى الجدّ الآخِر المشترك الشهير هذا بين عائلتنا ـ أي عائلة فصائل الإنسيّات ـ وعائلة القِرَدة الأفريقيّة العليا. ما الذي يمكننا قوله عن قابليّته للغة؟

ـ نعلم أنّه في عالم الغابات، وُجِدت منذ البدء ـ في دماغ صغيرٍ لا يتعدّى حجمه الـ 380 سم^3 منصَّباً على رأسِ فردٍ يبلغ طولهُ 1,10 م كحدٍّ أقصى ووزنه 40 كلغ تقريباً ـ مناطقُ دماغيّةٌ مماثلةٌ لمنطقتَي بروكا وويرنيك. بكلام آخر: قدراتٌ على التواصل الرمزيّ، وكان آخر جدّ مشتركٍ (آجم) بيننا موهوباً بالقوّة حول هذه النقطة بقدر ما هو موهوبٌ لها قِرد الشمبانزي اليوم.

ـ ولكنّ القِرَدة أبناء عمِّنا قد تطوَّرت بدورها على مدى 7 ملايين سنةٍ. أوَلا تختلف عن هذا الجدّ المُشترك بقدر ما نختلف نحن عنه؟

ـ أجل، أنتِ على صوابٍ. كثيراً ما تكيَّفت فكرة التطوُّر إفادةً للإنسان من خلال إقرانها بفكرة الترقّي والكمال. وقد وصف العديد من التطوُّريّين سلسلةً من العمليّات التطوُّريّة التي تنتقل من الأطوار

البدائيّة إلى الأطوار المتحضّرة، معتبرين أنَّ الإنسان يُمثّل الرتبة الأكثر كمالاً. ونتعرَّف في ذلك على سلَّم كائنات أرسطو ولكن بنسخته العلميّة أكثر. ونذكِّر بشكلٍ عابرٍ أنَّ هذا التمثيل هو تمثيلٌ شائع الاستعمال في الكتب والأفلام، حيثُ ينبسط مشجَّر التطوُّر (l'arbre de l'evolution)، فنجد الأميبة (L'amibe) والجرثومة في أسفله والإنسان متربِّعاً في أعلى نقطةٍ فيه! إنَّه تمثيلٌ مغلوطٌ فيه طبعاً، إذ يجدر وضع الأجناس الحيّة الحاليّة كلّها على المستوى نفسه في هذا «المشجَّر». وفي عائلتنا، تطوَّرت القِرَدة العليا أبناء عمِّنا مثلنا، إنَّما في ظلّ ظروفٍ مختلفةٍ منذ آخر جدٍّ مشتركٍ (آجم) بيننا. وعليه، ينزع التطوُّريّون إلى إيثار الفرضية الأبسط، ألا وهي «مبدأ الاقتصاد السَّببيّ» (principe de parcimonie)، لتبريز بروز ظاهرةٍ ما، والقاضي بأنَّه حين تكون خاصيّةٌ معيَّنةٌ موجودةً لدى أجناسٍ من العائلة نفسها، فلا بدّ أنَّها كانت موجودةً لدى جدِّها المشترك. ولا مانع طبعاً من أن تظهر خاصيّةٌ ما مرَّتَين (فلقد ظهر الجناح بشكلٍ مفاجئٍ على أيّ حالٍ لدى سلالاتٍ متباعدةٍ جداً، على غرار الحشرات والعصافير والخفافيش)، ولكنّ من الواضح أن احتمال حدوث هذا الأمر هو احتمال قليل. وبالتالي، ثمّة احتمالٌ من اثنَين، فإمّا أنَّ هذه البُنى الدماغيّة، أي طرق التواصل المعقَّدة، كانت موجودةً لدى آخر جدٍّ مشتركٍ بيننا، أو أنَّها كانت موجودةً لديه بالقوّة. وفي الحالة الأخيرة، لا بدّ أنَّ القِرَدة الأفريقيّة العليا قد اكتسبت لاحقاً كفاءاتٍ شبيهةً إلى حدٍّ بعيدٍ بتلك التي تتمتَّع بها سلالتنا، تماماً كما أنَّ مجموعات قِرَدة الشمبانزي الحاليّة الموجودة في شرق أفريقيا والموهوبة جدّاً لاستعمال الأدوات المصنوعة من الحجارة، وكذلك للصيد والقنص، تتصرَّف اليوم كما كان يتصرَّف الإنسان الأوَّل في أفريقيا منذ مليونَي سنةٍ.

قويّ كينيا (Kenya)

ـ مَن هو هذا الجدّ المشترك الذي لا تنفكّ تتحدَّث عنه؟

ـ يُقال إنَّه كان يقطن في أفريقيا منذ ما يُناهِز الـ 6 أو 7 ملايين سنة. وقد يكون من فصيلة أورورين (Orrorin) أو توماي (Toumaï)، بما أنَّهما أقدَم أحفورين تمّ اكتشافهما حتّى اليوم. ولكن ما من شيءٍ أكيدٍ ومؤكَّدٍ، إذ إنَّ معلوماتنا تُضاهي الأحافير من حيثُ طابعُها المجزَّأ، فالأورورين هو رجلٌ قويّ البنية وُجِد في كينيا. ولكن جلّ ما بقيَ من جمجمته هو الفكّ الأسفل وليس القِحف، كما أنَّه لم يبقَ من رفاته إلاّ بضعة عظامٍ من هيكله العظميّ المحرِّك، الذي يوحي بقدرةٍ لا بأس بها للمشي على قدمَين اثنتين. أمّا من توماي (Toumaï)، معاصرِه الذي عُثِر عليه في تشاد (Tchad)، فقد بقيَت جمجمةٌ كاملةٌ تُظهِر وجهاً ضيِّقاً إلى حدٍّ ما، ولا سيّما في قسمه الأسفل، وأنياباً صغيرةً. إنَّه حديثٌ بما فيه الكفاية. برأيي، إنَّه أقرب إلى فصائل الإنسيّات (أي سلالتنا) منه إلى فصائل القِرديّات (les paninés) (وهي سلالة قِرَدة الشمبانزي). كان الأوّل يعيش في بيئةٍ تكسوها الأشجار، أمّا الثاني فكان يعيش على ضفاف البحيرة في بيئةٍ حرجيّةٍ، تحيطها من جهةٍ مياه بحيرة تشاد ومن الجهة الأخرى السهوب المُشجَّرة. موضوعيّاً، لا نملك أيّ دليلٍ محسوسٍ على قدرتهما على التواصل الرّمزيّ، إلاّ إذا عمَّمنا القدرة على التواصل هذه على قدرة المشي على قدمَين اثنتين والأنياب الصغيرة التي يملكها التوماي . . . .

ـ هل ينبغي أن نمشي منتصبي القامة وأن نمتلك أنياباً صغيرةً حتّى نتمكّن من الكلام؟

ـ نقرأ هذا التأكيد في كلّ مكانٍ تقريباً، ولكنَّه ينبثقُ عن تدليلٍ منطقيٍّ حشويٍّ خاطئٍ يرتقي على الشكل الآتي: إنَّ الإنسان يتكلَّم

ويمشي منتصب القامة ولديه أنيابٌ صغيرةٌ، وبناءً عليه، إذا ما وقعنا على إحدى هذه الخاصيّات لدى أحفورٍ ما، فلا بدّ إذاً أنّه كان يتكلّم! إنّه التدليل المنطقيّ البانغلوسيّ (panglossien) نفسه دائِماً! هذا وتُشير الأنياب الصغيرة، شأنها شأن الازدواجيّة الجنسيّة (dimorphisme sexuel) الطفيفة، إلى أنّ توماي كان يعيش في جماعاتٍ متعدِّدة الذكور (multimâles)، بحيثُ كانت عدّة إناثٍ تعشنَ مع ذكورٍ مُشابهين «يتقبَّل» أحدهم الآخر. ويُفضي حكماً هذا النمط من الجماعات إلى حياةٍ اجتماعيّةٍ معقَّدةٍ جدّاً، تفوق بأشواطٍ بعيدةٍ درجةَ تعقيد جماعات الغوريلاّ، حيثُ يقوم ـ مثلاً ـ ذكرٌ أو اثنان في حالاتٍ نادرةٍ، بحماية مجموعة الحريم. وجُلّ ما نستطيع قوله إنّه في حال وُجِدت القدرات على التواصل الرمزيّ، فستتعزَّز هذه القدرات أكثر فأكثر كلّما ازدادت الحياة الاجتماعيّة تعقيداً. وهذا أمرٌ تفكُّريٌّ جدّاً أصلاً.

ـ إنَّ الأحافير التي وُجِدت لاحقاً هي بقايا عُثِر عليها في إثيوبيا (Ethiopie)، وتعود تبعاً للسلَّم الزمنيّ لفصيلتَي قِرَدة الـ «أرديبيثيكوس راميدوس» (Ardipithecus ramidus) والـ «أرديبيثيكوس كادابا» (Ardipithecus kadabba)، اللّتَين ترقيان إلى ما بين 5.5 و4.5 مليون سنةٍ قبل الزمن الحاضر.

ـ إنّها أقلّ قِدماً وأكثر شهرةً بقليلٍ، ولكنّنا نفتقر حقّاً إلى أيّ دليلٍ على قابليّتها للغة، فضلاً عن أنّها ـ من وجهة نظري الخاصّة ـ أقربُ إلى فصائِل القِرديّات منها إلى فصائِل الإنسيّات، ذلك لأنَّ القاعدة التي ترتكز عليها جمجمتها تُشبِه أكثر تلك التي يتمتَّع بها قِرَدة الشمبانزي. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه المنطقة في الرأس هي على جانبٍ من الأهميّة إنْ أردنا تتبُّع تطوُّر قابليّة اللغة، وذلك لأنّها تقع بين الدماغ والبُلعوم. وسنتمحَّص في هذه المسألة لاحقاً.

مواهب لوسي

- إذاً، لنرجع قليلاً بالزمن، ولندخُل إلى عالم الأوسترالوبيتيك.

- هنا، نعثر على جمع غفير! ولقد وُجِد على أيّ حالٍ عددٌ كبيرٌ من هذه الأحافير في أفريقيا الغربيّة والجنوبيّة وأفريقيا الوسطى. إنَّه نجاحٌ يُسمَّى بـ «التشعُّب التهايُئيّ» (radiation adaptative). ولقد تمّ التعرُّف على خمسة أجناسٍ مختلفةٍ من الأوسترالوبيتيك كحدٍّ أدنى، وترقى جميعها إلى ما بين 4 و3 ملايين سنة قبل الزمن الحاضر، ألا وهي: **الأوسترالوبيتيك البُحَيريّ** (Australopithecus anamensis) و**الأوسترالوبيتيك العفاريّ** (Australopithecus afarensis، والممثِّلة الذائعة الصيت لهذا الجنس هي لوسي، و**الأوسترالوبيتيك الأفريقيّ** (Australopithecus africanus) و**أوسترالوبيتيك بحر الغزال** (Australopithecus bahrelghazali) (أي الأوسترالوبيتيك الذي يعيش على ضفاف بحر الغزال)، فضلاً عن **إنسان كينيا ذي الوجه المُسطَّح** (Kenyanthropus platyops)، المزوَّد بدماغ من الطراز الأوَّل يبلغ حجمه 500 سم^3 تقريباً... وعاشت فصائل الإنسيّات هذه كلّها، إلى أيّ جنسٍ انتمت، على هامش الغابات والسهوب المُشجَّرة. فلقد استقرَّت على مقربةٍ من الأشجار والماء، إلاّ أنَّها قادرةٌ على استكشاف أماكنَ فُسيفسائيّةٍ تتفاوت درجة انفتاحها، ولكنَّها لا تبتعد كثيراً عن الأشجار، كما أنَّها تذهبُ بحثاً عن القوت الموزَّع أكثر بحسب الزمان والمكان، لأنَّه يتبدَّل مع تبدُّل الفصول. وكانت تأكل طبعاً الفواكه والجوز وتصطاد عند الحاجة، ولكنَّها كانت تعمد بوجهٍ خاصٍّ إلى نبش الأرض لتُخرِج منها أجزاء النباتات والجذور والعساقيل التحأرضيّة. وكانت فصائل الأوسترالوبيتيك تأكل هذه النباتات القاسية، إذ إنَّنا عثرنا على آثار مُميَّزةٍ على أسنانها تُثبِت أنَّها كانت تستهلك هذا النوع من النباتات،

ما يعني أنَّها استخدمت أدواتٍ لحفر الأرض، ولا سيّما العصيّ. وتُشكِّل هذه الأداة البسيطة الدليل على أنَّ فصائل الأوسترالوبيتيك قد طوَّرت قدراتٍ معرفيّةً جديدةً، بحيثُ إنَّها كانت قادرةً على اكتشاف الطعام الذي لا يُمكن الكشف عنه كشفاً مباشراً، كما أنَّها كانت تملك القدرة على التعرُّف على النباتات التي تُخبِّئ عسقولاً، فتنبِش الأرض وتخرجه وتنظِّفه أو تفركه بالحدّ الأدنى.

ـ ولكن أليس هذا ما تفعله قِرَدة الشمبانزي؟

ـ كلا، فنادراً ما تكشِف قِرَدة الشمبانزي الأجزاء المخبّأة من النباتات، حتّى أنَّني أجريتُ اختباراً في حديقة الحيوانات في مدينة أرنهيم، حيثُ خبَّأتُ ثمرات البرتقال في أماكن متنوِّعةٍ جدّاً، فنجحت قِرَدة الشمبانزي سريعاً في إيجاد تلك التي أخفيتها في مخابئ فوق الأرض، ولكنَّها لم تعثر على أيٍّ من تلك التي ورَّيتها في التراب. واللاّفت أنَّه وبالرَّغم من أنَّ الجذور والعساقيل تكون يابسةً وقاسيةً إلاّ أنَّها ذات نوعيّةٍ غذائيّةٍ جيِّدةٍ.

ـ علامَ يدلّ هذا النظام الغذائيّ برأيكَ؟

ـ يُرغمها اعتماد هذا النظام الغذائيّ القارِت (omnivore) على غزو منطقةٍ مترامية الأطراف، وعلى التفرُّق بحثاً عن القوت، ومن ثمّ التلاقي مجدَّداً في نقطةٍ محدَّدةٍ كي يُصار على الأرجح إلى تقاسم هذا الطعام بمقتضى طقوسٍ متطوِّرةٍ، الأمر الذي يستوجِب اكتساب المعارف ونقلها. ولا شك في أنَّ هذا النظام قد سمحَ بتنامي حجم الدماغ قليلاً (من 380 سم^3 إلى 500 سم^3)، ولا سيَّما تنظيمه على نحوٍ مختلفٍ بعض الشيء، فمنطقة العظم الجداريّ (التي تربط المناطق الأوليّة كلّها في قشرة دماغ فصائل الإنسيّات هذه) متطوِّرةٌ تطوُّراً لا بأس به نسبيّاً، وهي تلبّي اقتضاء معالجة المعلومات البصريّة

والسمعيّة والحسيّة الحركيّة معالجةً متعدِّدة الأشكال، فضلاً عن دمجها، وهو أمرٌ لا بدّ منه حين يعيش المرء في بيئةٍ أكثر تعقيداً وتنافراً وتقلّباً. وعلاوةً على ذلك، أودّ التذكير بأنَّ هذه المنطقة من الدماغ تحوي بعض مناطق اللغة. ونستشفُّ هنا وجود بعض أُسس الكلام ذات الصلة بدراسة عمل الخلايا والأنسجة العصبيّة. وقد اقتضت الكفاءات الاجتماعيّة وتعقيد الحياة ضمن نطاق المجموعة، وجودَ طرقِ تواصلٍ أكثر تطوُّراً لنقل كميّةٍ أكبر من المعلومات. وقد برهَنَ روبن دانبار (Robin Dunbar) من جهةٍ أخرى، أنّ دماغ القِرَدة يزداد تطوُّراً كلَّما عاشت في مجموعاتٍ اجتماعيّةٍ تضمّ عدداً أكبر من الأفراد. هذه الفصائل من الإنسيات، وإنْ كانت تستخدم الأدوات ـ على غرار ما تفعله القِرَدة اليوم ـ، كاستخدام الحجارة الكبيرة لكسر الجوز والأعواد لتنظيف الأنف، فهي لم تكن بعدُ تصنع أدواتٍ من الحجارة المقدودة، ولم نعثُر على أيّ أثرٍ يدلّ على هذا التقدُّم الكبير إلاّ بعد مرور 2,5 مليون سنةٍ.

كلام الحِرَفيّين

ـ يتمّ غالباً في الكتيّبات الربط بين استخدام الأداة واللغة. لمَ ذلك؟

ـ حسناً، نعتقد أنَّ القدرات المعرفيّة الضروريّة لصناعة أداةٍ وتلك الضروريّة للكلام منوطٌ كلٌّ منها بالأخرى. وتُشكّل «الخلايا العصبيّة المرايا» (Neurones miroirs) الشهيرة، **البرهانَ الأوّل** على ذلك، فعندما أصنعُ أداةً، وعندما أفكّر في صنع أداةٍ، وحتّى عندما أزعُمُ أنّني أصنعُ أداةً، تتفعّل مناطق الدماغ نفسها لدى الإنسان، حسب ما أظهره التصوير الطبقيّ الوظيفيّ! أمّا **البرهان الثاني**، فهو الآتي: يتطلّب قَدُّ الحجر تخطيطَ سلسلةٍ عملانيّةٍ مُعقّدةٍ، إذ ينبغي بادئ ذي بدءٍ البحثُ عن المادّة الأوّليّة الملائِمة وانتقاؤها، ومن ثمّ

إنجاز سلسلةٍ من الحركات البالغة الدقّة وفق تسلسلٍ معيَّن، واختيار الشظايا الفضلى ووضعها في مخبأ الأدوات، والعودة كلّما دعت الحاجة لأخذ صوّانٍ حادٍّ بهدف تقطيع اللُّحوم، أو للإتيان بحصاةٍ مقدودةٍ مهيّأةٍ مُسبقاً بغية بتر أوصال الفريسة... إلخ. وعليه، يتطلّب هذا الأمر وجود قدرةٍ لدى الإنسان الأوّل تخوِّله استذكار أماكنَ ليس متواجداً فيها، وأن يُموضِع نفسه في متتاليةٍ زمنيّةٍ... وبالتالي، نجد في هذه النشاطات تماثلاً بين السلسلة العملانيّة واللغة، أي بين سلسلة الحركات التعاقبيّة التي يتمّ إنجازها لغرضٍ محدَّدٍ وسلسلة الفونيمات التي تبعثُ برسالةٍ لغوية معيَّنةٍ. ونجد فيها أيضاً تماثلاً مع بعض وظائف اللغة، على غرار المظاهر المرجعيّة في المكان والزمان.

ـ أتقصد بقولكَ أنَّ قَدَّ الحجارة واللغة يتماشيان أحدهما مع الآخر؟

ـ من وجهة النظر المعرفيّة، طبعاً، إذا ما ركنَّا إلى التصوير الطبقيّ الدماغيّ. بيد أنَّ بعض الأسئلة تبقى مطروحةً: هل بإمكاننا مثلاً أن نعلِّم هذه التقنيات ـ أي هذه المهارة ـ وأن ننقلها من دون أن نلجأ إلى استخدام اللغة؟ ينوِّه البعض، وعلى رأسهم العالم بدراسة الرئيسات فرانز دو وال (Franz de Waal)، أنَّ الحِرَفيّ نادِراً ما يكون لَسِناً أكثر من الصيّاد، وأنَّ هذا النمط من التعلُّم يتمّ بالمراقبة والتقليد (بفضل «الخلايا العصبيّة المرايا» دائِماً). ومع ذلك، لا زالت مهارات قدّادي الحجارة الأوائل تُثير دهشتنا. ونعلمُ على سبيل المثال أنَّه منذ 2,34 مليون سنة عَبَرت فصائل الإنسيّات السهوب الكثيرة العشب الواقعة غرب بحيرة توركانا (Turkana) في كينيا، لتُدرِكَ نتوءات حجارة البازالت (Basalte) البارزة على طول الضفاف. وهنالك في مدينة لوكاليلي (Lokalelei)، عثَرَ الأرخيولوجيّون الذين يعملون مع

فريق هيلين روش (Hélène Roche) على عشرات مواقع تقصيب الحجارة (débitage). وتشهد مئات الفلقات وكُتَل النواة على مهارة قدّادي الحجارة هؤلاء، الذين كانوا قادرين على تقصيب كميّةٍ كبيرةٍ من الحجارة وعدم الاحتفاظ إلاّ بالشظايا الأجمل. وتفترِضُ سيطرتهم على عملية طرق الحجارة وجودَ معرفةٍ ممتازةٍ بالخاصيّات الفيزيائيّة التي تتحلّى بها المواد الأوّليّة، مثل الحِثّ الصوانيّ (Quartzite) وحجَر البازالت والصوان. ولقد استعملوا يدهم اليمنى في عملهم، ما يتطابق مع اللاتماثل الموسوم أكثر للدماغ الأيسر نسبةً إلى الدماغ الأيمن، أي حيثُ تقع المنطقتَين المُخصَّصتَين للّغة.

ـ مَن هي فصائل الإنسيّات الماهِرة هذه؟

ـ لا نعلم، أو على الأصحّ نحتار بين عدَّة مرشَّحين محتملين. وكان الاعتقاد السائِد لفترةٍ طويلةٍ أنَّ هذه النشاطات كانت حكراً على فصيلة «الإنسان الماهر» (Homo habilis)، وذلك بحسب التحصيل الحاصل التقليديّ القاضي بأنَّ الإنسان وحده كان قادراً على صناعة الأدوات، وبالتالي فإنَّ الأحافير الضامرة التي تعود إلى حقبة الحجارة المقدودة هي حكماً لجنسٍ بشريٍّ (Homo) مثلنا نحن فصيلة «الإنسان العاقل» (Homo Sapiens). وتجدر الإشارة إلى أنَّ «الإنسان الماهر» يظهر بمظهرٍ حسنٍ، إذ إنَّ يده تُشبِه يدنا، ولكنَّها أقلّ طولاً وأكثر عرضاً وتنتهي بأصابع أقصر وأطرافها غليظةٌ، وله دماغٌ أكبر من دماغ الأوسترالوبيتيك (يصل إلى 680 سم^3)، كما أنّنا نُميِّز تماماً في جمجمته آثار منطقة بروكا! ولكنَّ وضعه كإنسانٍ بكلّ ما للكلمة من معنى هو اليوم مثار جدلٍ، تماماً كما هو حال معاصره «إنسان بحيرة توركانا» المعروفة قديماً باسم بحيرة رودولف (Homo rudolfensis). أمّا بالنسبة إلى الرابط بين اللغة والأدوات، فهو لم يكن بالتأكيد الحِرَفيّ الوحيد في تلك الحقبة.

صيّادون بَقْباقون ثرثارون

ـ مَن هم المرشَّحون الآخرون؟

ـ لنبدأ بفصيلة **الأوسترالوبيتيك المفاجأة** (Australopithecus garhi)، وهي فصيلةٌ وسيطةٌ بين الأوسترالوبيتيك العفاريّ الذي عُثِرَ عليه في منطقة عفار (Afar) (وهي الفصيلة التي تنتمي إليها لوسي) وفصيلة أشباه الإنسان (Paranthropes) الأحدث عهداً منه. وتعني كلمة «garhi» في اللُّغة العفاريّة «مفاجأة»، ذلك لأنَّ اكتشافها عام 1995 في إثيوبيا شكَّلَ مفاجأةً غير متوَقَّعةٍ، فقد وُجِدَ هذا الأوسترالوبيتيك الذي يرجِع إلى 2.3 مليون سنةٍ، والتي تخلو جمجمته من أيّ شيءٍ من شأنه أن يُثير الدهشة (يبلغ حجمها 450 سم^3)، ووُجِدت معه حجارةٌ مقدودةٌ كانت تُستخدَم لتقطيع الظبي مثلاً! وفي تلك الحقبة أيضاً، عاشَ في أفريقيا الشرقيّة والجنوبيّة أفراد ذريّة لوسي، أي أفراد فصيلة أشباه الإنسان، الذين كانوا أقوى بُنيةً من أسلافهم. ولقد تأقلمت فصائل الإنسيّات هذه كلُّها، إلى أيّ فئةٍ انتمت، مع بيئاتٍ ذات طابعٍ فسيفسائيٍّ دائِم تتَّصف بوجه الإجمال بأنّها أكثر انفتاحاً وجفافاً، وبأنَّها موسميّةٌ أكثَر، جرّاء التبدُّل المناخيّ. لقد كانوا جميعهم يتمتَّعون بخاصيّة المشي على قدمَين اثنتين، مُثبتة أكثر، وكان لديهم أدمغةٌ متطوِّرةٌ نسبيّاً، بينما لم يتبدَّل معدَّل طول قامتهم. فهل كانت فصائل الإنسيّات هذه كلها تمارِس تقنية قَدّ الحجارة؟ ربَّما كان بعضها يصنع الأدوات والآخرون «يستعيرونها» منهم!

ـ إنَّهم صيّادون. والحال أنَّه يتمّ في أغلب الأحيان أيضاً ربط الصيد باللغة...

ـ إنَّ قِرَدة الشمبانزي تصطاد بشكلٍ فعّالٍ جدّاً من دون أن

تتحادَث! فكأنَّنا نصطاد ونحن نثرثِر! وتطالعنا باستمرارٍ هذه الارتباطات المتبادلة السّخيفة التي تنمّ عن جهلٍ مُطبقٍ بحياة سائِر القِرَدة العليا، فلقد كان الاعتقاد السائِد أنّ الإنسان وحده يصطاد ويتكلَّم، وبالتالي... ها نحن نعود إلى المنطق البانغلوسيّ مرّةً أخرى. في الواقع، إنَّ ما يُثير الاهتمام من وجهة نظر اللغة، ليس الصيد بحدّ ذاته إنَّما التفاعلات الاجتماعيّة المعقَّدة كافَّةً، التي تتمحور حول تقاسم الفرائِس واستهلاكها. وفي ما يتعلَّق بالـ «بشر الأوائِل»، فهم لم يصطادوا الطرائِد الصغيرة والمتوسِّطة الحجم، وأكلوا جِيَف الحيوانات العاشِبة النافِقة. وهنا أيضاً نشهد ذلك التنظيم المعتمَد في استغلال هذه الجِيَف، باختيار الأجزاء التي ينبغي استهلاكها فوراً في الموقع، كالنخاع واللِّسان والأحشاء، وتلك التي كان يتمّ اقتطاعها ونقلها لتحضيرها في مكانٍ آخر لتقصيب اللّحوم قبل أن يُصار إلى استهلاكها لاحقاً، يشهد ذلك على وجود طرقِ تعاونٍ وتواصلٍ أكثر تعقيداً.

ـ أخيراً، هل نستطيع أن نعتبر أنَّ لديهم الكلام؟

ـ لاتزال هذه المسألة في طورها الافتراضيّ، إلاّ أنّ طريقة عيشهم تُظهِر بحكم الواقع أنَّهم يمتلكون قدراتٍ معرفيّةً لإدراك بيئاتهم الطبيعيّة والاجتماعيّة وفهمها وتنظيمها بشكلٍ أكثر فعاليّةً. وفي هذا السياق، تعزَّزت استعدادات التواصل الرّمزيّ، فأصبحت يدهم أكثر مرونةً، وتنامى دماغهم أكثر بقليلٍ من دماغ الأوسترالوبيتيك، وأضحت اللاتماثلات الدماغيّة (petalia) بنوعٍ خاصٍّ موسومةً أكثر، ومناطق العَظْم الجداريّ (Pariétales)، أكثر تطوُّراً. ونعثر على آثار منطقتَي بروكا وويرنيك لدى «**البشر الأوائِل**» (premiers Homo) وحدهم دون سواهم، ولكن لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أنَّ أفراد فصيلة أشباه الإنسان كانوا يفتقرون إليهما، فلدى قِرَدة الشمبانزي مثلاً

لا تكون هاتَين المنطقتَين «راسختَين» في القِحف الداخليّ. أمّا بشأن استطاعتهم تنغيم الأصوات، فلا يُمكننا تكوين فكرةٍ عن الموضوع ما لم نعاين حنجرتهم، وهو أمرٌ متعذّرٌ، لأنَّها لا تتحجَّر كالأجزاء الرخوة في الجسم. الدليل الوحيد الذي نملكه هو قاعدة القِحف التي كنَّا نخال أنَّ شكلها المحنيّ بدرجاتٍ متفاوتةٍ كان مُتعالقاً مع وضعيّة الحنجرة (فهي ملويّةٌ جدّاً لدى الإنسان الحالي ومستوية لدى القِرَدة العليا الحاليّة). والحال أنَّها محنيّةٌ بشدّةٍ لدى أفراد فصيلة أشباه الإنسان، وأقلّ التواءً بكثيرٍ لدى «البشر الأوائِل»، ممّا يُسبِّب بعض التشوُّش. في الواقع، إنَّ الإرتباط المتبادل القائِم بين الانحناء القِحفيّ القاعديّ ووضعيّة الحنجرة ليس مُثبتاً بعد. وعلى الأرجح، لم يكن باستطاعة فصائِل الإنسيّات هذه أن تنطقَ. ولكن حذارِ! إنَّنا نُحلِّل على ضوء جهازِنا النُّطقيّ الحاليّ، والحال أنَّه لربَّما وُجِدت حينذاك عدّة أنماطٍ لإخراج الأصوات اللغوية، أسوةً بتنوُّع طرائِق المشي على قدمَين اثنتين. أمّا أنا، فأعتقد أنَّ الحنجرة لم تهبِط إلاّ بعد أن بدأنا بالركض.

«أ ـ ن ـ ط ـ ق!»

ـ بتعبيرٍ آخر: هل نحن ننطق لأنَّنا نركض؟

ـ إنّها فرضيّةٌ اقترحها إيف كوبينز (Yves Coppens) وأنا شخصيّاً، فمنذ أقلّ من مليونَي سنةٍ بقليلٍ، ظهَرَ **الإنسان الحِرَفيّ** (Homo ergaster)؛ وهو من وجهة نظري الإنسان الأوَّل الحقيقيّ. هذا **الإنسان الحِرَفيّ** كان أطول قامةً بفارقٍ كبيرٍ، إذ تجاوز طوله الـ 1,6م، في حين لم تكن فصائِل الإنسيّات كلّها، سواء الحديثة منها أم الأكثر قِدماً، تتعدَّى الـ 1,30 م، وكان لديه دماغٌ كبيرٌ، ولكنّ ما ميَّزه على الأخصّ هو أنَّه ذو قدمَين حديثٌ (Bipéde moderne)، فهو

مهيَّأ تماماً للسير لمسافاتٍ طويلةٍ في السهوب، ويستطيع ـ بخلاف أسلافه ومعاصريه جميعهم ـ أن يركض واقفاً. زِد على أنَّه كثير التنقُّل والترحال، فهو بطبعه يحبُّ الارتحال والنزوح، بحيثُ إنَّه غادرَ أفريقيا ليغزو آسيا وأوروبا. ولكن يتطلَّب المشيُ لمسافاتٍ طويلةٍ، وبوجهٍ أخصَّ الركضُ، وجودَ فيزيولوجيا مكيَّفة للتنفُّس. وهكذا، اتَّسع شيئاً فشيئاً القفص الصدري **للإنسان الحِرَفيّ**، الذي كان يتَّخِذ بادئ ذي بدءٍ شكلاً مخروطيّاً أسوةً بذلك الذي تملكه سائِر فصائِل الإنسيّات، ليتَّخذ شكلاً أسطوانياً كالذي نملكه نحن، فنزلت حنجرته. أترين؟! في إطار هذه النظريّة نكون بصدد عمليّة تهايؤٍ (Exaptations) فعليّةٍ، بحيثُ إنَّ الحنجرة لم تهبط لأنَّه كان علينا أن نتكلَّم بل لأنَّنا بدأنا نركض. وكان من النتائِج الثانوية التي خلَّفها هذا التطوُّر أنَّه سمحَ لنا بتبديل طبقة صوتنا للنطق بالأصوات، فضلاً عن أنَّ إعصاب (innervation) القسم الأعلى من القفص الصدري **للإنسان المُنتصب** هو أكثر كثافةً وأكبر حجماً، إذا ما اعتمدنا على حجم الثقوب (foramens) التي تبرز من خلالها أعصاب العمود الفِقريّ. بداهةً، كان هؤلاء البشر يتحكَّمون بتنفُّسهم وبحنجرتهم بشكلٍ أفضل.

ـ وماذا يوجد في الجهة الثانية من قاعِدة القِحف، أي من جهة الدماغ؟

ـ كان **الإنسان الحِرَفيّ** يملك دماغاً أكبر من دماغ سائِر فصائِل الإنسيّات، ومردّ ذلك ببساطةٍ إلى أنَّه كان أكبر قواماً وقامةً. إلاّ أنَّ أجزاء الدّماغ كلها لا تكبر بشكلٍ متناسبٍ. وليست مُطلقاً المناطق الأوّليّة والثانويّة في دماغنا ناميةً أكثر من تلك الموجودة لدى قِرَدة الشمبانزي. من هذا المنطلق، أُلْفَت المناطقُ الوسيطة نفسها، أي مناطق الجمع، حيثُ تقع منطقتَي اللغة، أكثرَ اتِّساعاً من حيثُ لا

تدري، وبتنا نفهمُ على نحوٍ أفضل ما كان يبدو حتّى الآن خارقاً، فبروز **الجنس البشريّ** (Homo)، إنَّما هو مرتبطٌ بتغيُّراتٍ طرأت على حجم القامة الجسديّة وبتعديلاتٍ لحقت بالقِسم الأعلى من الجسم، وقد نجمَ بعضها من ضوابط النموّ التي تربط الحنجرة بالدماغ، كما تُشير إليه جينة (فوكس پ2). لِلَّهِ دَرُّه من تهايؤٍ ومن تكييفٍ تطوُّريٍّ مغايرٍ! وبسرعةٍ فائقةٍ، جنى أفراد فصيلة **الإنسان الحِرَفيّ** فائِدة هذا التطوُّر وبدؤوا يسطِّرون قصّة توسُّع الجنس البشريّ العجيبة، بينما كان نجْمُ سائر ذريّات سلالتنا يميل للأفول.

حالات التواصل الأولى

ـ أتعتقد إذاً أنَّ أفراد فصيلة الإنسان الحِرَفيّ هم البَقْباقون الثرثارون الأوائِل في سلالتنا؟

ـ أعتبر على أيّ حالٍ أنَّ الحياة الاجتماعيّة البيئيّة التي ترعرَع فيها هؤلاء البشر الأوائل كانت تتطلَّب نوعاً من ميثاقٍ اجتماعيٍّ جديدٍ، ما أدّى إلى نشوء تواصلٍ متطوِّرٍ لنقل المعلومات ذات الصلة بالفضاء والماضي والمُستقبل والأفعال والواجبات والموجبات...

ـ ما هي المؤشّرات التي بحوزتنا؟

ـ بينما كانت فصائِل الإنسيّات الأخرى تستخدِمُ بفطنةٍ موارد بيئتها، كان أفراد فصيلة **الإنسان الحِرَفيّ** يحوِّلون بيئتهم، فشيَّدوا المخيَّمات، إذ إنَّنا عثرنا على معالِم مساكن عمرها 1,8 مليون سنة. وأقاموا خارجها أماكن لتقصيب اللُّحوم، وكانوا صيّادين بكلّ ما للكلمة من معنى، كما أنَّهم كانوا قطّافين بارعين، يستكشفون أراضيَ مترامية الأطراف. ومنذ حوالى 1,6 مليون سنة قبل الزمن الحاضر، اخترعوا الفأس ذات الوجهَين (biface)، وهو كنايةٌ عن حجرٍ ذي شكلٍ مسنَّنٍ وتناسقيٍّ تماماً، مقدودٍ من الجانبَين... وتفضح صناعة

هذه الأدوات المُذهلة وتشكيلها رغبةً في الفعاليَة وسعياً إلى الجمال في توازن الأشكال. ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ تشهد التنميقات التي تسمح بتحقيق مثل هذه النتائج على وجود قدراتٍ ترداديّةٍ. وتبعاً للتشاكل المعرفيّ القائِم بين الحركة والكلام، والذي أشرنا إليه آنفاً، من الجائِز تماماً أن نعتبر أنَّ ذلك ينسحبُ أيضاً على لغتهم. وكذلك كان أسلافنا يصنعون بُليطاتٍ صغيرةً وكراتٍ من حجارةٍ، ولا يساورنا أدنى شكٍّ في أنَّهم كانوا يصنعون مجموعةً كاملةً من الأدوات والآلات المتنوِّعة المصنوعة من الخشب، على غرار عصيّ الحفر وحربات الصيد، وغيرها العديد من الأغراض والأدوات التي لم نعثر عليها ثانيةً. هذا وقد بحثوا عن المواد الأوّليّة (كالصخور والحصى الملساء ولاحقاً المُغرَة «Ocre») على قطر عشرات الكيلومترات. . . وتتطلَّب هذه النشاطات كلّها أن يتفرَّق أعضاء العشيرة على مساحاتٍ شاسعةٍ. غير أنَّه كان ينبغي المحافظة على اللُّحمة الاجتماعيّة. ومن هنا نشأت ضرورة التواصل. وباستطاعتنا أن نتصوَّر كذلك، حتّى وإنْ كنَّا نفتقر إلى أيّ وسيلةٍ للتأكُّد من هذا الأمر، أنَّ طريقة عيشهم قد أفضت إلى تقسيم المهام تبعاً للجنس، فكان الرجال يمارسون الصيد والنساء يَضطلعنَ بمهام الجَنَى والقِطاف، وكانوا يتلاقون جميعهم في المخيَّم الأساسيّ لتقاسُم ثمرة نشاطاتهم المتبادلة. . .

ولكن قد يكون هذا التصوُّر «بشريّاً» أكثر من اللازم بمفهوم «الإنسان العاقل» الحديث، لدرجة أنَّه يصعبُ تصديقه. ومع ذلك، ففي إطار هذه الفرضيّة، يشقُّ علينا أن نتصوَّر أنَّ الرجال قد ذهبوا للصيد مجازفين بأن يستولي أحدهم على نسائهم، الأمر الذي كان ليُشكِّل مفارقةً من وجهة النظر التطوُّريّة. وبناءً عليه، ينبغي أن يتمكَّنوا من الاجتماع مساءً لكي ينظِّموا العمل المُسنَد إلى كلٍّ منهم

وسُبل حماية النساء والأطفال... ما أدّى مرّةً أخرى بعد إلى ضرورة نشوء تواصلٍ على جانبٍ كبيرٍ من التطوُّر.

ـ نوَّه جان لوي ديسال (Jean-Louis Dessalles)، وهو باحثٌ في العلوم المعرفيّة، بأنَّ مَيل الإنسان الحِرَفيّ للهجرة يُشكِّل كذلك برهاناً يصبُّ في صالح بروز اللغة في تلك الحقبة، إذ إنَّ إخطار سائر أعضاء العشيرة بالرّغبة في الرحيل لاستكشاف أراضٍ جديدةٍ، اقتضى وجود القدرة على المحاجَّة...

ـ في الواقع، لم يمكث **الإنسان الحِرَفيّ** طويلاً في المهد الأفريقيّ، بل غادره لينتشر أيضاً في قارتَي آسيا وأوروبا. وبالرَّغم من أهميّة المحاجّة، إلاّ أنّني لا أجدها كافيةً، ولا حتّى ضروريّةً، لأنَّ **الإنسان الحِرَفيّ** لم يخرج من قارّة أفريقيا منفرداً، بل غادرها بصحبة الأسود والضباع والفهود والفِيلة أجداد الماموث... إلخ. فقد انتقلت آنذاك مجموعةٌ بيئويّة برمّتها. وبناءً عليه، لا تتعلَّق المسألة من وجهة نظري برغبةٍ في الهجرة، بل بمجرّد ظاهرةِ تفرُّقٍ فرضتها التبدُّلات المناخيّة (ففي تلك الحقبة كنّا على عتبة العصور الجليديّة).

«ميام ـ ميام» و«بِقْ ـ بِقْ»

ـ إذا كانت اللغة تعود إلى عهودٍ سحيقةٍ إلى هذه الدرجة، فهل كانت تُشبِه لدى نشأتها لغتنا اليوم؟

ـ إنّنا بالتأكيد لم ننتقل فجأةً وبسحر ساحرٍ من طور الصراخ الذي كان يُصدره القِرد إلى طور المقاطع الشكسبيريّة الطويلة، فأنا من الأشخاص الذين يعتقدون بوجود مرحلة بذْئيّة لغوية أو أكثر. لقد صدرت عدّة فرضيّاتٍ بشأن هذه المسألة، يتَّصف بعضها بطابعٍ مسلٍّ حقاً، على غرار نظريّة «واق واق» (théorie «ouah-ouah») التي تعتبر أنّنا بدأنا نتكلّم بواسطة المحاكيات الصوتيّة، فيُقال مثلاً «زِق ـ زِق»

(«cui-cui») للدلالة على العصفور الذي يُزقزق و«بِقْ ـ بِقْ» -glou») glou») للدلالة على فعل شرب الماء... إلى ما هنالك؛ ناهيك عن نظرية «ميام ـ ميام» (théorie «miam-miam») التي تعتبر أنَّ الصوت الأوّل الذي تمَّ إصداره يوماً كان «ممم» («mmm»)، وهو صراخ الوليد الذي يُطالب بالرضاعة... أمّا أنا، فتُثير اهتمامي النظرية التي أوجدها الأميركيّ ديريك بيكيرتون (Derek Bickerton). فلقد تعمَّق هذا الألسنيّ في دراسة مختلف أنواع الرطانة التي لا تندرج في خانة اللُّغات الحقيقيّة، بل إنَّها مجرّد أنظمةِ تَوَاصُلٍ يُمارسها بشكلٍ عفويٍّ أشخاصٌ بالغون ينتمون إلى مجتمعاتٍ متباينةٍ حين يترتَّب عليهم أن يتعايشوا سويّاً. إنَّ الرطانة هي عبارةٌ عن مجموعة مفرداتٍ محدودةٍ وجملٍ فيها الحدّ الأدنى من الكلمات ومجرَّدةٍ من أيّ تركيبٍ جُمليٍّ، كأنْ نقول مثلاً: «أنتَ طرزان، أنا جاين» («toi Tarzan, moi Jane») أو «أنا، جوع!» («moi, faim!») أو «غداً، نحن ينام» («demain, nous dormir»)... إلخ. وإنَّ هذا النوع من التواصل الذي يُشبه ثغثغة الأطفال الصِّغار (الذين يقولون مثلاً: «بابا ذهَبَ» («papa parti») و«ماما، حلوى بعد» («maman, encore gâteau»))، ورغي صِغار القِرَدة العليا المُدرَّبة، هو بمثابة الأثر الباقي في مجموعة تصرُّفاتنا، والذي يشهدُ على وجود اللغة البِدْئيّة السَّلفيّة.

ـ ولكن كيف تطوَّرت اللغة البِدْئية فيما بعد؟

ـ برأيي، شكَّل تدجين النار(*) الذي يرقى إلى 500 ألف سنةٍ تقريباً إحدى المراحل الأساسيّة. وقد أَلِفَ أجدادنا النار قبل ذلك بكثيرٍ طبعاً، إذ إنَّنا نجد آثاراً قديمةً للنار عمرها أكثر من 1,4 مليون سنةٍ، ولكنَّهم لم يُعدّوا المواقِد فعلياً إلاّ منذ نصف مليون سنةٍ.

(*) أي عندما زال خوف الإنسان القديم من النار وأَلِفها.

وهكذا، بدأت حقبة **الإنسان المُنتصِب** (Homo erectus)، الذي أقام تقريباً في كافّة أرجاء العالم القديم، أي آسيا وأوروبا وأفريقيا. ويلذُّ لي التفكير بأنَّ النار قد شرَّعت أمام أفراد فصيلة **الإنسان المنتصب** عالم اللَّيل على مصراعيه، وهو عالمٌ مؤاتٍ لإطلاق العنان للخيال وللتعجُّب، ولكن أيضاً لإيقاظ الخشية. ونستطيع أن نتخيَّلهم يسهرون مساءً على ضوء شعلات النار المتراقصة التي تُلقي بظلالٍ وأخيلةٍ غريبةٍ على الجدران، وهم يسردون الحكايات مسطِّرين أولى بدايات الوضع البشريّ. . . فنحن غالباً ما ننسى أنَّ الأقاصيص التي تتألَّف منها التقاليد تحمل بذور القِيَم التي تُرسي أسس المجتمعات. ويؤكِّد جان لوي ديسال (Jean-Louis Dessalles)، على سبيل المثال، أنَّه تمّ اصطفاء اللغة لهذا السبب تحديداً، أي من أجل سرد الأقاصيص. ويلفِت الألسنيّان مورتان كريستيانسن (Morten Christiansen) وسيمون كيربي (Simon Kirby) الانتباه على نحو ملائم إلى أنَّه كان بمقدور الكائنات البشريّة أن تعيش وأن تتواصل من دون الحاجة إلى صياغة الجمل (وقد رأينا أنَّ غالبيّة وظائف التواصل المنسوبة إلى اللغة، موجودةٌ أيضاً لدى القِرَدة العليا). وبالتالي، فقد طوَّرت اللغة مهاراتِ السرد اللامتناهية هذه بدافع البقاء، بل أكثر منه، بدافع تمكيننا من فعل أشياءَ تنمُّ عن ذكاءٍ في إطار حياتنا الاجتماعيّة.

هذا وشدَّد ألسنيٌّ آخر يُدعى برنارد فيكتوري (Bernard Victorri) على وظيفةٍ أخرى، اجتماعيّةٍ بقدر ما هي سياسيّة، ألا وهي: القدرة على المحاجّة. ومن هنا، كان المتشدِّقون ـ من الجنسَين المُذكَّر والمؤنَّث ـ يحظون بوضع اجتماعيٍّ مرموقٍ أكثر، ويضطلعون بدورٍ على جانبٍ أكبر من الأهميّة ضمن نطاق المجموعة (على غرار حلّ النزاعات واتِّخاذ القرارات. . . إلخ). وبناءً عليه، كان باستطاعتهم أن يُضاعفوا نجاحهم التناسليّ، ما أدّى إلى انتشار

قابليّتهم الأكبر للغة. وذلك بالتأكيد لأنَّ السرد يستوجِب أن نتخطّى طور «الرطانة»، كأنْ نقول مثلاً: «أنا طرزان، أنت جاين» («moi Tarzan, toi Jane») باتِّجاه إنشاء لغة أكثر تطوُّراً تكون مزوَّدةً بقواعد النحو.

حظوظ الخدائِع

ـ أليس كلّ ذلك تفكُّرياً إلى أبعد حدودٍ؟

ـ أوافقكِ الرأي إلى حدٍّ معيَّن. ولكن يصعبُ علينا تصوُّر التآزر الجديد الناشئ بين أفراد **الإنسان الحِرَفيّ** ومن ثمّ بين أفراد **الإنسان المُنتصِب** بالمعنى الواسع المدلول، في ظلّ غياب لغة متطوِّرة. بالإضافة إلى ذلك، إنَّه لمن المؤكَّد تماماً أنَّ تدجين فصائل الإنسيّات للنَّار لم يُغيِّر حياة هؤلاء فحسب، بل بدَّل شكلهم على حدٍّ سواء. ذلك لأنَّ النار تسمح بالتدفُّؤ وبالدفاع عن النفس. . . ولكن أيضاً بطهو الأطعمة. والحال أنَّه من شأن الطهو أن يجعل اللَّحم ألذَّ مذاقاً، ولكن بالأخصّ أن يجعل النشاء أسهل على الهضم، ممّا يزوِّد بكمٍّ إضافيٍّ هائِلٍ من الطاقة. وقد خلَّف هذا الاكتشاف التقنيّ والثقافيّ أثراً على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة، لجهة تطوُّرهم التشريحيّ، بحيثُ إنَّه حابى تنامي الدماغ. وتعلمين أنَّ دماغنا يُشكِّل طامَّةً بيئويَّةً، فهو لا يُمثِّل إلاّ 2 بالمئة من الكتلة الجسديّة ولكنَّه يمتصُّ من 20 إلى 25 بالمئة من الطاقة التي نستهلكها في اليوم! وبالتالي فقد سمحَ طهو الأطعمة بتجاوز حاجزٍ فيزيولوجيٍّ واستقلابيٍّ أفضى إلى بروز رأسٍ كبيرٍ لدى البشر، فبلغت سعتهم القحفيّة 1400 سم^3. وبالتأكيد إنَّ حدوث هذا التنامي قد فتح سبيلاً لإمكانيّاتٍ معرفيّةٍ جديدةٍ. دون أن ننسى تبعةً جوهريّةً طبعاً قد نجمَت كذلك عن ازدياد حجم الدماغ هذا، ألا وهي: المِبكاريّة الثانوية (altricialité secondaire).

ـ أيْ واقعُ أنَّ النساء أصبحنَ يُنجِبنَ أطفالاً يتمتَّعون بأدمغةٍ غير مُكتملةٍ أكثر فأكثر... فهل أدّى ذلك دوراً ما في بروز اللغة؟

ـ بكلّ تأكيدٍ. ففي الواقع، يتنافر المشي على قدمَين اثنتين بشكلٍ فعّالٍ تنافراً تاماً مع إنجاب ذوي رؤوسٍ كبيرةٍ، إذ إنَّ من عواقبِ الرّكض أنَّه أصبحَ لدينا حوضٌ ضيِّقٌ. وصحيحٌ أنَّ التطوُّر يُكيِّف بشكلٍ مغايرٍ ولكنَّه لا يتَّصف بالكمال! فمنذ اللَّحظة التي بدأ فيها دماغ فصائل الإنسيّات ينمو بشكلٍ ملحوظٍ يستحقّ الذكر، كان الحلّ الوحيد لكي لا تموت النساء وهنَّ يلِدنَ أن يُنجِبنَ «خدائِج». واليوم، يُبصر الطفل البشريّ النور مع دماغٍ يبلغُ لدى الولادة 25 بالمئة من حجمه عند البلوغ. ويتتابع تناميه على مدى عشر سنواتٍ على الأقلّ. وإذا ما أجرينا مقارنةً مع صغير قِرد الشمبانزي، نجد أنَّ دماغه يُمثِّل لدى الولادة 40 بالمئة من حجمه لدى البلوغ، وأنَّه يكفُّ عمليّاً عن النموّ بعد تجاوز القِرد عامه الثاني.

ـ ما هي تبعات هذا الأمر؟

ـ تتجلّى **التبِعة الأولى** التي يُخلِّفها هذا البُكور في واقع أنَّ نموّ الدماغ يستمرُّ أساسيّاً خارج الرَّحم الطبيعيّ، فتحثُّه المعلومات كافّةً التي يتلقَّاها من العالم المُحيط به. هذا يعني أنَّ النموّ يستمرّ في نوع من «رحم ثقافيٍّ» إنْ جاز التعبير، فمن شأن فترة التعلُّم الطويلة الأمدَ هذه أن تسمح للطفل بأن يتعلَّم كمّاً كبيراً من الأشياء، ولا سيَّما التكلُّم. ذلك لأنَّ اللغة تشكِّل كفايةً معقَّدةً يستغرقُ اكتسابها سنواتٍ عديدة، وهذا ما ستشرحه لنا جيسلان دوهان في موضع لاحق. أمّا **التبعة الثانية**، فتتَّصف بطابعٍ اجتماعيٍّ، وهي تتمثَّل بواقع أنَّ عدم استقلاليّة الأطفال غير المُكتملين تفترضُ تنظيماً أسرياً واجتماعيّاً خاصّاً. فهي تؤدِّي على الأقلّ إلى ممارسة ضغطٍ انتقائيّ على النساء، لكي يقمن بتربية هؤلاء الصِّغار طَرِيِّي العود. وبالتالي، يتطلَّب ذلك

على الأرجح الإسهام والإحاطة الأبويّة. وإذا صحَّت هذه الفرضيّة، فهي تشهدُ في صالح تطوُّر اللغة بغية تبادُل المعلومات والتعبير عن الواجبات والالتزامات وسرد الأقاصيص.

ـ ذلك لأنَّه في فصيلة الجنس البشريّ (Homo)، لكي يكون المرء والداً عليه أن يتكلَّم؟

ـ يُمكننا أن نفترِض أنَّه انطلاقاً من تلك اللَّحظة، بدأ الرّجل يقول للمرأة: «صباح الخير يا حبيبتي. ماذا فعلتِ اليوم؟» (Tiens!» . Bonjour, chérie. Qu'est-ce que tu as fait aujourd'hui?») ولكن دعنا من المزاح، فمنذ اللَّحظة التي ينشأ فيها الإسهام الأبويّ، نتحدَّث على الأرجح عن الزواج الأحاديّ، أو الزواج الأحاديّ الزائِف، الذي يُميِّز بني جنسنا. ومردّ ذلك إلى أنَّه في مملكة الحيوان، حيثما كانت، لا يكون من مصلحة الذكور مطلقاً أن يعتنوا بأولادٍ ليسوا أبناءهم. وهنا تتعقَّد الأمور كلّها، ولا سيَّما ضمن نطاق مجموعةٍ تضمُّ ذكوراً وإناثاً بالغين! والزواجُ الأحاديّ هو أمرٌ نادر الوجود لدى الثديِيَّات، وحتّى حين يكون موجوداً، فهو يتمّ بدافع الحماية، بحيثُ تلجأ إليه الثديِيَّات لمنع منطقتها على سواها، وليس بدافعٍ اجتماعيٍّ. ويتطلَّب العيش في عشيرةٍ تضمّ عدّة نساءٍ ورجالٍ بالغين يُعنون بتربية صغارٍ متعلّقين بهم بوجهٍ خاصٍّ، وجودَ مجموعةِ أنظمةٍ، كما أنَّه يستوجِب وجود وسائل تواصلٍ متطوِّرةٍ من أجل ربط الوالد بالوالدة، بل الوالد بالولد، فبُغية إقامة علاقات الالتزام، والمُعاملة بالمثل، وإنشاء الروابط الأُسريّة، تعَدُّ اللغة أداةً منقطعة النظير لا تُضاهى في هذا المجال. وتُلاحظين أنَّه في المجتمعات البشريّة جميعها، تكون بُنى القرابة مُقنَّنةً إلى أبعد حدودٍ، كما أنَّها تُرسي أسس هويّة الفرد. وأُحيلُ هنا إلى أعمال كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss)

وأعمال مذهبه. ونستطيع دائِماً أن نُعيِّن في هذه المجتمعات مَن هو الوالد، سواء كان هذا الأخير ـ من الناحية الثقافية ـ المكوِّنَ أو الخال أو حتّى شخصاً آخر.

سرّ إنسان نياندرتال

ـ فلنُتابع مجريات أحداث الحكاية... بدأ دماغ فصائِل الإنسيّات يكبُر بشكلٍ بارزٍ، واستفاد الأطفال من فترةِ تعلُّم يطول أمدها أكثر فأكثر، تكون مؤاتيةً لاكتساب اللغة... وماذا حصل بعد ذلك؟

ـ فلنقُل بشكلٍ مبسَّطٍ إنَّه حينذاك برزت سلالتان في غرب العالم القديم، ألا وهما: سلالة إنسان نياندرتال، أي **الإنسان النياندرتالي** (Homo neanderthalensis)، وسلالة الإنسان الحديث، أي سلالة **الإنسان العاقل** الأوّل. ويُمكننا التمييز بينهما بمنتهى السهولة على الصعيد التكوُّنيّ، فإنسان نياندرتال قويٌّ متين البُنية ورأسه يُشبِه طابة الرِّكبيّ، أمّا الرجل الحديث، فهو أكثر ضموراً، ورأسه دائريٌّ كطابة كرة القدم، وله ذقنٌ. ولكنَّنا نعجز في المقابل عن التفريق بينهما على الصعيد الثقافيّ، إذ إنَّهما يصنعان الأدوات نفسها ويستخدمانها، وهي أدواتٌ لا تنفكُّ تتطوَّر وتتعقَّد بفضل طريقةٍ مُبتكرةٍ في التقصيب تُعرَف بتقنيّة «لوفالوا» («Levallois»)، التي تتطلَّب إنجاز سلسلةٍ معقَّدةٍ من العمليّات التكراريّة، كما أنَّهما يُشيِّدان الملاجئ ويملكان تقنيَات الصيد والقنص نفسها. وما يجمعهما بالأخصّ هو أنَّهما يدفنان موتاهما. وترقى أولى المدافن إلى 100 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر، ولكن تعود أولى آثار الطقوس الجنائزية إلى 200 ألف سنةٍ أو 300 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر. وأعتقد أنَّه ابتداءً من اللَّحظة التي تدفن فيها مجموعةٌ سكانية موتاها تدنو من أحد أشكال التمثيل الرمزي

الذي يفرض منطقياً وجود وظائفَ سرديّةٍ ومُبتكِرةٍ خاصّةٍ باللغة. وتستدعي الطقوس الجنائزية ضرباً من ضروب الروحيّة، كما أنّها تتطلّب مشاطرةَ رؤيةٍ حول العالم، وتذكارَ الميت، وإيماناً بوجود حياةٍ ثانيةٍ. . . وبرأيي، لقد انتفى وجود الشكّ، فالبشر الذين كانوا يعيشون في تلكَ الحقبة كانوا يتكلّمون مثلنا ولكنّهم لم يكونوا يتكلّمون لغاتنا، إنّما لغاتٍ توازيها تعقيداً.

ـ غير أنَّ بعض الباحثين ينفون قدرة إنسان نياندرتال على التكلُّم، أو على الأقلّ إنَّهم يعتقدون أنَّه لم يكن يتكلَّم مثلنا.

ـ في الواقع، ما من داعٍ إلى أن إنسان نياندرتال كان يتكلَّم مثلنا تماماً، فلربَّما كان يتلفَّظ بأصواتٍ أخرى. ويؤكِّد بعض الباحثين أنَّه كان عاجزاً عن النطق بالأحرف الصائِتة كافَّةً، إلاّ أنَّني أتحرَّز من إعادات التشكيل هذه قاطبةً، لأنَّ شغلها الشاغل التقليل من قيمة إنسان نياندرتال ليس إلاّ. فمن المحتمل أنَّ التغييرات في طبقة صوت هذا الأخير كانت «خيشوميّةً» أكثر، ذلك لأنَّ عظم وجهه كان يحتوي على تجويفَين حَنَكيَّين كبيرَين. ولكن، بناءً على المعطيات الأرخيولوجيّة التي تؤكِّد وجود نشاطاتٍ تقنيّةٍ لدى النياندرتاليّين، فما من مسوِّغٍ للتفكير بأنَّهم لم يكونوا يتكلَّمون لغاتٍ توازي لغاتنا من حيث درجة تعقيدها. ونلمسُ في هذا الصدد عيباً غير مقبولٍ في الثقافة الغربيّة الموروثة عن الأنثروبولوجيا العنصريّة في القرن التاسع عشر، والتي تزعم أنَّ اللُّغات الغربيّة هي أكثر تطوُّراً وتعقيداً من لغات الشعوب التي توصف بـ «البدائيّة». والحال أنَّ كلود ليفي ستراوس ومعه الألسنيّون المعاصرون قد برهنوا بوضوحٍ أنَّه ما من أسرةٍ لغويّةٍ حاليّة هي أقلّ تعقيداً من غيرها، فما بالكِ حين نتحدَّث عن إنسان نياندرتال. . . وحتّى لو كنَّا من أنصار الفرضيّة التي تتَّصف بالتحوُّل المنهجيّ بقدر ما تتَّصف بطابعها القابل للنزاع، والقاضية بأنَّ

النياندرتاليّين قد استعاروا من الإنسان الحديث تقنياته كلّها وميلَه المتأخِّر ظاهرياً إلى التزويق والزخرف، فضلاً عن الطقوس، فكيف تمكّنوا من نشر هذه الأمور بين بعضهم البعض في ظلّ انعدام وجود اللغة؟ لن نعلم مُطلقاً على الأرجح كيف كانوا يتكلّمون. ولكن يصعب علينا أن نتصوَّر واقع أن يكون إنسان نياندرتال قد تبادل المعلومات مع رجل كرومانيون (Cro-Magnon)، أي معنا نحن، في ظلّ غياب أيّ لغة. وبينما تجري أبحاثٌ مُعمَّقةٌ للتأكُّد ممّا إذا كان قد تمّ أيُّ تبادلٍ وِراثيٍّ بين إنسان نياندرتال وبيننا، لم يسأل أحدٌ نفسه ما إذا كان هؤلاء البشر يملكون لغة هجينة (pidgin)، فهذا الأمر يجعلني... أُرتِج عليه.

ـ ولكن ثمّة أمرٌ آخر، فقد رأينا أنَّه منذ حوالى الـ 50 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر برز الفنّ بمختلف أشكاله لدى إنسان كرومانيون، من فنِّ الرسم والنقشِ والنحتِ والرسومات المجرَّدة والتصويريّة وآلات الموسيقى... إلخ، فكانت المسألةُ مسألةَ ثورةٍ ثقافيّةٍ حقيقيّةٍ لم يصحبها أيُّ تطوُّرٍ مورفولوجيٍّ تشكليٍّ، إذ ما من علاماتٍ فارقةٍ تميِّز جسدياً هؤلاء الحِرَفيّين عن أسلافهم. ولم يواكب النياندرتاليّون هذه الثورة، ففاتهم القطار، وزالوا بعد ذلك ببضعة آلافٍ من السنين. فهل من الجائِز أن نعتبر أنَّ اللغة هي التي تشكِّل الفارق؟ كوجود لغة أكثر فعاليّةً مثلاً، جعلت إنسان كرومانيون يتفوَّق على النياندرتاليّين ولكن أيضاً على سائر مجموعات الإنسان العاقل السكانية الأقدم منها؟

ـ يعود للظافرين المنتصرين دائِماً أن يرووا التاريخ. ويربط العديد من الأنثروبولوجيّين مجموعة **الإنسان العاقل** السكانية ـ بالنظر إلى هذه الحالة إنسان كرومانيون ـ بوجود تنظيم اجتماعيٍّ أكثر فعاليّةً وبتِقانةٍ جديدةٍ وببروز الفنّ، وبطبيعة الحال بابتكّار لغة رمزية حقيقية.

ويُذكِّرني ذلك بأسطورة الشعب المُختار المُنقَّحة في أساطيرَ معاصرةٍ أخرى، فهذا أجمل وأبسط من أن يكون علميّاً. إنَّ دوائر الغموض التي تكتنفُ بروز **الإنسان العاقل العاقل** (homo sapiens sapiens)، أي ما نحن عليه اليوم، هي أصعب من أن تُزال تماماً، شأنها في ذلك شأن لغز زوال إنسان نياندرتال منذ 35 ألف سنةٍ، الذي لم يُحلّ بعد. غير أنَّه لا يسعنا أن نغضّ الطرف عن مسألة التفجُّر الرمزي **للإنسان العاقل العاقل**. ولا يسعنا كذلك أن نُهمِل ابتكاراته التكنولوجيّة على غرار المِلاحة. فما الذي دفعَ الإنسان في العصر الحجريّ القديم إلى الذهاب إلى أوستراليا ومن ثمّ إلى أميركا ولاحقاً إلى جزر الأوقيانوس الكبير؟ لا شيء، إنْ لم يكن بروز اللغة ووظائفها. في الواقع، لا يمكننا أن نعزو سبب هذه النزوحات إلى الضغط الديموغرافيّ أو إشكاليّات البقاء، إذ يستوجِب الذهاب إلى أوستراليا التي تقع في الجانب الآخر من الأفق، أيّاً يكن مستوى مياه البحار، وجودَ قصّةٍ بشأن العالم تنقل البشر أفضل من أفخم الزوارق. إنَّ انتشار **الإنسان العاقل** نحو أراضٍ جديدةٍ، وطفرات العصر الحجريّ الحديث، وغزو المريخ الذي نشهده في أيّامنا هي أمورٌ تنبثقُ كلّها عن تصوُّراتنا بشأن العالم، وعن حاجتنا الأساسيّة لسرد الأقاصيص. وإنَّ حقبتَي ماقبل التاريخ والتاريخ تنبعان من قصص أسلافنا. فلنفكِّر مليّاً في مستقبلنا على الكرة الأرضيّة.

الحلقة الثانية

أسطورة اللُّغات

في البدء، وتحديداً منذ ما يُقارب الـ 200 ألف سنةٍ، كان البشر الأوائِل يعيشون بلا ريب في جماعاتٍ صغيرةٍ وعشائِرَ. وبصفتهم ماهرين وفطِنين، استمدُّوا القوَّة من مهارتهم الجديدة، ألا وهي: مَلَكة اللغة. إنَّها أداةٌ خارِقةٌ للتواصل بشكلٍ أفضل. ولكن هل كان ثمّة لغةٌ أمٌّ واحدةٌ في الأصل تشعَّبت في ما بعد إلى لغاتٍ أخرى أكثر دقَّةً؟ فمع استعمار الإنسان للكرة الأرضيّة، تنوَّعت على أيّ حالٍ طريقة تعبيره تنوُّعاً انتفاخياً حقيقياً. وإليكم كيف حصلَ ذلك...

الفصل الأول

لغةٌ أُمٌّ مُلغِزةٌ

العشيرة الأولى

سيسيل ليستيان: لقد تركْنا باسكال بيك عند النقطة التي اكتسب فيها أفراد فصيلة الإنسان العاقل خاصيّات الإنسان الحديث كافّةً، أي دماغاً ذا قشرةٍ دماغيّةٍ فائقة التطوُّر، وذقناً، ومَلَكةَ اللغة بطبيعة الحال. فهل كانوا جميعهم يتكلَّمون اللُّغة نفسها؟ بكلامٍ آخر: هل كان ثمّة لغةٌ أمٌّ؟

ـ **لوران ساغار:** قبل أن أجيبكِ عن هذا السؤال لا بدّ من التمييز أوّلاً بين ملكة اللغة واللُّغة. تكون اللُّغة مُستمدَّةً من الثقافة، فأنتِ مثلاً تتكلَّمين بلغةِ بيئتكِ الاجتماعيّة الثقافيّة، أي الفرنسيّة بالنظر إلى هذه الحالة، أمّا لو قامت ـ مثلاً ـ عائلةٌ صينيّةٌ من مقاطعة الكنتون (Canton) بتبنِّيكِ منذ نعومة أظافركِ، لكنتِ تتكلّمين الكنتونيّة، وكذلك، كنتِ تعبِّرين على الأرجح بالولوفيّة (wolof) لو ربَّاكِ والدان سنغاليّان. بتعبيرٍ آخر: لا تكون لغتك الأمّ منوطةً أبداً بجيناتكِ. أمّا ملكة اللغة، فهي قدرة راسخةٌ متجذِّرةٌ في طبيعة جنسنا البشريّ البيولوجيّة، فكما يقول تشومسكي، إنَّ البشر جميعهم ـ حتّى

الأغبياء منهم ـ يتكلّمون، في حين أنَّه ما من قردٍ ـ حتّى أكثر القِرَدة ذكاءً ـ قادرٌ على التكلُّم. وسنرى في القسم الثالث مع جيسلان دوهان، أنَّ تعلُّم لغةٍ أولى يتمّ في ظروفٍ خاصّةٍ جدّاً. فالطفل يتعلَّم وحده من دون أن يُتابع أيّ تحصيلٍ علميٍّ قبل بلوغه عامه الرابع تقريباً، وعقبَ تجاوز العام السادس أو السابع، لا يقوى الطفل على تعلُّم لغةٍ أمٍّ بشكلٍ سليم. وتُشكِّل استعدادات اللغة الفِطريّة هذه وتعلُّمها جزءاً لا يتجزَّأ مِّن إرثنا البيولوجيّ. إنَّ هذه المَلَكات هي التي أدَّت على الأرجح إلى تفوُّق **الإنسان العاقل العاقل** وجعلته ينجح سريعاً في إزاحة سائر فصائل الإنسيّات التي كانت موجودةً في الحقبة نفسها والحلول محلَّها.

ـ ولكن ليس من شأن ذلك أن يستبعدَ إمكانيّة أنَّ أسلافنا كانوا مزوَّدين بـ «لغة بذْئية».

ـ لا يستبعد ذلك هذه الإمكانيّة على الإطلاق، إذ إنَّه من الممكن ـ لا بل من المُحتمل ـ أن تكون بعض أجناس فصائل الإنسيّات التي سبقت الجنس البشريّ الحاليّ قد امتلكت قدرة لغوية. واحتمالٌ أيضاً أن تكون مختلف المجموعات البشريّة الـ«قَبْل – حديثة» في أفريقيا وفي أمكنةٍ أخرى من العالم، على غرار النياندرتاليّين في أوروبا، قد تكلَّمت، ولكن لنقل إنَّها لم تكن تتكلَّم لغاتٍ بذْئيّةً، لأنَّ اللُّغات البذْئيّة هي ـ من وجهة نظر الألسنيّين ـ لغاتٌ سلفيّةٌ تحدَّرت منها اللُّغات الحديثة، بل «قَبْل ـ لغات»، أي لغات أكثر تخلُّفاً من اللُّغات الحاليّة، وتضمُّ على الأرجح عدداً أقلّ من المفردات وتنوُّعاً أقلّ في الأصوات وتركيباً جملياً محدوداً أكثر. وإنْ كانت اللغة البشرية كما نعرفها حكراً على جنسنا البشريّ، فلقد ظهرَت لدى حصول الانتواع[*] (spéciation)، أي منذ فترةٍ تتراوح

(*) الانتواع: نشوء الأنواع وتطوّرها.

بين 100 ألف و200 ألف سنةٍ، ولنقل إنَّها أقرب إلى الـ 100 ألف سنةٍ إذا ما صدَّقنا مزاعم السواد الأعظم من الأنثروبولوجيِّين والاختصاصيّين في علم الوِراثة. وقد حصل ذلك في أفريقيا أو ربَّما في الشرق الأدنى.

ـ الأمر الذي يُعيدنا إلى مسألة اللُّغة الأمّ.

ـ إنَّها مسألةٌ مثار جدلٍ في أوساط الألسنيّين، كما أنَّها شكَّلت لفترةٍ طويلةٍ من الزمن مسألةً محظورةً، ففي سنة 1866 مثلاً، عيَّنت جمعيَّة الألسنيّة الباريسيّة (Société de linguistique de Paris S L P) شرطاً في نظامها ينصُّ على أنَّ الجمعيّة لا تقبلُ أيّ نقاشٍ يتناول نشأة اللُّغات! ما سببُ ذلك؟ يُعزى السبب إلى تعذُّر الإجابة عن هذا السؤال بشكلٍ علميٍّ، نظراً إلى نقص المعارف التي كانت في جعبتنا في تلك الحقبة. أمّا اليوم، فلقد تبلوَرَت معارفنا بشأن بروز الإنسان وتطوَّرت تطوُّراً ملحوظاً بفضل أعمال الأنثروبولوجيِّين والأرخيولوجيِّين والاختصاصيِّين في علم الوِراثة. فكيف ينبغي أن نعيد طرحَ هذا السؤال حول اللُّغة (أو اللُّغات) الأمّ؟ برأيي، يتعيَّن التمحُّص في هذه المسألة من زاوية الإمكانيّات النظريّة، إذ يبدو أنَّ نشأة جنسنا البشريّ، أي **الإنسان العاقل العاقل**، قد فرضت على مجموعةٍ صغيرةٍ من البشر الـ«قَبل - حديثي» العيش في العزلة لفترةٍ معيّنةٍ. وبالتالي، يتوقَّف الأمر برمَّته على حجم هذه المجموعة. فكم قَبْل - لُغة كان يتم التكلّم بها ضمن هذه المجموعة؟ في حال كانت هذه المجموعة تستخدمُ في فترة عزلتها، التي شكَّلت مقدِّمةً للانتواع، قبْلغةً واحدةً، لأنَّ العشيرة كانت تضمّ بضع عشراتٍ من الأفراد فقط، فيعني ذلك أنَّه كان ثمّة لغةٌ أمٌّ واحدةٌ. أمّا إذا كانت المجموعة تضمُّ عدداً أكبر من الأفراد، أي في حال كانت تتألّف من مجموعاتٍ صغيرةٍ لكلٍّ منها قَبْل ـ لغةٌ خاصّةٌ بها، فمن الممكن حينئذٍ أن يكون ثمّة لغاتٌ أمٌّ عديدةٌ. ولكن

يستحيل في الوقت الراهن البتُّ في هذا الموضوع.

الكلمات الأصلية

ـ ولكن ثمّة ألسنيّين يُدافعون بشراسةٍ عن فرضيّة وجود لغةٍ أمٍّ واحدةٍ، وعلى رأسهم الأميركيّ جوزيف غرينبيرغ (Joseph Greenberg) الذي توفي مؤخَّراً، فضلاً عن تلميذه ميريت روهلين (Merritt Ruhlen). . .

ـ تجدر الإشارة إلى أنَّ الألسنيِّين يُصنِّفون اللُّغات في فروعٍ وأُسَرٍ لغويّةٍ، فعلى سبيل المثال، إنَّ فرع اللُّغات الحاليّة المُشتقَّة من اللاتينيّة، ونعني بها الفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والبرتغاليّة والرومانيّة والرومانش ولغاتٍ أخرى عديدة، ينتمي إلى أُسرة اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة التي يرجع أصلها إلى 9 آلاف سنةٍ على الأرجح، والتي تضمّ إلى جانب اللُّغات المُشتقَّة من اللاتينيّة الآنفة الذكر اللُّغتَين الألبانيّة والأرمنيّة واللُّغات الجِرمانيّة والسلافيّة والسَّلتيّة ـ واليونانيّة والبلطيّة والهنديّة ـ الإيرانيّة. ولا يُجمع الألسنيّون الرأي حول عدد الأُسر اللُّغويّة في العالم، وثمّة تخمينٌ أوَّليّ صدَرَ عن موقع شبكة الإنترنت «Ethnologue» المُرتبط بمنظَّماتٍ أميركية إرساليّةٍ، يُقدِّر عدد الأُسَر اللُّغويّة بـ 107 أُسر، ما عدا اللغات الخاصة للمستعمرات (créoles). وقد تخصَّص غرينبيرغ (Greenberg) وروهلين (Ruhlen) بتصنيف أُسَر اللُّغات المُسلَّم بها في «أُسَرٍ كبرى» أقدم منها بكثيرٍ. وهكذا، لا يعترف روهلين إلاّ باثنتَي عَشْرة أُسْرةً كبرى تتحدَّر ـ على حدّ قوله ـ من لغةٍ أمٍّ عمرها 50 ألف سنةٍ فقط.

ـ لقد انتقلنا من 107 أسر لغويّةٍ إلى 12 أسرةً فقط! هذا إنجازٌ باهرٌ!

ـ يرتكز نجاح غرينبيرغ على تصنيفه لما يُناهِز الـ 1800 لغةٍ

أفريقيّةٍ في أربع أُسَرٍ لغويّةٍ كبرى، وهو تصنيفٌ يتمّ التسليم به اليوم بدرجاتٍ متفاوتةٍ. ومن ثمّ، قامَ غرينبيرغ بجمع اللُّغات التي يتكلّمها المواطنون الأصليّون في أميركا في ثلاث أُسَرٍ لغويّةٍ كبرى، كما جمَعَ الأُسَر اللُّغويّة المحكيّة في شمال أوراسيا كلِّها تقريباً (وتضمّ اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة، والأتروريّة (l'étrusque)، والأوراليّة (l'ouralique) ـ أي اللُّغتَين المجريّة والفِنلنديّة، والألطيّة (l'altaïque) ـ أي اللُّغات التركيّة والمنغوليّة والمانشوويّة (mandchou)، واليابانيّة، والكوريّة، والآينويّة (l'aïnou)، ولغة الأسكيمو، فضلاً عن لغاتٍ سيبيريّةٍ متفرِّقةٍ) في أُسرةٍ لغويّةٍ كبرى واحدةٍ، ألا وهي: الأوراسيّة (l'eurasiatique). وتتّصف هذه الأعمال كلُّها بطابعها المُتنازع فيه على نطاقٍ واسعٍ، ولكن تكمن فائدتها في أنَّها تطرح أسئلةً عديدةً.

ـ أعلى ضوء هذه الأعمال يقترح ميريت روهلين (Merritt Ruhlen) مُعجماً مُقتضباً يضمّ بعض مصطلحات اللُّغة البَدْئية الكليّة. . .

ـ أجل. فهو يعتبر أنَّه من الممكن العثور مجدّداً في مختلف لغات العالم على بعض كلماتٍ من اللُّغة الأمّ يكون التعديل الذي طرأ عليها طفيفاً.

ـ هل تستطيع أن تضرب لنا مثلاً على ذلك؟

ـ حسناً، فبحسب روهلين، إنَّ الرقم **واحد** (un) كما **الإصبع** (doigt)، كان يُسمَّى في اللُّغة الأمّ **تيك** (tik). أمّا الرقم **اثنان** (deux)، فكان يُسمَّى **پال** (pal). وكان يُقال **للرُّكبة** (genou) **بو(نـ)كا** (bu(n)ka)، **وللطفل** (enfant) **ماكو** (mako)، **وللماء** (eau) **أكوا** (aq'wa)، **وللأمّ** (mère) **أجا** (aja)، وللأفعال: **مصَّ** (sucer) **ورضَعَ** (téter) **وأرضعَ** (allaiter)، وكذلك **للنهدَين** (poitrine) **ماليكا** (maliq'a). . . ولاقتراح هذه الكلمات السَّلفيّة، عمَدَ روهلين إلى

مقارنة معجم مفردات اللُّغة الأساسيّ في لغاتٍ (langues) ولغاتٍ بدْئيّةٍ (Porto - langues) مختلفةٍ. ويَصلحُ معجم المفردات هذا كمنارةٍ تُرشِد الألسنيِّين، لأنّه الأكثر ثباتاً، وهو الذي يتمّ تعليمه منذ نعومة الأظافر، والذي يتمّ نقله عموديّاً من جيلٍ إلى الجيل التالي، وهو نادراً ما ينتقل أُفقياً أو بالعَرض من لغةٍ إلى أخرى. ويتألَّف على سبيل الذكر لا الحصر من الضمائر والأرقام (**واحد ـ اثنان ـ ثلاثة**) وأعضاء الجسم والعناصر الطبيعيّة (**الشمس والقمر والماء والسماء**) وبعض الأفعال (**ذَهَبَ وأتى ونامَ وماتَ**) وبعض المُفردات التي تدلّ على القُربى (**والدة وشقيق وشقيقة**)... إلخ. إنَّها مفاهيمُ كلّيةٌ ما من داعٍ على الإطلاق أن يتمّ اقتراضها من ثقافةٍ أخرى، وذلك بخلافً المفردات المعجمية التقنيّة والعلمية، من مثل: «web» (**شبكة الإنترنت**) ـ وهي كلمةٌ إنجليزية ـ، أو كلمة «Algèbre» (**الجبر**) وهي كلمةٌ من أصلٍ عربيٍّ.

«يون! (Yon!) وروش! (Roch!)»

ـ مع أنَّ اقتراحات غرينبيرغ وروهلين هي أبعد من أن تَلقى إجماعاً في أوساط الألسنيِّين.

ـ بسبب عيوبها ونقائصها! فبادئ ذي بدءٍ، يُقارن غرينبيرغ وروهلين كلماتٍ على أساس تشابهاتٍ في اللَّفظ من دون أن يكترثا لمسألة التطابقات الصوتية، وهو مفهومٌ سنتحدَّث عنه لاحقاً. والحال أنَّ كلمات تنطوي على المعنى نفسه قد تتشابه من لغةٍ إلى أخرى عن طريق المُصادفة المحضة، فمثلاً: إنَّ الضميرَين التاليَين: «mou» (= mon = **خاصّتي**) و«sou» (= ton = **خاصتك**)، الدالَّين على الملكيّة في اللُّغة اليونانيّة القديمة، يتطابقان تقريباً عن طريق المُصادفة المحضة مع الضميرَين الدالَّين على الملكيّة في اللُّغة التاروكيّة، وهي

لغةٌ أسترونيزيّةٌ عائدة إلى تايوان، ألا وهما: «mo» و «so». ومن جهةٍ أخرى، لا يتّصف معنى الكلمات في إطار أعمالهما بالدقّة دائماً. فمثلاً، يستند غرينبيرغ وروهلين في دراستهما الرامية إلى إعادة تشكيل كلمة **اثنان** (deux) على كلماتٍ تعني: **مزدوج** (double) **ونصف** (moitié) **وتؤأم** (jumeau). ولكنَّ ذلك يُدخِل هامشاً من الشكّ! والأمر نفسه ينطبق على كلمة **واحد** (un)، حيثُ شمل بحثهما بشأنها كلماتٍ من مثل: **إصبع** (doigt) **وسبَّابة** (index) **ووحيد** (seul). فلو كان معنى «واحد» يرتبطُ أنّى كان بلفظٍ من نمط «tik» (**تيك**)، فقد يكون ذلك مُشوّشاً. ومع كلّ هذا التنوُّع في المعاني، يكون من الأصعب علينا التسليم بهذه الفرضيّة. ولكن لا يجدر بنا برأيي أن نرفض هذه الأعمال برمَّتها دفعةً واحدةً **وأوّلياً**، بل علينا أن ننتظر إلى أن يُصار إلى طرحها بشكلٍ أكثر دقّةً.

ـ لا بدّ لنا من أن نعترفَ بأنَّ هذه النظريّة القائِلة بوجود لغةٍ أمٍّ وحيدة هي مغريةٌ جدّاً. فهل تعتقد أنَّ ذلك مردُّه إلى أنَّنا متأثّرون بواقعة برج بابل التي نقرأ عنها في التوراة؟

ـ ربَّما. فعلى مدى عصورٍ عديدةٍ، شكَّلت مُسلَّمة اللُّغة الأصليّة موضوع إجماعٍ في الغرب. وكان السؤال الوحيد المطروح يتناول مسألة معرفة هَذه اللُّغة الآدميّة (adamique) التي كان يتكلّمها آدم وأبناؤه حتّى حلول واقعة برج بابل الشهيرة، حين أنزَلَ اللّه عقابه على بني البشر جزاء كبريائهم، فمنعهم من الاتّحاد وفرّقَ بينهم من خلال مضاعفة عدد اللُّغات. وغالباً ما كان البحّاثون الواسعو المعرفة، من مثل القديس أوغسطين (Saint Augustin)، يؤكّدون أنَّ هذه اللّغة النموذجيّة المثاليّة الإلهيّة كانت اللُّغة العبريّة. ولكنَّنا رأينا في عصر النهضة بعض العلماء الألمانيّين يزعمون بأنَّ اللُّغة الأولى كانت حكماً جرمانيّةً، وعلماءَ فرنسيّين آخرين يجيبونهم بأنَّها كانت

قطعاً اللُّغة الغاليّة، زِد على هذا أنَّ الفكرة تلك قد ازدهرت في فضاءاتٍ أخرى غير فضاءات التقاليد التوراتيّة. ففي عهد ستالين (Staline)، كان الألسنيّ السوفياتيّ الرسميّ المدعو نيكولاي مار (Nikolaï Marr) يقول بالنظرية نفسها القاضية بوجود لغةٍ أصليّةٍ وحيدةٍ تتألَّف فقط ـ من وجهة نظره ـ من أربع كلماتٍ أحاديّة المقطع، تحدَّرت منها الكلمات الحاليّة، ألا وهي: «سال» («sal») و«بير» («ber») و«يون» («yon») و«روش» («roch»)!

ـ هل من أساطيرَ أخرى عن أصل اللُّغات تُحكى في بقاعٍ أخرى من العالم؟

ـ لستُ مختصّاً في هذا المجال، ولكن تقول الأسطورة التي يرويها هنود المايا كيشي (Maya-Quiché) في غواتيمالا، أنَّ الآلهة بعد أن خلقَت البشر شعرت بالخوف من قوَّة المخلوقات التي أوجدتها، فعمدت إلى بثِّ الفوضى على الأرض وجعلت لكلّ مجموعةٍ لغةً مختلفةً. ولسنا بعيدين عن رواية **سفر التكوين**، فبحسب هيرودوس (Hérodote)، أراد الفرعون بساميتيك الأوَّل (Psammétique I^er^) أن يُثبتَ في العصر السابع قبل عهدنا أنَّ أقدمَ لغةٍ بشريّةٍ كانت... اللُّغة المصريّة! ولإثبات ذلك، عهَدَ بمولودَين جديدَين إلى راعٍ ليُربِّيَهما مع عنزاته، واشترطَ عليه ألاَّ يلفظ مُطلقاً أيّ كلمةٍ على مسامعهما. وبعد أن أضناهما الجوع! كانت الكلمة الأولى التي نطقَ بها الولدان «békos» التي تعني **خبز** (pain) في لغة الفريجيِّين (Phrygiens)، فوَجَبَ على الفرعون، كما يروي لنا المؤرِّخ اليونانيّ، أن يخضعَ للأمر الواقع... وعلى ما يبدو كرَّر الإمبراطور فريدريك الثاني، من سلالة هوهنشتاوفن (Frédéric II de Hohenstaufen) في القرن الثالث عشر هذه التجربةَ، فربَّى أطفالاً رُضَّعاً في عزلةٍ قصوى مانعاً الحاضنات منعاً قاطعاً من التكلُّم معهم،

وكان يودُّ أن يعرف إذا كان هؤلاء الأولاد سيُعبِّرون باللُّغة العبريّة أو اليونانيّة أو اللاتينيّة أو العربيّة. . . أو ببساطةٍ بلغة ذويهم. ولكنّه لم يعرف مطلقاً، فلقد توفي هؤلاء الصِّغار المساكين كلُّهم!

المهد الأفريقيّ

ـ دعنا نعود إلى لحظة ظهور «الإنسان العاقل العاقل»، الذي كان يتكلّم إذاً لغةً واحدةً أو عدّة لغاتٍ. فما الذي نعرفه عن صيرورة هذه اللُّغات؟

ـ نعلمُ أنَّها تتنوَّع كلَّما ازداد عدد المجموعات وكلَّما افترقت هذه المجموعات إحداها عن الأخرى. إنَّها على أيّ حالٍ فرضيّةٌ يمكننا أن نقول بها من دون أن نُعرِّض أنفسنا لخطر ارتكاب الخطأ، إذ إنَّ مآل اللُّغات الطبيعيّ هو التطوُّر والتنوُّع، فبعد مضيّ ألفٍ أو ألفي سنةٍ، تتبدَّل اللُّغة نفسها المحكيّة في منطقتَين مختلفتَين لدرجة أنَّ متكلِّميها لا يفهمون كلام بعضهم البعض. هبْ مثلاً اللُّغة اللاتينيّة الإمبراطوريّة التي أُدخِلت إلى أوروبا منذ 2000 سنةٍ على يد جنود الجيوش الرومانيّة الذين أُعطوا أراضي في البلاد المحتلَّة كمكافأةٍ لهم على جهودهم. لقد انبثقت اللُّغات الفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والبرتغاليّة والرومانيّة التي نعرفها اليوم من هذه اللُّغة النِّظاميّة في البدء، وتَرجع بالطريقة نفسها «اللَّهجاتُ المحليّة» الصينيّة كلُّها (وسنسمِّيها لغاتٍ) إلى لغة سلالة هان (dynastie Han) التي كان يُتكلّم بها منذ 2000 سنة في شمال الصين، فبعد أن قام أتباع سلالة هان بغزو الجنوب، أدخلوا إليه لغتَهم التي تجزَّأت، شأنها شأن اللُّغة اللاتينيّة، فانبثقت عنها مروحةٌ من اللُّغات المحليّة الصينيّة الحديثة، من مثل: اللُّغة المندرينيّة واللُّغة الكنتونيّة ولغة مين ولغة هاكا. . . إلخ.

ـ في أوروبا، كما في الصين، استغرق الأمر ألفي سنةٍ قبل أن تتجزَّأ اللُّغات. فهل إنَّ سرعة تطوُّر اللُّغات هي بالتالي ثابتةٌ؟

ـ أبداً، على الإطلاق. إنَّ بعضها يتطوَّر ببطءٍ شديدٍ، فالأيسلنديّون اليوم لا يواجهون صعوباتٍ جسيمةً في قراءة «الساغا» (saga) التي تعود إلى القرن الثامن، أو على الأصحّ إنَّهم يواجهون صعوبةً تكاد لا تُذكَر مقارنةً مع تلك التي يواجهها الفرنسيّون عندما يقرأون نصّ الشعر الملحميّ الذي يحمل عنوان **أغنية رولان** (*La Chanson de Roland*)، والذي يرقى إلى القرن السابع. وبالعكس، لقد ألفى أسترونيزيّو غينيا الجديدة، الذين كانوا يقيمون على سواحل الجزيرة الشماليّة منذ أكثر من 3000 سنة، لغتَهم الموحَّدة تتجزَّأ في البدء إلى لغاتٍ غير مفهومةٍ بالتبادُل، بحيثُ إنَّها أصبحت تتشارك عدداً أقلّ من معجم المفردات الأساسيّ مقارنةً مع اللُّغات التايوانيّة التي انفصلت إحداها عن الأخرى منذ ما يُقارب الـ 5000 سنةٍ!

تثير أسباب هذا الاختلاف في سرعات التطوُّر اهتمام الألسنيّين كثيراً، وقد طُرحت اقتراحات عديدة بشأنها. وهكذا، إنَّ مجموعة سكانية صغيرةً، إنَّما حاشِدة، تكون على اتِّصالٍ بعدَّة لغاتٍ ولكن لا يكون لديها رغبةٌ بأن تفهمها، إما لأنَّها غير ميّالةٍ إيديولوجياً إلى المحافظة، أو لأنَّ لها بعض المحظورات لجهة استعمال بعض الكلمات (على غرار الكلمات الواردة في أسماء أشخاصٍ متوفَّين حديثاً)، تحظى بفرصٍ أكبر برؤية لغتها تتطوَّر سريعاً.

ـ ما هي الفرضيّات التي تستطيع أن تُفيدنا بها بشأن الطريقة التي تنوَّعت بموجبها اللُّغات في العصور السحيقة؟

ـ نفتقرُ بطبيعة الحال إلى مؤشّرات مباشرة، لأنَّ هذه الأحداث ضاربةٌ في القِدم، ممّا يحول دون قدرتنا على العثور على بقاياها في اللُّغات الحديثة. فنحن نعتمد على الاختصاصيِّين في دراسة تاريخ البشر،من مثل الأرخيولوجيِّين والاختصاصيِّين في علم الوِراثة. فالأرخيولوجيّون يكشفون النقاب عن الأحافير البشرية وعن الأدوات

التي يُمكننا تأريخها بغية إعادة رسم خطّ انتشار الشعوب البشريّة، فمن خلال معاينة تواترات الجينات وتوزيع طفراتها بين الشعوب الحاليّة، يتمكّن الاختصاصيُّون في علم الوِراثة من إعادة تشكيل تاريخ أجدادنا تشكيلاً جزئيّاً. واليوم، يقترح علينا هؤلاء الاختصاصيّون في دراسة تاريخ البشر السيناريو التالي: إثر بروز مَلَكة اللغة الحديثة لدى مجموعةٍ سكانية كانت أفريقيّةً بوجه الاحتمال، حصل التنوُّع الأوَّل الذي يتمثَّل في أيَّامنا هذه بالأُسَر اللُّغويّة النيجيرية ـ الكنغوليّة والخويسان (khoisan) والنيليّة الصحراويّة (nilo-saharienne)، وذلك قبل أن تخرجَ مجموعةٌ من أفريقيا لتستقرَّ في الشرق الأدنى منذ 100 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر. وما من لغةٍ حديثةٍ تُمثِّل هذه المجموعة الأولى من البشر التي تمّ التعرُّف على بقايا تعود لها في إسرائيل ومصر.

في الطريق باتِّجاه أميركا

ـ لقد أبصرت اللغة إذاً النور في أفريقيا بوجه الاحتمال، ومن ثمّ انتقلت إلى الشرق الأدنى. ما الذي حصل بعد ذلك؟

ـ يُقال إنَّه في ما بعد، انتقلَ فرعٌ جديدٌ من شمال شرق أفريقيا أو من الشرق الأدنى نازِحاً باتِّجاه الشرق بمحاذاة الساحل وصولاً إلى الهند أوّلاً ومن ثمّ إلى جنوب شرق آسيا ومنها توجَّه سالكاً طرقاتٍ بريّةً تغمرها المياه حاليّاً نحو أوستراليا وغينيا الجديدة اللّتَين كانتا متَّحدتَين منذ 50 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر. وتجدر الإشارة إلى أنَّه وَجَبَ على الإنسان أن يجتاز شَرْماً يبلغ طوله 80 كيلومتراً تقريباً، فمن المُرجَّح أنَّه استعانَ بالقوارب لفعل ذلك! ومن المرجَّح أن اللُّغات الحديثة المُوافِقة كانت لغات الفدِّيين (Veddas)، وهم أهل سيلان الأصليون، ولغات سكَّان جزر أندَمان الأصليّين، ويستبعِد

الكثيرون دائِماً أنَّه كان لهؤلاء أيّ اتِّصالٍ بالحضارة، فضلاً عن لغات الپاپويِّين (papoues) في غينيا الجديدة، ولغات الأبوريجيِّين (Aborigènes) الأوستراليِّين... ومن المُرجَّح أيضاً أنَّ مجموعةً ثالثةً منطلقةً كذلك من شمال شرق أفريقيا أو من الشرق الأدنى، إنَّما في وقتٍ لاحقٍ ربَّما، قد أدَّت إلى نشوء سائِر اللُّغات الحديثة. ومن الممكن أنَّها أوغلَت باتِّجاه الشمال في عُمق أوراسيا، فاستقرَّ فرعٌ غربيٌّ في أوروبا حيثُ عثرنا على أوّل آثار البشر الحديثين بعد 40 ألف سنة قبل الزمن الحاضر، وممثِّله الحديث الوحيد قد يكون اللُّغة الباسكيّة. في حين امتدَّ فرعٌ آخر باتِّجاه الشرق، ومن المحتمل أن يكون قد اخترقَ آسيا عن طريق شمال جبال الهَمَلايا.

ـ هذا في ما يختصُّ بالعالم القديم. ولكن ماذا عن أميركا؟

ـ أمّا بالنسبة إلى أميركا، فلقد قطنَتها في فترةٍ متأخِّرةٍ قليلاً مجموعاتٌ حيويةٌ آسيويّة عَبَرت ربَّما مضيق بيرينغ (détroit de Béring) الذي لم يكن مغموراً حينها بالمياه أم أنَّها أبحرت بالسُّفن عبر سلسلة جزر ألوشن (Aléoutiennes). إنَّ التاريخ 12 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر، الذي يرمز إلى تاريخ أوَّل نزوح إلى أميركا (إذ ثمّة العديد من النزوحات باتِّجاهها)، والذي تمّ الأخذ به لفترةٍ طويلةٍ، يُشكِّل اليوم موضوعاً متنازعاً فيه على نطاقٍ واسعٍ، ويضعه الأرخيولوجيّون ـ وكذلك الألسنيّون ـ في دائرة الشكّ، نظراً إلى التنوُّع الكبير الحاصل في اللُّغات الأمَرنديّة (أي الهنديّة الأميركيّة). وعليه، من الممكن أن يكون النزوح قد وقعَ في فترةٍ أقدم بكثيرٍ من هذا التاريخ، أي في فترةٍ ترقى إلى 40 ألف أو 30 ألف سنةٍ قبل الزمن الحاضر.

ـ الأمر بسيطٌ في الواقع، فإنْ أجدتُ الفهم، لقد تبعَ التنوُّع في اللُّغات ترسيمة انتشار المجموعات السكانية البشريّة...

ـ تقريباً... شرط طبعاً أن تكون الترسيمةُ صحيحةً، وأن يكون ثمّة لغةٌ أمٌّ وحيدة. ففي الثمانينيّات، اقترَحَ اختصاصيٌّ في علم الوِراثة من جامعة ستانفورد (Stanford) يُدعى لوكا كافالي ـ سفورزا (Luca Cavalli-Sforza)، أنَّه كان ثمّة تقاربٌ بين شجرة عائِلة المجموعات السكانية البشريّة وبين الأُسَر اللُّغويّة الكبرى التي اقترحها روهلين وغرينبيرغ. وكان هذا التقارب أبعد من أن يكون كاملاً، فعلى سبيل المثال: كان صينيّو الشمال يُشبهون كثيراً المغوليِّين والكوريِّين واليابانيِّين على الصعيد الوِراثيّ، بينما كان صينيّو الجنوب يُشبهون بالأحرى مجموعاتٍ سكانيةً من مثل التايلنديِّين والأسترونيزيِّين. ونملك اليوم دراساتٍ مفصَّلةً أكثر تسمح لنا بأن نُبيِّن بشكلٍ ملحوظٍ الفروق الدقيقة في اقتراحات كافالي ـ سفورزا. مع أنَّه صحيحٌ تماماً أنَّ الحدود الوِراثيّة واللُّغويّة تتطابق تطابقاً لا بأس به في بعض مناطق العالم على الأقلّ، ففي غينيا الجديدة مثلاً، لا يزال باستطاعتنا أن نفرّق المجموعات السكانية الناطقة باللُّغات الأسترونيزيّة، والموجودة كما رأينا منذ أكثر من 3000 سنةٍ في الجزيرة، عن تلك الناطقة باللُّغات الپاپويّة والموجودة منذ عهدٍ أقدم بكثيرٍ. وكذلك، برهنت زميلتي أليسيا سانشيز ـ مازاس (Alicia Sanchez-Mazas) وجود ارتباطٍ متبادلٍ صارخٍ في أفريقيا بين الحدود اللُّغويّة وتوزيع نظامٍ دموي وِراثي يُعرَف بأسم (GM).

انقراضٌ زُؤافٌ...

ـ ولكن يبدو ذلك بمنتهى الغرابة، إذ إنَّ اللُّغات لا تكون منوطةً بالجينات، كما سبق وأخبرتنا.

ـ أنتِ على صوابٍ. فلقد خلَّفت هذه الأفكار في البداية صدمةً كبيرةً في نفوس جماعة الألسنيِّين باعتبار أنَّها تنتهك محرَّماً. وبما أنَّ علم الوِراثة لا يمتّ بصلةٍ لنقل الثقافات، فإنَّ ربط الجينات باللُّغات

كادَ أن يُلامِس العنصريّة! بيد أنَّ اللُّغات والجينات تعكِسُ، جزئياً على الأقلّ، القصّة نفسها، أي قصّة انتشار البشر على سطح المعمورة. وأسوةً بالجينات، تُتَوارَثُ اللُّغات من جيلٍ إلى آخر. زِد على أنَّه سبق لتشارلز داروين أن نوَّه في كتابه **ذريّة الإنسان** (*La Descendance de l'homme*) بالتماثُل القائِم بين تطوُّر الأجناس وتطوُّر اللُّغات. وبطبيعة الحال إنَّ اللُّغات، خِلافاً للجينات، تتطوَّر عن طريق الاتِّصال والاحتكاك على حدٍّ سواء، فسرعان ما أن تتلاقى المجموعات السكانية حتَّى تعمدَ إلى تبادل الكلمات والسمات النحويّة. وهكذا مثلاً، تحتوي اللُّغة الفرنسيّة على العديد من الكلمات المتحدِّرة من لغاتٍ أخرى، ونذكر منها: كلمة **جنديّ مشاة** (fantassin)، الآتية من الإيطاليّة، وكلمتَي **ردنغوت** (redingote)، **وسفينة نقل** (paquebot) من الإنجليزية، وكلمة **قهوة** (café) من العربية، وكلمة **حرب** (guerre) من الجرمانيّة، وكلمة **شارب** (moustache) من اليونانيّة، وكلمة **بنطال** (pantalon) من الفينيسيّة، وكلمة **ذبابة** (moustique) من الإسبانيّة، وكلمة **كشك** (Kiosque) من التركيّة، وكلمة **شاي** (thé) من الصينيّة، وكلمة **شوكولا** (chocolat) من الأزتكيّة... إلخ. ويعي الألسنيّون الذين يعملون على وضع نِسابة اللُّغات حالات الاقتراض اللُّغوي هذه، ويركِّزون اهتمامهم على العناصر التي قلّ ما يُصار إلى اقتراضها لغويّاً. وينبغي ألاّ يغيب عن بالنا أنَّ تسعة أعشار تاريخ البشرية ـ أي بالتالي اللُّغات ـ حصَلَ في حقبةٍ كان فيها عديد البشر قليلاً جدّاً والاحتكاك بين اللُّغات نادراً للغاية، ولا يدعو بالتالي للدهشة واقعُ أنَّنا لا زلنا نعثر على آثار تطوُّرٍ متوازٍ، حتَّى وإنْ خلَط العصر الحجريّ الحديث الأوراق كثيراً.

ـ ما الذي حدَثَ؟

ـ أدَّى اكتشاف الزراعة إلى اندثار بعض ـ بل آلاف ـ اللُّغات، بينما لاقت لغاتٌ أخرى، أيْ لغات المزارعين الأوائل، نجاحاً حقيقيّاً

وتنوَّعت بكثرةٍ. وباعتبار أنَّ هذه اللُّغات باتت تُحكى على لسان مجموعاتٍ سكانية يفوق عددها وبأشواطٍ بعيدةٍ عدد تلك التي كانت تنطق بها في الحقبة السابقة، فقد أصبحت على اتِّصالٍ أشدّ وأمضى إحداها مع الأخرى، وتبادلت المفردات وقواعد اللُّغة بوتيرةٍ أكثر ثباتاً.

- هل المقصود بذلك أنَّ العصر الحجريّ الحديث قد شكَّل أولى موجات الانقراض اللُّغويّ في تاريخ البشريّة؟

- بالضبط. ويُقدَّر عدد البشر لدى حصول ثورة عصر الحجر الحديث بين 5 و 9 ملايين نسمةٍ في أرجاء المعمورة قاطبةً، أي بالكاد عدد السكَّان الذين يقطنون اليوم في منطقة إيل دو فرانس (Ile-de-France)! وكان هؤلاء الصيّادون القطّافون يتكلَّمون مئات، لا بل آلاف اللُّغات! ويمكننا أن نتصوَّر أنَّ الوضع ما قبل العصر الحجريّ الحديث كان شبيهاً إلى حدٍّ بعيدٍ بالوضع الذي نشهده اليوم في هضاب غينيا الجديدة العليا. ففي هذه الجزيرة الواقعة في شمال أوستراليا، نُسجِّل لمجموعةٍ من السكَّان مؤلَّفةٍ من 4,5 مليون نسمةٍ تنوُّعاً لغوياً استثنائيّاً بالتأكيد، إذ يبلغ عدد اللُّغات أكثر من 800 لغةٍ! وتُستخدم غالبيّتها من قِبل أشخاص يقلّ عددهم عن الألف نسمةٍ. وبالفعل اعتاشَ الپاپويّون (Papous) في غينيا الجديدة حتّى عهدٍ قريبٍ من الصيد والجنى، إلى جانب زراعة القُلقاس على نطاقٍ ضيّقٍ، إنَّما في ظلّ غياب زراعة الحبوب التي تسمح فعلاً بنموّ المجموعات السكانية.

على الطريقة الزراعيّة

- يعني ذلك أنَّه مع اكتشاف الزراعة، ولا سيَّما مع تدجين زراعة الحبوب، زادت الديموغرافيا البشرية وتبدَّل ميزان القوى بين اللُّغات.

ـ بالضبط. لقد تمّ إحصاء 250 مليون كائنٍ بشريٍّ في مطلع عصرنا. فلقد تمّ اكتشاف الزراعة بشكلٍ شبه متزامنٍ في عدّة أماكن في العالم، بحيثُ إنَّها ترقى في الشرق الأدنى إلى 12 ألف سنةٍ، وإلى 10 آلاف سنةٍ في الصين، وتحديداً في وادي نهر يانغتسي، المعروف قديماً بالنهر الأزرق، وإلى عهدٍ أحدث بقليلٍ في أميركا الجنوبيّة. وقد تبدو هذه التزامنيّة التاريخيّة مدهشةً، ولكنَّها ثمرة الاحترار المناخيّ الذي حدثَ في أواخر العهد الجليديّ، وليست نتيجة التوارث الثقافيّ من قارةٍ إلى أخرى. وباعتبار أنَّ الحبوب والمواشي تسمح بتأمين الطعام لعددٍ أكبر من الناس مقارنةً مع لحم طرائِد الصيد والفواكه، فقد تكاثرت مجموعات المزارعين السكانية بشكلٍ سريع بما فيه الكفاية، وعرفت هي ولغاتها انتشاراً واسعاً، بينما نزعت لغات الصيّادين القطّافين إلى الاندثار، لأنَّ السكّان الذين كانوا يتكلَّمونها لم يعد بإمكانهم العيش في مناطقَ مستصلحةٍ زراعيّاً، ممّا اضطرَّهم إلى الالتجاء إلى الروابي والجبال أو حتَّى إلى النزوح. وكلَّما ازداد المجال الذي يشغله المزارعون اتّساعاً، كبُرَ شأنُهم الاقتصاديّ وقد انتهى المطاف بمتكلّمي لغات العصر الحجريّ القديم إلى التخلّي عنها والتكلُّم فقط بلغة المزارعين الذين انتشر نمط حياتهم الجديد في العالم بأسره، ما خلا في غينيا الجديدة وأوستراليا وبعض مناطق أميركا وأفريقيا كما سبق أن ذكرنا.

ـ إذاً، لقد أدّى نموّ مجموعات المزارعين السكانية إلى حصول حدثٍ لغويٍّ مزلزلٍ حقّاً . . .

ـ هذا أمرٌ محتملٌ جدّاً. فأنا أعتقد مثلاً أنَّ اللُّغة السَّلفيّة المشتركة التي تحدَّرت منها اللُّغات الصينيّة ـ التيبيتيّة (أي اللُّغة المندرينيّة والكنتونيّة والتيبيتيّة والبورميّة. . . إلخ) واللُّغات الأوستراليّة

الآسيويّة (أي اللُّغة الفييتناميّة ولغة الخمير... إلخ) واللُّغات الأسترونيزيّة (أي اللُّغات المحكيّة كلّها في أندونيسيا وبولينيزيا ومدغشقر)، كانت لغةً يتكلّمها على طول نهر يانغتسي مزارعو الأرزّ الأوائل، الذين دجّنوا زراعة الأرزّ في الصين في هذا الوادي تحديداً على بعد بضعة مئات من الكيلومترات أعلى من تشنغهاي، أي على الحدود الشماليّة لمجالها الطبيعيّ. وليس ذلك وليد الصدفة، إذ باعتبار أنَّ الظروف المناخيّة قد جعلت من جمع الأرزّ البريّ أمراً صعباً، بحيث دفعت تبدُّلاتٌ طفيفةٌ في المناخ بالبشر إلى زراعته بغية تأمين مؤونتهم بشكلٍ أفضل في السنوات القارسة البرد، وبعد أن تحسَّن كثيراً نظام غذاء مجموعات زارعي الأرزّ السكانية، ازداد عددها، وما لبثت أن بدأت بالانتشار، ولا سيَّما باتِّجاه الشمال، فوصلت إلى منطقةٍ أكثر جفافاً، حيثُ كان من الأصعب أن ينبت الأرزّ، فاحتاجت عندئذٍ إلى نوعٍ مساعِدٍ من الحبوب، ألا وهو الذرة البيضاء، ما أدّى إلى حصول تفَجُّرٍ ديموغرافيٍّ ولغويٍّ ثانٍ نشأ عنه برأيي فرعٌ من هذه الأُسرة اللُّغوية الكبرى يضمّ اللُّغات الأسترونيزيّة والصينيّة التيبيتيّة.

ـ ما هو السيناريو الذي يُمكننا تصوُّره بالنسبة إلى ما جرى في قارة أوروبا؟

ـ إنَّه من النمط نفسه في ما يتعلَّق باللُّغة الهندية الأوروبيّة، مع أنَّ الأصل الذي تتحدَّر منه لا يزال متنازعاً عليه، ولكنَّنا سنتحدَّث عن هذا الموضوع لاحقاً، فعلى الأرجح يرقى أصلها إلى لغةٍ كان يتكلَّمها القرويون في جنوب هضبة الأناضول، حيثُ تمّ تدجين القمح منذ 11 ألف أو 12 ألف سنةٍ خلَت. وإنَّ أوَّل لغةٍ انفصلت عن الجذع المشترك (بعد انقضاء فترةٍ طويلةٍ على تدجين القمح) كانت اللُّغة الحثيّة، وهي إحدى لغات هضبة الأناضول. ومن ثمّ واصل

المزارعون انتشارهم باتّجاه الشرق وصولاً إلى شمال شرق الصين الحاليّة، ومعهم اللُّغة التوخاريّة (tokharien) المعروفة في النصوص البوذية، واتّجهوا أخيراً نحو أوروبا وإيران وشمال الهند. وفي أوروبا، قضى توسُّع اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة على اللُّغات الأقدم منها، على غرار اللُّغة الأتروريّة، أو اللُّغات الإيبيريّة، التي احتفظنا بآثارٍ عنها، إلاّ أنّها اضمحلَّت تماماً وزالت، ما خلا غرب جبال البيرينيه (Pyrénées)، حيثُ أمَّنَ لها هذا التضريس نوعاً من الحماية، فصمَدَ العنصر السَّلفيّ في اللُّغة الباسكيّة.

ـ أيعني ذلك أنَّ اللُّغة الباسكيّة هي لغةٌ من العصر الحجريّ القديم!

ـ إنَّها الفرضيّة الفضلى. فالأصل الذي تتحدَّر منه اللُّغة الباسكيّة مكتنفٌ بالغموض. إنَّها لغةٌ «انعزاليّة»، كما يصفها الألسنيّون، فهي لغةٌ لا تُشبه أي لغةٍ أخرى. ولقد صدرت فرضيّاتٌ عديدةٌ في محاولةٍ لربطها بأُسرةٍ لغويةٍ أو بأخرى، إنَّما الفرضيّة المعقولة أكثر من غيرها هي تلك القائِلة بأنَّ اللُّغة الباسكيّة هي في الواقع اللُّغة التي تحدَّرت من لغاتٍ كانت تنطق بها المجموعات السكانية التي عاشت في العصر الحجريّ القديم، والتي خلَّفت لنا كهوف لاسكو (Lascaux). وعليه، تكون هذه اللُّغةُ اللُّغةَ الوحيدة الناجية في أوروبا من موجة الانقراض اللُّغويّ الكبير الذي حصل في العصر الحجريّ الحديث.

الفصل الثاني

انفجار العصر الحجريّ الحديث

الأُسَر التي أُعيد تشكيلها

- ها نحن قد وصلنا إلى التشوُّش اللُّغويِّ الذي حصل في العصر الحجريّ الحديث. فما الذي نعرفه عن اللّغات المحكية في تلك الحقبة؟

- يُمضي عددٌ كبيرٌ من الألسنيِّين وقتهم في محاولة. . . إعادة عقارب الساعة إلى الوراء! فهم يقارنون اللُّغات لمحاولة تحديد روابط القرابة بينها وجمعِها في أُسَرٍ لغويّةٍ أو أُسَرٍ لغويّةٍ ممتازةٍ وإعادة بناء شجرة عائلتها، كما أنَّهم يحاولون أحياناً أن يعيدوا بناء اللُّغات البَدْئيّة، أي اللغات البائِدة التي سلفت الأُسَر اللُّغويّة المختلفة. وبقدر ما تتَّصف الأعمال الهادفة إلى العثور على مخلَّفات اللُّغة الأمّ المزعومة بطابعها النظريّ، تتَّصف في المقابل تلك التي يتمّ إنجازها منذ أقلّ من 10 آلاف سنة تقريباً بهدف إعادة بناء اللُّغات المحكيّة بطابعها الثابت بما فيه الكفاية. وبتنا اليوم نملكُ ما يكفي من الخبرة لتحديد التشابه الوِراثيّ القائِم بين اللُّغات ولإعادة بناء اللُّغة المُشتركة التي سلفتها.

ـ يُنسَب تصنيف اللُّغات الحديث إلى وليام جونز (William Jones)، وهو رجل قانون إنجليزي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، هل هذا صحيحٌ؟

ـ تماماً. إنَّ وليام جونز هو ابن عالم بالرياضيات ذائع الصيت، كما أنَّه يعرِفُ لغاتٍ عديدةً، إذ إنَّه يتكلَّم 13 لغةً بطلاقةٍ ويتدبَّر أمره في 28 لغةً أخرى! فهو يُتقن بطبيعة الحال اللُّغات الكلاسيكيّة، أي اللّغات اللاتينيّة واليونانيّة والعبريّة، ولكنَّه ملمٌّ أيضاً باللُّغات العربيّة والفارسيّة، ولا سيَّما السنسكريتيّة التي كان يتكلَّمها البَراهِمة في ما مضى، والتي درسها عندما كان في الخدمة في مدينة كَلكوتا (Calcutta). وفي رسالةٍ شهيرةٍ وجَّهها إلى الجمعيّة الآسيويّة البنغاليّة (la société asiatique du Bengale)، أكَّد جونز أنَّ اللُّغات السنسكريتيّة واللاتينيّة واليونانيّة تتشارك خاصيّاتٍ مشتركةً جمّةً، لدرجة أنَّ التفسير الوحيد الذي يُمكن إعطاؤه لتبرير ذلك، وليس من حلٍّ آخر سواه، هو أنَّ هذه اللُّغات تتحدَّر من أصلٍ مشتركٍ. ويُردف قائلاً إنَّ هذه اللُّغات الثلاث مرتبطةٌ كذلك باللُّغة الفارسيّة وباللُّغات السَّلتيّة واللُّغة القوطيّة، وهي لغة القوطيِّين والقوطيِّين الغربيِّين. ومذ ذاك تطوَّرت دراسة أُسرة اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة وعملية إعادة بناء اللُّغة البَدئيّة الهندية الأوروبيّة تطوُّراً كبيراً، شأنها شأن دراسة لغاتٍ بدئيةٍ أخرى من مثل لغة البانطو البَدْئيّة واللُّغة الساميّة البَدْئيّة واللُّغة الأسترونيزيّة البَدئيّة. . . إلخ. ونعلمُ في حالاتٍ أخرى أنَّ بعض اللُّغات تُشكِّل أصلاً أسرةً لغويّةً ولكنَّنا ما زلنا نفتقر إلى أيّ إعادة بناءٍ لها، على غرار: اللُّغات الصينيّة ـ التيبيتيّة واللُّغات الأوستراليّة ـ الآسيويّة (كاللُّغة الكمبوديّة واللُّغة الفييتناميّة. . . إلخ).

ـ كيف نعمدُ إلى إدراج لغاتٍ في أسرةٍ لغويةٍ واحدةٍ؟

ـ نركُنُ إلى التشابهات القائِمة بينها، والتي يُعزى وجودها إلى

أسبابٍ ثلاثة، ألا وهي: **أوّلاً**، بفعل وِراثة لغةٍ سلفيّةٍ مشتركةٍ؛ **وثانياً**، عن طريق الاقتراض اللُّغوي المُتبادَل؛ **وثالثاً**، بمحض المصادفةِ. وتكمن الصعوبة في التمييز بين هذه الحالات الثلاث، أي بالتالي في استبعاد الاقتراض اللُّغويّ والمُصادفات. ولقد سبق لنا أن رأينا حالة اللُّغتَين اليونانيّة والتاروكيّة (taroko) اللّتَين تتطابق فيهما، عن طريق المصادفة، صيغتا الضميرَين الدّالَّين على الملكية، وهما **خاصّتي** (mon) **وخاصّتك** (ton)، تطابقاً تامّاً. وتتشابه بفعل المُصادفة أيضاً عدَّة أرقام في اللُّغات الأسترونيزيّة واللُّغات الهندية الأوروبية تشابهاً قويّاً. فبالنسبة إلى الرقم **اثنان** (deux) مثلاً، يُقال له في اللُّغة السنسكريتيّة **دفا** (dva)، وفي اللُّغة الماليزيّة **دوا** (dua). وسنة 1841، لم يُدرك فرانز بوب (Franz Bopp)، وهو أحد روَّاد الألسنيّة الهنديّة - الأوروبية، أنَّ هذه التشابهات كانت وليدة المصادفة، وخالَ أنَّ أواصرَ قربى وثيقةٍ كانت تربط اللُّغة الماليزيّة وسائر اللُّغات الأسترونيزيّة باللُّغة السنسكريتيّة. ولذلك يشترِط الألسنيّون، وذلك بهدف تلافي الوقوع في الفخّ، أن تُظهِرَ ثنائيّات الكلمات التي تُقدَّم كدليلٍ على وجود قربى وِراثيّةٍ بين لغتَين، تطابقاتٍ منهجيّةً على مستوى الأصوات التي تؤلِّف هذه الكلمات. وإنْ أبقينا على المثل الذي ضربناه أعلاه، ينبغي بالتالي أن يكون الصوت اللغوي «d» في اللُّغة السنسكريتيّة مُطابقاً للحرف «d» في اللُّغة الماليزيّة في إطار سلسلةٍ كاملةٍ من ثنائيّات الكلمات التي تنطوي على المعنى نفسه. والأمر عينه ينطبق على الصوت اللغوي «v» في اللُّغة السنسكريتيّة والصوت اللغوي «u» في اللُّغة الماليزيّة، فضلاً عن الصوت اللغوي «a» الخاصّ باللُّغة السنسكريتيّة والصوت اللغوي «a» الخاصّ باللُّغة الماليزيّة، بحيثُ يكون كلُّ صوتٍ في أيّ ثنائيّةٍ مؤلَّفةٍ من كلمتَين يُفترَض أنّهما موروثتان من لغةٍ سلفيّةٍ مُشتركةٍ، قابلاً للتفسير بمقتضى هذه التطابقات.

ـ إنَّ الأمور توغِل في التعقيد...

ـ لن أدخل في شرح التفاصيل. ولنقلْ إنَّنا في حال اتَّبعنا هذا الإجراء بعنايةٍ، نستطيع أن نستبعد بسهولةٍ نسبيَّةٍ التشابهات العرَضيّة. بيد أنَّ ثمّة صعوبة أخرى، وهي أنه من الممكن أن تكون بعض التشابهات غير العَرَضيّة ناجمةً عن الاقتراض اللُّغويّ. وبالتالي، نحتاجُ إلى معيارٍ آخر يؤمِّنه لنا معجم المفردات الأساسيّ. فنظراً إلى أنَّه من العسير أن يُصار إلى اقتراض هذا الأخير لغويّاً، نتوقَّع أن نعثرَ على كلماتٍ كثيرةٍ منه بين لغتَين متحدِّرتَين من لغةٍ سلفيّةٍ مشتركةٍ، وعلى كلماتٍ قليلةٍ منه في حال كانت التشابهات ناجمةً عن الاقتراض اللُّغوي. وهكذا، استطاع الألسنيّ الأميركيّ بول بينيديكت (Paul Benedict) أن يُبرهِن أنَّ الكلمات العديدة المُشتركة بين اللُّغتَين التايلنديّة والصينيّة كانت تصبُّ في خانة الاقتراض اللُّغوي، بالرَّغم من وجود التطابقات اللَّفظيّة (ذلك لأنَّ معجم المفردات الأساسيّ كان ضعيف التمثيل بينهما).

«تشي كي بوم»

ـ ولكن كيف السبيل إلى الانتقال من مرحلة تصنيف اللُّغات بحسب درجة القربى اللُّغويّة إلى مرحلة إعادة بناء اللُّغة السَّلف التي تحدَّروا منها؟

ـ يتمّ ذلك بفضل الأدوات والتقنيات التي ابتكرها الألسنيّون على مرّ العقود، فأثناء القرن التاسع عشر، حقَّقَ الباحثون اكتشافاتٍ على جانبٍ من الأهميّة، إذ إنَّهم أدركوا أنَّ اللُّغات تتطوَّر تطوُّراً منتظماً وليس على نحوٍ فاقِد النظام، وأدركوا بالتالي إمكانية العودة بالزمن من خلال تعقُّب التبدُّلات. وهكذا، فإذا ما انقلبَ الصوت اللغوي «s» في اللُّغة الفرنسيّة إلى حرف «h»، نُلاحِظ أنَّ الأصوت

اللغوية «s» كلّها في الكلمات جميعها أو الأصوت اللغوية «s» التي تظهر في موضوع معيَّنٍ (سواء في مستهلّ الكلمات أو في آخِرها، أو أيضاً تلك التي يلِيها صائت معيَّنٌ)، ستستحيل أحرف «h». وبطبيعة الحال، لا يحصل هذا النمط من التعديلات بين ليلةٍ وضحاها، بل إنَّه يُنجَزُ بانتظام ومن دون أيّ استثناءٍ تقريباً. ولوحِظَ بالإضافة إلى ذلك أنَّ التبدُّلاتَ اللَّفظيّة في اللُّغات مُقَولبةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ. فلنعاين مثلاً حالات تبدُّلات الأحرف الصائِتة، حيثُ نجد أنَّ «a» ينقلبُ في أغلب الأحيان إلى «é» أو إلى «o»، وغالباً ما يستحيل الصوت اللغوي «é» إلى «i»، ويتطوَّر غالباً الصوت اللغوي «o» ليُعطي «ou»، ويغدو الصوت اللغوي «ou» إلى «u». . . إلى ما هنالك. كانت هذه لمحةً عن التطوُّرات الشائعة. ولكن نادراً ما تتمّ الأمور في الاتِّجاه المُعاكِس، إذ لا ينقلب الصوت اللغوي «i» إلى «u» إلاّ في ظلّ ظروفٍ خاصّةٍ جدّاً. ويتحوَّل الصوت اللغوي «k» المتبوع بـ «i» إلى «tch»، إنَّما لا يستحيل الصوت اللغوي «tch» في حال كان متبوعاً بـ «i» إلى «k» إلاّ في حالاتٍ استثنائيّةٍ. ونستطيع من خلال مقارنة اللُّغات البنات التي تُقدِّم جميعها من حيثُ المبدأ تطوُّراتٍ منتظمةً انطلاقاً من اللُّغة الأمّ التي تحدَّرت منها، أن نوجِدَ فرضيّاتٍ مبنيَّةً بشكلٍ جيِّدٍ حول اللَّفظ في هذه اللُّغة السَّلفيّة. فمثلاً، إذا ما طالعنا في لغتَين شقيقتَين وفي الكلمة عينها، الصوت اللغوي «tchi» في الأولى والصوت اللغوي «ki» في الأخرى، نستطيع أن نفترِضَ أنَّ هذه الكلمة كانت تُلفَظ وفق «ki» في اللُّغة الأمّ.

ـ يكاد هذا الانتظام يكون أجمل من أن يُصدَّق. . .

ـ يُمكننا تفسيره بمنتهى السهولة. إنْ كانت أصوات الكلام تتبدَّل غالباً في الاتِّجاه نفسه، فمردُّ ذلك إلى واقع أنَّنا نستخدم جميعاً أجهزة النطق نفسها والعضلات نفسها والعِظام نفسها والجهاز العصبيّ

نفسه للتحكُّم بها. وباختصارٍ، إنَّنا نخضع للضغوطات الآليّة والفيزيولوجيّة نفسها. وإنَّ تفسير تطوُّر الصوت «ki» («كي») إلى «tchi» («تشي») سهلٌ للغاية، فعندما نلفظُ الحرف الصامت «k» («الكاف») يكون ظَهر اللّسان مُستنداً إلى الغَلصمة، ومن ثمّ يتقدَّم ظهر اللّسان بغية النُّطق بـ «i»، ولكن إذا ما استبقَ لسانُنا كثيراً وضع «i»، فمن شأن ذلك أن يُعطي الصوت «tchi» («تشي»). وعموماً ما من شواذاتٍ في تبدُّلات الأصوات (بالرَّغم من ضرورة إظهار الفوارق الدقيقة في هذا التأكيد، إلاّ أنَّ مبدأه العامّ لا يزال قائِماً). ويندرج هذا الأمر في خانة الاكتشافات الأساسيّة التي سجَّلتها الألسنيّة في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتّى وإنْ كان لا يزال البعض يتناقشون بشأن إواليتها الدقيقة.

ـ هل نلاحظ نمط الانتظام نفسه على مستوى بُنية اللُّغة، أي قواعدها النحويّة؟

ـ بطريقةٍ ما، نعم. فلنأخذ صيغة نفي الأفعال الفرنسيّة، التي تتشكَّل عبر وضع أداة **النفي** «ne» قبل الفعل، وأداة النفي الثانية «pas» بعده. إنَّ هذا التركيب الشائع الاستعمال في اللُّغة الفرنسيّة المكتوبة قد اختُصِرَ في اللُّغة الفرنسيّة المحكيّة، بحيثُ سقطت الأداة «ne» ولم يتمّ الإبقاء إلاّ على الأداة «pas» (على غرار: «أنا لا أعرِف» («j'sais pas») و«لا يريد ذلك» («il en veut pas») و«لا تذهب» («t'y vas pas»)). وقد طُبِّق هذا التبسيط بغضّ النظر عن الفعل، بحيثُ سقطت الأداة «ne» حيثما كان. وفي الواقع، ثمّة ما يُشبه انتظام التغيُّرات الصوتية في هذا الصدد. إذ إنَّ تطوُّر قواعد اللُّغة يتبعُ كذلك في أغلب الأحيان دروباً مرسومةً بإتقانٍ (ويتحدَّث الألسنيّون عن «تقعيدٍ لغويٍّ») تُفضي إلى خلق كلماتٍ نحويةٍ جديدةٍ. بما أنَّ الكلمات النحوية اليوم تنبثق عادةً عن كلماتٍ كانت تنطوي

في ما مضى على معنى ناجزٍ. فعلى سبيل المثال، تتشكَّل في لغاتٍ عديدةٍ صيغةُ المستقبل القريب للأفعال بواسطة كلماتٍ نحويةٍ مشتقَّةٍ من فعل «aller» («ذهَبَ»). فيُقال في اللُّغة الفرنسيّة: «elle va venir» (إنَّها على وشك الوصول)؛ أمّا في اللُّغة الإنجليزية، فيُقال: «she's going to come».

شعراء وجزَّارون

- الأمر الذي يفضي إلى تعديل معجم المفردات...

- غالباً ما تتبدَّل معاني الكلمات ويُطالعنا كذلك في أغلب الأحيان شبه صارخٍ في علم الاشتقاق من لغةٍ إلى أخرى. فعلى سبيل المثال، يتحدَّر اسم القمر في العديد من اللُّغات من كلمةٍ تعني «متلألئ» («brilliant»)، كما تُشتقُّ الكلمة التي يُراد بها قول «غداً» من كلمةٍ تعني «صباح». وتتحدَّر مراراً أسماء الحيوانات الداجِنة البالغة من اسم صغير الحيوان. وهكذا مثلاً كانت كلمتا **خنزير** (cochon) **ودجاجة** (poulet) تدلاّن في البداية على الخِنَّوْص (porcelet) وعلى الفرّوج الصغير (jeune poulet). وبحسب هودريكور (Haudricourt)، يُعزى سبب ذلك إلى أنَّ الجزّارين كانوا يسعون إلى الترويج للحم الحيوان البالغ على نحوٍ يحسبه فيه الناس أطرى ممّا هو عليه! ولربَّما سيُسمّي أحفادنا لحم الثور عجل (veau)... إلخ. ومن شأن هذه التجربة المتراكمة، إلى جانب تحليل التغيُّرات اللَّفظيّة والنحويّة كافّةً، أن تسمحَ للألسنيّين بالعودة بالزمن.

- مسلَّحين بكلّ هذه الأدوات اللُّغويّة، كيف تعمدون ماديّاً إلى إعادة بناء لغةٍ ميتةٍ؟

- ننطلق دائِماً من اللُّغات الحاليّة. وإذا حالفنا الحظّ، تكون مجموعة اللُّغات التي تُثير اهتمامنا متحدِّرةً من لغةٍ مكتوبةٍ معروفةٍ.

وفي هذه الحالة، يكون العمل قد أنجِزَ نصفيّاً، كوننا نعرفُ معجم المفردات وقواعد الصرف والنحو وشكل الخطّ... والمسألة الوحيدة التي تبقى عالقةً هي مسألة اللَّفظ. فمثلاً، قد يُساورنا الشكّ في اللُّغة اللاتينيّة بشأن لفظ الرمز «c»: فهل يجدر بنا لفظه «k» أو «tch» على الطريقة الإيطاليّة؟ ويكون بحوزتنا نمطان من الدلائل لنبتَّ في هذه المسألة: **أوّلاً**، طريقة اللَّفظ في اللُّغات البنات؛ **وثانياً**، الاقتراضات اللُّغويّة التي اقترضتها اللُّغات الأجنبيّة عن اللاتينيّة. وإذا ما انطلقنا، كما رأينا منذ قليلٍ، من المبدأ القائِل بأنَّ الصوت «k» هو سلف الصوت «tch»، نلاحظ أنَّ ثمّة لغةً ابنةً، وهي اللُّغة السردينيّة، قد حافظت على أصوات الـ «k» في كلماتها، على غرار كلمة «ciel» (**«سماء»**) التي تُلفَظ «kaéloum» «caelum» في اللُّغة اللاتينيّة، و«kélou» «celu» في اللُّغة السردينيّة، ولكنَّها تُلفَظ «cielo» «tchélo» في اللُّغة الإيطاليّة... ممّا يُثبت وجود اللَّفظ «k» في اللُّغة اللاتينيّة. ذلك مع لفت الانتباه إلى أنَّ كلمة «Caesar» قد أعطت كلمة «Kaiser» (**«قيصر»**) في اللُّغة الألمانيّة، فلا بدّ أنَّها كانت تُلفَظ «Kaesar».

ـ لقد فهمنا جيّداً قوام هذا الأسلوب. ولكن هل ينجح هذا التمرين إذا طُبِّقَ على كتاباتٍ غير ألفبائيّةٍ، على غرار اللُّغة المصريّة أو اللُّغة الصينيّة؟

ـ حسناً، في ما يتعلّق باللُّغة الصينيّة التي أُكِبُّ على دراستها، نملك أدواتٍ عديدة، ولا سيَّما مُعجَماً يرقى إلى سنة 601 ويحمل اسم Qiè-Yùn، نجد فيه كلماتٍ مُصنَّفةً بحسب القوافي. ومردّ ذلك إلى أنَّ الشعر كان يُعدُّ في مصاف الفنون العظيمة الشأن في الصين، وكان نظم القصيدة يندرجُ في عداد الامتحانات الإلزاميّة لكلّ مَن يرغب في الدخول إلى الإدارة الملكيّة المُبجَّلة! وإنَّ معجم Qiè-Yùn

هو أداةٌ نفيسةٌ قيِّمةٌ لإنشاء اللَّفظ في اللُّغة الصينيّة القديمة. ولكن بغية الرجوع بالزمن أكثر بعدُ، والعودة إلى اللُّغة الصينيّة التي تُسمَّى بالمهجورة، أي لغة كونفوشيوس (Confucius) التي كانت تُحكى في الألفيّة الأولى قبل الميلاد، نركنُ هنا أيضاً إلى الشعر، إذ ثمّة مدوَّنةٌ كاملةٌ من الأشعار الموزونة المُخلَّفة من تلك الحقبة. ناهيك عن أنَّ ثمّة عناصرَ لفظيّةً في الخطوط الصينيّة لا يستطيع صينيّو اليوم فكَّ شيفرتها إلاّ جزئيّاً، ولكنَّها تُرشِدنا إلى طريقة لفظ الكلمات في منتصف الألفيّة الأولى قبل الميلاد. وخِلافاً للفكرة الشائعة عن الكتابة الصينيّة، كانت هذه الأخيرة صوتية في البدء، بالرَّغم من أنَّها ليست ألفبائيّةً. إنَّها كتابةٌ تُشبه الكتابة المقطعيّة حيثُ يكون لكلّ مقطعٍ لفظيٍّ صورةٌ.

سمكة (Fish) وقدم (Foot)

ـ وإذا أردنا الرجوع إلى ما قبل ذلك، أي إلى حقبة ما قبل الكتابة؟

ـ غالباً ما تتعلَّق المسألة بإعادة بناء لغةٍ ميتةٍ غير مُثبتةٍ، أي لغةٍ فقدنا كلّ أثرٍ عنها ولكنَّنا نملك أسباباً وجيهةً تدفعنا إلى افتراض وجودها، على غرار: اللُّغة البَدْئيّة الهنديّة الأوروبيّة، التي نعمل على دراستها منذ وليام جونز (William Jones)، واللُّغة الأسترونيزيّة البَدْئِيّة، ولغة البانطو البَدْئيّة... إلخ. ومن النافل القول إنَّ النتائج التي نُحرزها تتَّصف بطابعها المتغيِّر جدّاً تبعاً لمدى ابتعاد اللُّغة المطروحة الزّمنيّ، ولنوعيّة المعطيات التي بحوزتنا، فمثلاً: هل إنَّ اللُّغات الحاليّة موصوفةٌ بشكلٍ جيِّدٍ؟ هل هي عديدةٌ ومتباعدةٌ بما فيه الكفاية لإنشاء مقارناتٍ وتحقيقات الحادث بينها؟ هل الفروع كلّها ممثَّلةٌ تمثيلاً جيِّداً؟ في الواقع، في حال أردنا إعادة إنشاء اللُّغة

الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة وليس في متناول أيدينا سوى اللُّغات المُشتقّة من اللاتينيّة واللُّغات الجرمانيّة، يكون لدينا رؤيةٌ مختلفةٌ اختلافاً شديداً عن تلك التي نملكها اليوم، أي رؤيةٌ مليئةٌ بالثغرات! باختصار: جلّ ما نتوصّل إليه هو إعادة إنشاء مقتطفاتٍ عن اللُّغات البَدْئيّة تُصرَف في سبيلها ثرواتٌ جمّةٌ. إنّه عملٌ يتطلّب المثابرة والجهد.

ـ أتستطيع أن تضربَ لنا بضعة أمثلةٍ؟

ـ لنلقِ نظرةً على اللُّغات الأوروبيّة، فهذا أسهل. ثمّة طريقتان كلاسيكيّتان لكشف النقاب عن الكلمات السَّلفيّة: **أوّلاً**، الطريقة المقارِنة (القاضية بمقارنة صِيَغ متحدِّرةٍ من عدّة لغاتٍ)؛ **وثانياً**، إعادة البناء الدّاخليّ (التي تلجأ إلى استعمال معطياتٍ داخلية للغةٍ واحدةٍ). ففي اللُّغة اللاتينيّة مثلاً، نقع على عدّة صِيَغ ذات ملامحَ مشتركةٍ للدلالة على **الثلج** (neige) و**أثلَجَ** (neiger)؛ بحيثُ يُقال «nix» للدلالة على الفاعل و«nivis» للدلالة على المُضاف إليه و«ninguit» للإشارة إلى **أنّها تُثلِج** (il neige)، إلى ما هنالك. ويتطابق ذلك من وجهة نظر علم الأصوات مع الأشكال التالية: «nik-s» و«niw-is» و«ni(n)gw-it». وسأوفّر عليكِ عناء الغَوْص في البَرهنة، فالخُلاصة أنَّ عمليّة إعادة البناء الداخليّة تدفعنا إلى طرح وجود الصيغة «nigw» الـ«قَبْل – لاتينيّة» كمسلَّمةٍ. وبالتأكيد لا تكون هذه الطريقة وحدها كافيةً وافيةً. وعليه، نلجأ أيضاً ـ وبنوعٍ خاصٍّ ـ إلى استعمال الطريقة المُقارِنة، ونحاول جاهدين الكشف عن التغيُّرات المُنتظمة في الأصوات ـ أي الفونيمات ـ في لغاتٍ بناتٍ مختلفةٍ. فلنأخذ مثلاً اللُّغتَين الإنجليزية والفرنسيّة، وهما لغتان تتشاطران قواسمَ مشتركةً، لأنَّ كلتيهما هنديَّتان أوروبيَّتان، والبون مع ذلك شاسعٌ بينهما، لأنَّ اللُّغة الفرنسيّة تنتمي إلى مجموعة اللُّغات المُشتقَّة من اللاتينيّة، بينما

تنتمي اللُّغة الإنجليزية إلى مجموعة اللُّغات الجرمانيّة. ونلاحظ أنَّ الكلمات الفرنسيّة التالية: **سمكة** (poisson) و**قدَم** (pied) و**والد** (père) و**ممتلئ** (plein) و**لأجلِ** (pour)، تتطابق في اللُّغة الإنجليزية مع الكلمات التالية: «fish» و«foot» و«father» و«full» و«for». وعليه، ينقلب الفونيم «p» الفرنسيّ إلى «f» في اللُّغة الإنجليزية، والعكس بالعكس. وكذلك إنَّ الكلمات الفرنسيّة التالية: **رعد** (tonnerre) و**أنتَ** (tu) و**سقف** (toit) من جهةٍ، و**عشرة** (dix) و**اثنان** (deux) و**سنّ** (dent) من جهةٍ أخرى، تُصبح في اللُّغة الإنجليزية «thunder» و«thou» (أي أنتَ في اللُّغة الإنجليزية القديمة) و«thatch» من جهةٍ، و«ten» و«two» و«tooth» من جهةٍ أخرى، ممّا يعني أنّه ثمّة تطابق بين الفونيم الفرنسيّ «t» والفونيم الإنجليزي «th»، وبين الفونيم الفرنسيّ «d» والفونيم الإنجليزي «t»... ويتعقَّب الألسنيّون هذا النمط من التغيُّرات المُنتظمة من خلال مقارنة مئات الكلمات في عشرات اللُّغات أحياناً. ومن ثمّ يُعِدّون جداول التطابق بغية تحديد الفونيمات السَّلفيّة على نحوٍ تكون فيه التطوُّرات اللَّفظيّة معقولةً ونظام الأصوات المُعاد بناؤه طبيعيّاً.

ـ نستطيع بهذه الطريقة أن نعيد بناء نظام الفونيمات، ولكن كيف السبيل إلى إعادة بناء الكلمات بحدّ ذاتها؟

ـ يتمّ ذلك بكلّ بساطةٍ من خلال تجميع فونيمات اللُّغة البَدْئيّة التابعة لكلّ كلمةٍ بحسب تسلسل ظهورها في اللُّغات البنات. وقد رأينا على سبيل المثال أنَّ كلمة **سنّ** (dent) في اللُّغة الفرنسيّة تتطابق مع كلمة «tooth» في اللُّغة الإنجليزية، وأنَّ الصامتَين الأوّل والأخير في هاتَين الكلمتَين يوضّحان التطابقات المعروفة جيّداً، وهي: - «t» «d» («د» ـ «ت») و«t» - «th». أمّا بالنسبة إلى الصامت الأوَّل، فقد أعاد الباحثون في اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة بناء الفونيم البَدئيّ «d*»

(تسِم النجمة صيغةً معاداً بناؤها وغير مرصودةٍ بشكلٍ مباشرٍ). أمّا بالنسبة إلى الصامت الثاني، فلقد أعادوا بناء «t*»، وعليه، كانت كلمة «dent» تُلفَظ في اللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة كالآتي: «d...t*»، وكذلك أعاد الاختصاصيّون بناء الفونيمين الواقعَين في الوسط على قاعدة تطابقاتٍ لم أتطرّق إليها في ما تقدَّم، ممّا أعطانا الشّكل التالي: «dont*».

معاجمُ مفرداتٍ مبعوثةٍ من تحت الرماد

ـ نحصل بفضل هذه الطرق على لائحة مفردات لغةٍ. ولكن هل يُمكننا أن نعيد بناء قواعد اللُّغة على حدٍّ سواء؟ فهل كنتم بصفتكم ألسنيِّين لتنجحوا لولا وجود النصوص اللاتينيّة في الوقوف مجدَّداً على تصريفات الأسماء في اللُّغة اللاتينيّة، في حين أنَّ ما من لغةٍ حاليّةٍ أخرى مشتقَّةٍ من اللاتينيّة تنطوي على تصريف الأسماء؟

ـ كلا، طبعاً! إنَّ سؤالكِ يوضِّح تماماً الصعوبات التي نصطدم بها ويُبيِّن أنَّ الحقيقة لا تُضاهي التنظير سهولةً، فشتَّان ما بين الاثنَين، إذ قد يُخيَّل إلينا أنَّ اللُّغات المُشتقَّة من اللاتينيّة تتحدَّر من لغةِ شيشرون (Cicéron) اللاتينيّة. ولكن في الحقيقة، لا تتحدَّر اللُّغات الإيطاليّة أو الفرنسيّة أو القَشتاليّة مباشرةً من اللُّغة اللاتينيّة الكلاسيكيّة التي تُعلَّم اليوم في المدارس، بل من اللُّغة اللاتينيّة المتأخِّرة التي كانت محكيّةً لدى تفكُّك الإمبراطورية، والتي كانت تصريفات الأسماء فيها تنحو أصلاً نحو الزوال، وهذا هو على الأرجح سبب عدم احتفاظ أيّ لغةٍ أخرى حاليّةٍ مشتقَّةٍ من اللاتينيّة بها. هذا وتتَّصف دوماً عمليّة إعادة بناء اللُّغة البَدْئيّة بطابعها غير الناجِز، بحيثُ إنَّنا نعيد بناء قسم من معجم المفردات يكون كبيراً بدرجاتٍ متفاوتةٍ، وقسمٍ احتماليّاً من قواعد اللُّغة وقواعد تكوين

الكلمات، على غرار صِيَغ الجمع وتصريفات الأفعال أو تصريفات الأسماء بالتحديد. ولكنّنا لا نستطيع أن نُعيد بناء كلّ شيءٍ، فالأمر بعكس ذلك تماماً، إذ إنَّ بعض العناصر تضيعُ إلى الأبد، سواء لأنَّها غير ممثَّلةٍ في أيّ من اللُّغات البنات أم لأنَّه قد تمّ تمثيلها في لغةٍ واحدةٍ فقط، وبالتالي نفتقر إلى أيّ وسيلةٍ تخوّلنا معرفة إنْ كانت المسألة تتعلّق بعنصرٍ سلفيٍّ أم لا. واليوم، لا وجود للغةٍ بدْئيّةٍ معاد بناؤها بالتفصيل بشكلٍ كافٍ وافٍ حتّى نتمكّن من التكلُّم بها.

ـ ولكن، في الحالات التي يتمّ فيها إعادة بناء عدد كبير من المفردات، ألا يسعنا أن نركِّبَ ولو بضعة جملٍ؟ إذ إنَّنا نجد على الإنترنت حكايةً على لسان الحيوانات مكتوبةً باللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة تحمل عنوان «الخروف والأحصنة» (*«Le Mouton et les . . . chevaux»*)

ـ أجل، إنَّها حكايةٌ كتبها أوغست شلايشر (August Schleicher)، وهو ألسنيٌّ ألمانيّ عاشَ في القرن التاسع عشر، ويعمدُ المُحدَثون أحياناً إلى مراجعتها وتنقيحها. وهذا التمرين مُرَغِّبٌ، إذ يكفي أنَّه يسمح لنا بالتنبُّه بشكلٍ أفضل للنواقص. ولكن لا بدّ لنا من أن نُدرك جيِّداً أنّه بغية كتابة نصوصٍ من هذه الشاكلة، يترتَّب علينا اتِّخاذ العديد من القرارات الاعتباطيّة أو القرارات حول إشكاليّاتٍ لا تزال معلَّقةً ولم يُبتّ فيها بعد، كإشكاليّة ترتيب الكلمات مثلاً، التي تتَّصف بطابعها المتبخِّر السريع الزوال، والتي تصعبُ إعادة بنائها بالتفصيل. فمنذ قليلٍ، عندما عرضتُ عليكِ فنجان قهوةٍ، توجَّهتُ إليكِ بالحديث قائلاً: «تشربينه كيف؟» («Vous le prenez comment?»)، وقبل 100 سنة كنتُ لأقول لكِ: «كيف تشربينه؟» («Comment le prenez-vous?»). أترين؟! إنَّ هذا النمط من التبدُّلات هو سريعٌ ودقيقٌ لدرجة أنَّه واهمٌ مَن يعتقد أنَّه سيعثر عليه مجدَّداً.

ـ ولكن إنْ كانت هذه الأعمال كلّها لا تسمح بإعادة إحياء هذه اللُّغات البائِدة، فما الذي تُعْلِمنا به عن الناس الذين كانوا يتكلَّمونها، أي هؤلاء البشر الذين عاشوا في العصر الحجريّ الحديث والذين طبعوا بالصميم تاريخ الكرة الأرضيّة؟

ـ بالعديد من الأمور في نهاية المطاف، إذ من شأن معجم المفردات الذي نتوصَّل إلى إعادة بنائه أن يزوِّدنا بمعلوماتٍ قيِّمةٍ عن ثقافتهم. فنستمدُّ منه معلوماتٍ عن ثقافتهم الماديّة بادئ ذي بدءٍ، على غرار معرفة النباتات المزروعة آنذاك والحيوانات الأليفة التي كانت تُربَّى، والأدوات التي كانت تُستخدَم، ونشاطات قنص الطرائِد وصيد السمك وتشييد المنازل... إلخ. وهي تعطينا أحياناً دلائل حول نظام القربى لديهم، فضلاً عن معتقداتهم الدينيّة... فلنأخذ مثلاً اللُّغة الأسترونيزيّة البَدْئيّة التي أعرفها حقّ المعرفة: يدلُّنا معجم المفردات المُعاد بناؤه أنَّ تلك المجموعات السكانية كانت تقطن في تايوان منذ حوالى الـ 350 سنة قبل الميلاد، وكانت تزرع الذرة البيضاء والأرزّ، ذلك لأنَّنا نستطيع أن نُعيد بناء كلمةٍ للدلالة على الأرزّ باعتباره نبتةً، وكلمةٍ للدلالة عليه باعتباره طعاماً، وأخرى للدلالة عليه باعتباره حبوباً مضروبةً... ويُمكننا كذلك أن نُعيد بناء كلمةٍ للإشارة إلى **الخنزير الأليف** وأخرى **للكلب**... وكان أفراد هذه المجموعة يصطادون الأسماك، إذ ثمّة كلمةٌ للإشارة إلى **قارب** وأخرى **للشبكة**... وكانوا يملكون المنازل والحقول. كانت تلك لمحةً عن ثقافتهم الماديّة، أمّا بالنسبة إلى عالم الفِكر، فنعلمُ أنَّ الأسترونيزيِّين البَدئيِّين كانوا يدفنون موتاهم ـ فثمّة كلمةٌ للدلالة على **دفن الميت** ـ، وأنَّهم ربَّما كانوا يعبدون كائِناً «فَوْق - طبيعيّاً» (surnaturel) يُدعى كانيكو* (*qaniCu)... إذ باعتبار أنَّ المصطلح أكي* (*aki) (الذي يعني «جدّ» أو «سلَف») قد تطوَّر في بعض

اللُّغات مُكتسباً معنى «الألوهيّة»، فمن شأن ذلك أن يقترحَ وجود تعبُّدٍ للأسلاف. وتقفُ معرفتنا تقريباً عند هذا الحدّ. ولا نملك أكثر من ذلك سوى دليلٍ إضافيٍّ واحدٍ ذي صلةٍ بنظام القربى، ألا وهو: إنَّ الكلمة التي تُشير إلى والد الزوجة، أي الحَمْو، هي نفسها تلك التي تشير إلى خال الرَّجل، وعليه، نستطيع أن نتصوَّر وجود أفضليّة الزواج من ابنة الخال.

المهد الهنديّ ـ الأوروبيّ

ـ هذا مذهلٌ! إنَّ هذه الفرضيّات مغريةٌ جدّاً، ولكن كيف نختبر رسوخها؟ وكيف نتحقَّق من أنَّ الأسترونيزيِّين البَدْئيّين مثلما وصفْتَهم حضرتك ليسوا... ابتكاراً من بنات أفكار الألسنيِّين ومن نسج خيالهم؟

ـ ذلك لأنَّ الأرخيولوجيا قد أثبَتت هذه الفرضيّات حول الأسترونيزيِّين البَدْئيِّين على المستوى الماديّ على الأقلّ! ففي سنة 2002، تمّ اكتشاف موقع أثريّ عمره 5000 سنةٍ على الساحل الغربيّ في تايوان. وعلى عُمق 8 أمتار من الطميّ، تمّ العثور على حبّاتِ أرزٍّ وذرة بيضاء محوَّلةٍ إلى كربون، وعلى عِظام كلابٍ ميتةٍ، فضلاً عن حجارةٍ لتثقيل شبكات صيد الأسماك... ولقد كنَّا فخورين جدّاً برؤية فرضيَّاتنا تتجسَّد في معالمَ أثريّةٍ، إذ يكون الوضع مثاليّاً حين تتلاقى أعمالنا مع أعمال الأرخيولوجيِّين والمؤرِّخين، فغالباً ما يحتاج أحدنا إلى الآخر، كما سبق لي أن ذكرت. ونحن نعلمُ على سبيل المثال، بفضل الأرخيولوجيا، أنَّ عِدانة النُّحاس قد ظهرت في الصّين أثناء الألفيّة الثالثة قبل الميلاد، بينما برزت عِدانة **البرونز** (bronze) بعدها بقليلٍ. ومن ثمّ عمَدَ الصينيّون إلى نقل تقنية البرونز إلى جيرانهم الجنوبيِّين، ففي اللُّغة الصينيّة المهجورة، شُكِّلت كلمة **برونز** استناداً إلى فعل **وضعَ معاً** (mettre ensemble) (إذ ينبغي وضع النحاس

والقصدير معاً بغية صناعته)، وكانت تُلفَظ **لونغ** (long). ونعلمُ من جهةٍ أخرى أنَّ الفونيم «l» قد استحال «d» زهاء العام 100 بعد الميلاد. ويساعدنا ذلك على تأريخ الاحتكاكات التي حصلت بين الصينيِّين وسكَّان الجنوب. وهكذا، فإنْ كانت كلمة (bronze) تُلفَظ (long) في لغتهم، فهذا يقترح أنَّ هؤلاء السكَّان قد التقوا بالصينيين قبل العام 100.

ـ أودُّ طبعاً أن أعود إلى أسرتنا اللُّغويّة، أي الهنديّة ـ الأوروبيّة، فما الذي نعرفه اليوم عن هؤلاء الأجداد الأسطوريِّين اللُّغويِّين؟

ـ إنَّ صفة «أسطوريِّين» هي الصفة المناسبة، لأنَّ تياراتٍ يمينيّةً متطرِّفةً قد حوَّلت أحياناً هذه الأعمال حول اللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة لصالحها، وغذَّت أسطورة تفوُّق الجنس الآريّ المزعومة، والتي تفتقر إلى أيّ أساس علميٍّ بطبيعة الحال. هذا وقد أُشبِعت مسألة اللُّغة الهنديّة ـ الأوروبيّة درساً، كما أنَّها تتَّصف بطابعها العويص في الوقت نفسه. فيختلط الأمر على الألسنيِّين، لأنَّ الأوراق مخلوطةٌ بما فيه الكفاية باعتبار أنَّ المسألة تتعلَّق بأسرةٍ من اللُّغات التي ظلَّت على اتِّصالٍ وثيقٍ فما انفكَّت تؤثِّر إحداها في الأخرى وتقترِض المفردات بعضها من البعض الآخر، الأمر الذي يُصعِّب تصنيفها. أمّا الإشكاليّة الأخرى، فتكمن في عمر اللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة ومعرفة المنطقة التي نشأت فيها، فنحن نعلم مثلاً أنَّ اللُّغة الأسترونيزيّة البَدْئيّة تتحدَّر من تايوان، إلاّ أنَّ الشكوك لا زالت تساورنا في ما يتعلَّق باللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة. ومن جهةٍ أخرى، كانت مناطق أوراسيا قاطبةً تقريباً مرشَّحةً لأنْ تحمل لقب «مهد اللُّغة الهنديّة ـ الأوروبيّة». واليوم، بقيت فرضيّتان جدِّيتان مطروحتَين على الساحة: تقضي **الفرضيّة الأولى**، التي قال بها البريطانيّ كولين رينفرو (Colin Renfrew)، بأنَّ مجموعاتٍ سكانية متحدِّرةً من تلك التي دجَّنت زراعة الأرزّ، كانت تتكلَّم في هضبة

الأناضول اللُّغة الهنديّة الأوروبيّة البَدْئيّة منذ حوالى الـ 11 ألف أو الـ 12 ألف سنةٍ مضت. ومن ثمّ، انتشر المزارعون أصحاب هذه اللُّغة شيئاً فشيئاً في أوروبا وإيران والهند. أمّا **السيناريو الثاني**، فقد أوجدته ماريخا غيمبوتاس (Marija Gimbutas)، ومفاده: لم يكن الهنود الأوروبيّون البَدْئِيّون مزارعين في البداية، بل كانوا خيّالةَ فيفاء في منطقة القرغيز (Kourganes) شمال شرق البحر الأسود. ومنذ سنة 6000 قبل الميلاد، شنَّ هذا الشعب من الخيالة أصحاب القِيَم الحربيّة هجوماتٍ على شعوبٍ مسالمةٍ من المزارعين الذين كانوا يُقدِّسون إلهةً أمّ، وهيمنوا عليهم وفرضوا عليهم لغتهم التي انتشرت لاحقاً مع تقنيَات الزراعة.

النِّسابة الأخرى

ـ أوَلا نستطيع أن نحسمَ الأمر بين فرضيّة «فلّاحي هضبة الأناضول» وفرضيّة «خيّالة الفيفاء»؟ أوَلا يُلقي معجم المفردات المُعاد بناؤه بعض الضوء على ثقافة الهنود الأوروبيّين البَدْئيّين؟

ـ نفتقر في الوقت الراهن إلى العناصر الأكيدة المُسكِتة، فلم ندَّخر وسعاً للعثور مجدَّداً على مهد اللُّغة الهنديّة الأوروبيّة مستعينين بمعجم مفردات الطبيعة (أي النباتات والحيوانات)، على أمل تحديد المباءة الطبيعيّة الأصليّة، إلاّ أنَّ هذه الأبحاث لمّا تؤتِ ثمارها. فمعاني الكلمات مكتنفة بالكثير من الغموض، بحيثُ إنَّ المصطلح نفسه قد يعني «بلوط» («chêne») و«زان»(*) («hêtre») و«شاهبلوط»(**) («châtaignier»). وتوافقينني الرأي أنَّ ذلك ليس دقيقاً جدّاً. ولطالما اعتقدنا أيضاً أنَّه لا يُمكن للّغة الهنديّة ـ الأوروبيّة

(*) جنس من الأشجار الحرجية.

(**) شجر من الفصيلة البلوطية له ثمر يؤكل مشوياً، ويُعرف بالكستناء.

البَدْئيّة أن تكون ضاربةً في القِدَم، لأنَّها تنطوي على كلمةٍ للإشارة إلى **العجَلة** (roue)، وهي -kwekwlo*. والحال أنَّ أقدَمَ عجَلةٍ عُثِرَ عليها يوماً في أوراسيا لا يتعدَّى عمرها الـ 5500 سنةً. بيد أنَّ هذا البرهان مشكوكٌ فيه، إذ بوسعنا أن نفترضَ أنَّ اللُّغات البنات لم ترِث من كلمةِ **عجلة**، بل من كلمة (kwel*) التي تعني «بَرَمَ» («tourner»)، وأنَّ كلَّ لغةٍ منها قد اشتقَّت بعد ذلك كلمةً للإشارة إلى **العجَلة** انطلاقاً من الجذر نفسه. وثمّة فرضيّةٌ أخرى صالحةٌ أيضاً، تقضي بأنَّ اللُّغة الحثيّة اقترضت كلمة **عجَلَة** مع الغرض نفسه حين انتشرَ هذا الاختراع في أوروبا والشرق الأدنى. ونستطيع أن نقيمَ التدليلات المنطقيّة نفسها في ما يتعلّق بكلمَتَي **عرَبة** (chariot) و**حصان** (cheval) اللَّتين استُخدِمتا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن لتعزيز فرضيّة المحاربين الزاحفين إلى أوروبا مع أحصنتهم وعرباتهم.

ـ يبدو هذا البحث عن الأصول مَيؤوسٌ منه بعض الشيء، ففي الواقع، لن ننجح أبداً في الوقوف على حقيقة الأمر!

ـ أنا لا أشاطركِ الرأي، فتدريجيّاً تسير الأمور قُدماً وتتقلّص الفرضيّات. وعلى سبيل المثال، قدَّم النيوزيلنديّ روسيل غراي (Russell Gray) مؤخَّراً نتائجَ مثيرةً جدّاً للاهتمام، فلقد طبَّق على أُسرة اللُّغات الهنديّة ـ الأوروبيّة الطرق التي يلجأ الأحيائيّون إلى استخدامها لرسم شجرة نِسالة الجينات أو الأجناس الحيوانيّة، وهي طرقٌ تستوجِب اللُّجوء إلى حساباتٍ خوارزميّة تتطلَّب بطاريات حواسيبٍ يُمكن تشغيلها على مدى أسابيع. وتقضي الفكرة بإنتاج ملايين شجرات العائِلة المحتملة ومن ثمّ إيجاد الشجرة (أو الشجرات) التي من شأنها أن تُفسّر على النحو الأمثل كيف تتبدَّل الجذور التي تُعبِّر عن مفاهيم معجم المفردات الأساسيّ والتي تصل إلى الـ 200 مفهومٍ، وكيف أنَّها تتعاقب لكلّ مفهومٍ في إطار أسرةٍ

لغويّةٍ معيَّنةٍ. وإليكم مثلٌ آخر بعد، ألا وهو: كانت كلمة (cras) تدلّ في اللُّغة اللاتينيّة على معنى «صباح» («matin»)، إلاّ أنَّ السواد الأعظم من اللُّغات المُشتقَّة من اللاتينيّة تضع في مقابل كلمة (matin) كلمةً منبثقةً عن الشَّكل (de mane) الموجود في اللُّغة اللاتينيّة المتأخِّرة، باستثناء اللُّغة السردينيّة التي احتفظت بكلمة (cras). الأمر الذي يقترح أنَّ اللُّغة السردينيّة قد انفصلت عن اللُّغة اللاتينيّة قبل حلول اللُّغة اللاتينيّة المتأخِّرة، أي قبل أن تقوم كلمة (demane) مقام كلمة (cras). فبمُقتضى منهجيّة غراي، من شأن ذلك أن يُحابي بروز الشجرات التي تملك فرعاً مشتقّاً من اللاتينيّة ـ إنَّما ـ غير ـ سردينيٍّ. وما إنْ يعثر غراي على الشجرة الفضلى، يؤرِّخ فروعه وجذره. ويقوم بذلك من خلال إدخال التواريخ التي يستمدُّها من علم التاريخ إلى نموذجه، على غرار تاريخ نشأة اللُّغة اللاتينيّة مثلاً، الأمر الذي يسمح له بتعميم التواريخ الأقدَم (علماً بأنَّه لا يفترِض سرعة تطوُّرٍ ثابتة). وعلى ذمَّته، ترقى اللُّغة الهنديّة ـ الأوروبيّة البَدْئيّة إلى 9 آلاف سنة تقريباً قبل الزمن الحاضر. ولذلك يرى أنَّ متكلّمي اللغة الهندية الأوروبية كانوا فعلاً مزارعين مسالمين عاشوا في هضبة الأناضول. . .



الفصل الثالث
مآل اللُّغات

لهجةٌ كُتِبَ لها النجاح

ـ لقد تنوَّعت اللُّغات عقبَ حوادِث العصر الحجريّ الحديث كلّها بشكلٍ ينسجِم مع مصيرها الطبيعيّ، مثلما أخبَرْتَنا. فكم هو عدد اللُّغات الحيّة اليوم، في زمن العولمة، على سطح الكرة الأرضيّة؟

ـ هذا سؤالٌ عويصٌ! لا نعرفُ عددها، أو على الأصحّ لا نعرف عددها بالضبط. إذ يُقدِّر معهد (Summer Institute of Linguistics)، وهو منظَّمةٌ أميركيّة إرساليّةٌ، عدد اللُّغات الحيّة بـ 6912 لغةً. ويرمز هذا الرقم إلى عدد اللُّغات التي ينبغي ترجمة التوراة إليها لكي يفهمها العالم أجمع. أمّا منظمَّة اليونيسكو، فتُحصي 6000 لغةٍ. ولنعتبر إذاً أنَّ عددها يتراوح بين 6000 و7000 لغةٍ. ولا يجب أن يكون هذا الفارق العدديّ بعيداً عن الواقع ولكنَّه يبقى تخميناً غير دقيقٍ.

ـ هل إنَّ إحصاء اللُّغات صعبٌ إلى هذه الدرجة؟

ـ بالطبع. فليس من اليسير دائِماً التمييز بين لغتَين عندما تكون إحداهما متقاربة من الأخرى، فنستطيع نظرياً أن نفرّق بين لغتَين حين

لا يفهم بعض المتكلِّمين كلام بعض. بيد أنَّ عمليّة الفهم المتبادل هي ظاهرةٌ تتَّصف بطابعها التدرُّجيّ، فأين ينبغي أن نرسم الحدّ الفاصل؟ هل ينبغي وضعه حيثُ لا يفهم المتكلِّمون بعضهم بعضاً بنسبة 20 بالمئة أو 40 بالمئة و60 بالمئة؟ فلنأخذ مثلَ مقاطعة الكيبيك (Québec) في كندا (Canada): باستطاعتكِ أن تفهمي لغة سكّان مونتريال (Montréal)، إلا أنّه سيفوتك فهم قسمٍ من مفرداتها ومن صِيَغ الجُمل فيها، فبوسعك أن تتجاذبي معهم أطراف الحديث ولكنَّكِ لن تفهمي بنسبة 100 بالمئة. أمّا إذا توغّلتِ في مقاطعة الكيبيك الريفيّة، فستصادفين أشخاصاً يتكلّمون بلغةٍ تعجزين تماماً عن فهمها. فهل إنَّ اللُّغة الكيبيكيّة المدينيّة واللُّغة الكيبيكيّة الريفيّة واللُّغة الفرنسيّة هي لغاتٌ مختلفةٌ؟ ولأكون صادقاً معك، إنَّ التمييز بين اللُّغة واللَّهجة المحليّة هو من أكثر المسائل المُبهمة المعالم، فبالنسبة إلى الألسنيّ، ما من اختلافٍ جوهريٍّ بينهما، باعتبار أنَّ اللُّغة هي لهجةٌ محليّةٌ كُتِبَ لها النجاح. وهكذا مثلاً تُعتبَر اللُّغتَان السويديّة والنروجيّة لغتَين متباينتَين، مع أنَّ النروجيِّين والسويديِّين يفهم بعضهم كلام بعض بشكلٍ جيِّدٍ، حتّى أفضل ممّا يفهم سكّان الساوى (Savoyards) وسكّان البيكاردي بعضهم كلام بعض حين يتكلَّم كلٌّ منهم بلهجته العاميّة الخاصّة، فلقد كُتِبَ للُّغتَين النروجيّة والسويديّة النجاح، وأصبح لكلٍّ منهما بلدٌ ينطقُ بها على الصعيد الرسميّ، بينما ظلّت الساويّة والبيكارديّة محصورتَين في منطقتَيهما.

ـ من هنا نشأت إذاً عبارة «إنَّ اللُّغة هي لهجةٌ تنعمُ بقوّاتٍ بريّةٍ» «Une langue est un dialecte avec une armée de terre».

ـ تماماً. نظريّاً، يتحدَّث الألسنيّون عن «لهجاتٍ» حين تبدأ اللُّغة بالتشعُّب إلى لغاتٍ بديلةٍ مفهومةٍ بالتبادُل بدرجاتٍ متفاوتةٍ. وفي الوقت نفسه، وبمفهومٍ شعبيٍّ أكثر، لا يكون وضع اللُّغة أو اللَّهجة

المحليّة منوطاً بمعاييرَ لغويّةٍ بل بأسبابٍ سياسيّةٍ، فيعود للدول أن تقرِّر إنْ كانت تلك اللُّغة ستكون اللُّغَة الرسميّة أم لا، وإنْ كان مسموحاً اعتمادُها في المستندات الإداريّة أم لا، وإنْ كان سيُصار إلى تدريسها في المدارس أم لا. وهكذا مثلاً يُقدَّر عدد اللُّغات الدستوريّة في الهند بـ 18 لغةً إلى جانب اللُّغتَين الهنديّة والإنجليزية؛ غير أنَّ سكّان شبه الجزيرة الهنديّة يتكلَّمون أكثر من 400 لغةٍ، ويُدرَّس منها على ما أعتقد حوالى الـ 60 لغةً في المدارس. وقصدتُ من وراء الإتيان على ذكر ذلك أن أقول أنَّ معرفة عدد اللُّغات المحكيّة في العالم بشكلٍ دقيقٍ لا يُعَدُّ مسألةً جوهريّةً بالنسبة إلى الألسنيِّين. فما يُثير اهتمامهم هو، كما سبق ورأينا، تاريخ اللُّغات ووصفها وفهم البُنية الداخليّة لكلٍّ منها وتصنيفها تبعاً لمعاييرَ مختلفةٍ، بغية إلقاء الضوء على تنوُّعها بشكلٍ أفضل وبغية تحديد القواسم المُشتركة بين اللُّغات كافَّةً، فضلاً عن تحديد قوام المَلَكَة اللغوية البشريّة.

في دَغل الضمائر

- بالضبط، فبالنسبة إلى الشخص العاديّ تبدو اللُّغات مختلفةً تمام الاختلاف، فمثلاً: بين اللُّغة الصينيّة التي لا تُصرَّف أفعالها، واللُّغة الباسكيّة التي تستخدِم ستَّ صِيَغٍ وأربعة أشكالٍ لتصريف الأفعال، وبين اللُّغة الفرنسيّة التي بالكادّ تسِمُ صيغة الجمع على الصعيد الشَّفهيّ، واللُّغة الفولانيّة (le peul) التي تُشكِّل صيغة الجمع من خلال تبديل الصامتَين الأوّل والأخير في آنٍ، لدرجةِ أنّنا بالكاد نستطيع تمييز الكلمات (كما في كلمة (wuro) «قرية»، التي تُصبح (gure) «قرى»)... نشعر بالضلال! فكيف يهتدي الألسنيّون إلى طريقهم؟

- إنَّ المروحة واسعةٌ للغاية، ولكنَّها ليست لامتناهيةً. ويتجلّى

اليوم عمل الألسنيِّين التصنيفيِّين في تقويم تنوُّع اللُّغات الشهير والتحقُّق من أنَّ بعض الخاصيّات تكون موجودةً دائِماً فيها. بكلام آخر: إنْ كان ثمّة كلّيات لغوية، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، تنطوي اللُّغات دائِماً على أسماءٍ وأفعالٍ ولكنَّها لا تحتوي دائِماً على النعوت والصفات. وهكذا، ففي اللُّغة الصينيّة مثلاً، تتصرَّف الكلمات التي نترجمها كنعوتٍ تصرُّفَ الأفعال. يتعيَّن عليهم بعد ذلك دراسة مميِّزات اللُّغة وعلاقات التضمين والحصر التي تربط هذه المميِّزات سعياً لاستخراج قوانينَ عامّةٍ منها. ونعلمُ على سبيل المثال أنَّه في حال كانت اللُّغة تملك كلمةً خاصّةً للإشارة إلى الضمير الفاعل المُطاوِع الذي يُصرَّف مع الفعل بصيغة المتكلِّم أو بصيغة المخاطب، فلا بدّ أنَّها تملك ضميراً آخر خاصّاً بصيغة الغائِب. ولكن في المقابل، ثمّة لغاتٌ على غرار اللُّغة الفرنسيّة يكون فيها لصيغة الغائب وحدها ضميرٌ مُطاوِعٌ، لا يكون إلاّ كذلك، كما في المثل التالي: «ضرَبَ نفسه» (il se frappe). وفي الواقع، يصلح الضميران الفرنسيَّان المطاوعان اللَّذان يُصرَّفان مع الفعل بصيغة **المتكلِّم** (me) **والمخاطب** (te) كضميرَين غير مطاوعَين على حدٍّ سواء. ومن شأن تراكم ملاحظاتٍ من هذا النمط أن تسمح لنا بتحديد الأنماط الشائِعة والأنماط النادرة والأنماط المنعدمة الوجود. وعليه، تتعلَّق المسألة بحصر مفهوم اللُّغة البشريّة المحتملة أو على الأقلّ اللُّغة البشرية المُثبَتة.

ـ هل تتعلَّق المسألة هنا أيضاً بعمل تصنيفٍ؟

ـ أجل. ولكن علينا أن نفهم بادئ ذي بدءٍ أنَّه ما من نظام موحَّدٍ مقبولٍ من الجميع لتصنيف اللُّغات على أساس مميِّزاتها النحويّة أو اللَّفظيّة، فثمّة آلاف المميِّزات، وكلُّ واحدةٍ منها تُفضي إلى تصنيفٍ بسيطٍ. فعلى صعيد اللَّفظ مثلاً، يُمكننا تمييز اللُّغات تبعاً

لنمط الأصوات التي تملكها ولبُنية كلماتها ولمتتاليات الأصوات التي تسمح بها أو تمنعها؛ أو تبعاً لوجود نظام نبرٍ، كما في اللُّغة الإنجليزية أو اليابانيّة، أو تبعاً لنظام نبراتٍ علَى غرار لغة البانطو أو اللُّغة الصينيّة، حيثُ تنطوي كلمة **ما** (ma) إذا ما لُفِظت بنغمةٍ عاليةٍ ومنبسطةٍ، على معنى **والدتي** (maman)، أمّا إذا لُفِظت بنغمةٍ متوسِّطةٍ وصاعِدةٍ، فهي تعني **قِنَّب** (chanvre)، وإنْ قيلت بنبرةٍ نازِلةٍ ومن ثمّ صاعِدةٍ مجدَّداً، فهي تعني **حصان** (cheval)، وإنْ قيلت بنبرةٍ نازِلةٍ، فهي تعني **شَتَم** (injurier). . . إلخ.

ـ ثمّة طريقةٌ أخرى لتصنيف اللُّغات تقضي بإيلاء الاهتمام لعلم الصَّرف فيها وللطريقة التي تُركَّب الكلمات بموجبها. . .

ـ فِعلاً. جرت العادة أن نُميِّز بين اللُّغات الداغِمة واللُّغات المُعرَبة واللُّغات المتقطِّعة: ففي اللُّغة الداغِمة، تتعلَّق السوابق واللَّواحق، التي يكون لكلٍّ منها معنى دقيق للغاية وقابل للتعيين، بالجذور الفعليّة والاسميّة بالتوالي. أمّا اللُّغات المتقطِّعة، فهي لا تحتوي إلاّ على كلماتٍ لا تتبدَّل ـ وعلى كلماتٍ مركَّبةٍ من كلماتٍ بسيطةٍ لا تتبدَّل ـ، وهي تفتقر من حيثُ المبدأ إلى أيّ سابقٍ أو لاحقٍ للدلالة على النوع أو صيغة الجمع أو التصريف. علماً بأنَّ اللُّغات المتقطِّعة الفعليّة هي نادرة الوجود. وغالباً ما يُضرَب المثل باللُّغة الصينيّة، ولكنَّ ذلك غير صحيح تماماً، إذ إنَّ اللُّغة المندرينيّة تحتوي على عددٍ ضئيلٍ من اللَّواحق التي تُزاد إلى الأفعال. ولكن لنقلْ إنَّ اللُّغة الصينيّة تقترب من النمط المتقطِّع.

«تأكل الفأرة الهرّ»

ـ إذا أجدتُ الفهم، لا نستطيع أن نُميّز في اللُّغة الصينيّة بين الجملتَين التاليتَين: «يأكل الهرّ فأرةً» («le chat mange une souris») وسوفَ تأكل الهررة فِئراناً («les chats mangeront des souris»)؟

ـ يمكننا طبعاً أن نُميِّز بينهما! فما من صعوبةٍ خاصّةٍ نتعثَّر بها في طور ترجمة هاتَين الجملتَين إلى اللُّغة الصينيّة. إنَّما خِلافاً للُّغة الفرنسيّة، لا تُعبِّر هذه اللُّغة عن صيغتَي الجمع والمستقبل عن طريق زيادة لواحقَ، من مثل («s-») للدلالة على جمع الأسماء و (ront) للدلالة على حدوث فعل في صيغة المستقبل، بل يُصار إلى استعمال كلماتٍ نحويّةٍ وأعدادٍ وظروفٍ وما شاكَل، فيُقال شيءٌ من مثل: «هذا الهرّ هو الآن يأكلُ فأرةً واحدةً» («ce chat est en train de manger une souris»)، أو: «ثمّة هِررةٌ سوف تأكل فِئراناً» («il y a des chats (qui) vont manger souris»)، فإذا تركنا كلمة «فِئران» من دون أن نحدِّد عددها، يعني ذلك أنَّ ثمّة كميّةً غير محدَّدةٍ منها. ويُمكننا أن نُشيرَ إلى أنَّ الفعل هو قيد التنفيذ من خلال استعمال عبارةٍ من مثل **هو الآن** (en train de)، أمّا إذا أردنا أن نُشيرَ إلى أنَّ الفعل هو على وشك الحدوث، فنضع فعلاً مساعِداً قبل الفعل **أكَلَ** (manger) (يكون بالنظر إلى هذه الحالة الفعل الصينيّ المُساعِد «yào»).

وتبقى أخيراً المجموعة الثالثة المؤلَّفة من اللُّغات المُعرَبة (flexionnelles) التي تحتوي ـ أسوةً باللُّغات الداغمة (agglutinantes) ـ على الجذور والزوائِد التي تضمّ السوابق واللَّواحق، إلاّ أنَّ الزوائِد فيها لا تنطوي على معنى واحدٍ محدَّدٍ بدقَّةٍ من جهةٍ (فمثلاً، إنَّ اللاحق الفرنسيّ «ront-» في فعل «mangeront» يدلّ في آنٍ على المستقبل وعلى أنَّ الفاعل هو في صيغة الجمع الغائب)، وقد يحدث من جهةٍ أخرى أن تكون الزائِدة والجذر مدمجَين أحدهما بالآخَر دمجاً وثيقاً، فيُقال مثلاً في اللُّغة الإنجليزية **أشربُ / شربتُ / لقد شربتُ** (I drink / I drank / I have drunk) أو **فأرة / فِئران** (mouse / mice). وتندرج لغاتٌ أوروبيّةٌ جمّة في عداد اللُّغات المُعرَبة إنَّما

بدرجاتٍ متفاوتةٍ، فتتَّصف اللُّغة اللاتينيّة بطابعها المُعرَب للغاية لأنَّها تحتوي على تصريفات الأفعال وكذلك على تصريفات الأسماء الشهيرة! في حين تُعدُّ اللُّغة الفرنسيّة لغةً مُعرَبةً أقلّ بكثير، ولا سيَّما على الصعيد الشَّفهيّ، حيثُ إنَّنا نميِّز في أغلب الأحيان النوع **صغير/ صغيرة** (petit / petite) ولكنَّنا قلّ ما نستطيع تمييز العدد، فمثلاً إنَّ كلمتَي **صغير / صغار** (petit / petits) تُلفظان بالطريقة نفسها في اللُّغة الفرنسيّة، تماماً كما هو شأن الفعل **أكَلَ** (mange) الذي لا يختلف لفظه الفرنسيّ في العبارات التالية: **أنا آكل** (je mange) **وأنتَ تأكُل** (tu manges) و **هو يأكل** (il mange) **وهم يأكلون** (ils mangent)... إلخ. ولقد استُعيضَ في اللُّغات المُشتقَّة من اللاتينيّة عن خسارة تصريفات الأسماء بتصلُّبٍ في التركيب. وهكذا، لا تُعلِّق اللُّغة اللاتينيّة أهميّةً كبرى على ترتيب الكلمات في الجملة، فسيّانَ مثلاً إنْ قلنا «**يأكل الهرّ الفأرة**» («le chat mange la souris») أو «**تأكل الفأرة الهرّ**» («la souris mange le chat»)، في حين أنَّ معنى هاتَين العبارتَين يختلف اختلافاً جذريّاً في اللُّغة الفرنسيّة. زِد على أنَّ ترتيب كلمات الجملة هو معيارٌ آخر لتصنيف اللُّغات.

- ماذا يعني ذلك؟

- يُعَدُّ ترتيب المفعول به والفعل - على ما يبدو - خاصيّةً على جانبٍ من الأهميّة في اللُّغات، فهل يأتي - مثلاً - المفعول به في الجملة الخبريّة قبل الفعل أو بعده؟ ولماذا؟ فمن شأن ذلك أن يفترِض وجود قواعدَ تركيبٍ أخرى. وفي لغةٍ يرِدُ فيها المفعول به قبل الفعل مثلاً، نتوقَّع أن يتمّ إدراج الصفة فيها قبل الاسم، والمُضاف إليه قبل المُضاف، والظروف قبل الفعل؛ ونتوقَّع أن تحتوي هذه اللُّغة على ألفاظٍ متأخِّرةٍ وليس على حروف جرّ؛ كما أنَّنا نتوقَّع أن تلجأ هذه اللُّغة إلى استعمال اللَّواحق وليس السوابق. أمّا إذا كان المفعول به يأتي بعد الفعل، فيكون الأمر مُعاكِساً تماماً

بشكلٍ عامٍّ، بحيثُ تأتي الصفة بعد الاسم والمُضاف إليه بعد المُضاف والظروف بعد الفعل، ونقع فيها على حروف الجرّ وعلى السوابق. وبالتأكيد، ليست هذه القوانين أُوليغارْشيّةً، بل إنّها بالأحرى نزعاتٌ إحصائيّةٌ.

ـ هل بمقدورنا اليوم، بعد مضيّ قرنَين من التحليل، أن نقول إنَّ بعض اللُّغات هي أكثر تعقيداً من غيرها؟

ـ هذا أمرٌ معقولٌ وليس فوق التصوُّر نظريّاً. ولكن، إذا افترضنا أنَّ هذا هو واقع الأمور فلا بدّ لنا من الإقرار بأنَّنا لا نعلمُ أيّ اللُّغات هي الأكثر تعقيداً وأيُّها الأبسط والأقلّ تعقيداً! فبغية الإجابة عن هذا السؤال، يقتضي بادئ ذي بدءٍ أن نعلمَ كيفيّة قياس درجة تعقيد اللُّغات، الأمر الذي نعجزُ عن القيام به على نحوٍ موضوعيٍّ. وفي القرن التاسع عشر، خُيِّل لألسنيٍّ كأوغوست شلايشر، وهو مؤلِّف الحكاية على لسان الحيوانات التي تحدَّثنا عنها آنفاً، أنَّه كان ثمّة تفاوتٌ بين اللُّغات، فلقد كانت اللُّغات المتقطِّعة ـ برأيه ـ بدائيّةً أكثر من اللُّغات الداغمة التي كانت بدورها أقلّ تطوُّراً من اللُّغات المُعرَبة. وكان يعتبر بالتالي أنَّ هذه الأخيرة المتمثِّلة تمثيلاً جيِّداً في اللُّغات الهنديّة ـ الأوروبيّة، كانت لغاتٍ متفوِّقةً. ونعلمُ اليوم أنَّ ذلك عارٍ عن الصحّة. ولكن حتّى في تلك الآونة، كان من الشاقّ التوفيق بين هذه الفرضيّة ووجود اللُّغة الصينيّة، إذ كان من العسير القول إنَّ لغة كونفوشيوس كانت اللُّغة الأكثر تخلُّفاً في تاريخ البشريّة!

ـ متخلِّفةً، بالتأكيد إنَّها ليست كذلك. ولكنَّنا حين نرى لغاتٍ مختلفةً إلى هذا الحدّ، كاختلاف اللُّغة الصينيّة عن اللُّغة التركيّة، واللُّغة الباسكيّة عن اللُّغة الفرنسيّة، لا نستطيع أن نمسك أنفسنا من التساؤل عمّا إذا كان من الممكن ترجمة أيّ نصٍّ أو أيّ فكرةٍ إلى لغةٍ أيّاً تكن. . .

ـ إنَّ ذلك ممكنٌ بالطبع! إذ تسمح لنا اللُّغات كلّها، إلى أيّ إثنيّةٍ في العالم انتمت، بقول كلّ ما نودّ قوله. فصحيحٌ أنَّ لغات الصيّادين البابويِّين تفتقر إلى معجم المفردات الإداريّة، وكذلك إلى معجم المفردات المعلوماتيّة، ولكنَّ ذلك لا يُعدُّ نقصاناً فعلياً، فكما تعلمين، من الممكن ابتكار مفردات المعجم أو اقتراضها. ولكن من حيثُ البُنية، تسمح لغاتهم كلّها بالإدلاء بأيّ فكرةٍ مهما تكن، فكلّ شيءٍ يكون قابلاً للترجمة من لغةٍ إلى أخرى.

ـ هل يُمكننا ترجمة كلّ شيءٍ دون استثناءٍ؟ إذ إنَّ بعض النظريّات، على غرار فرضيّة سابير ـ وورف (Sapir-Whorf)، تفترِضُ أنَّ اللُّغة تُكيِّف الفِكر لدرجة أنَّ متكلِّمي اللُّغات المُنظَّمة تنظيماً مُختلفاً يعجزون عن تصوُّر العالم بالطريقة نفسها. . .

ـ نفتقر إلى البراهين المُبينة للتأكيد على صحّة هذا الأمر. ويبدو بالأحرى أنَّ اللُّغة تكون مستقلَّةً بما فيه الكفاية عن الفِكر، وأنَّه على أيّ حالٍ ليس من شأن التكلُّم بلغةٍ ما أن يجعل متكلِّمي هذه اللُّغة يُفكِّرون بطريقةٍ خاصَّةٍ، فنحن جميعاً نملك الدِّماغ نفسه، بمعزلٍ عن التجارب الشّخصيّة، كما أنَّ اللُّغات تسلك الدروب نفسها، على غرار التبدّلات النحويّة المقَوْلبة ومعاني الكلمات التي تحدَّثنا عنها آنفاً.

لغاتٌ على شفير الانقراض

ـ لنرجِع إلى مسألة تنوُّع اللُّغات المحكيّة اليوم. أليست هذه الثروة التي هي ثمرة تاريخ طويلٍ، في دائرة الخطر اليوم؟ إذ لا ننفكُّ نسمع التحذيرات بشأن اندثار اللُّغات الوشيك؟

ـ هذه حقيقة الأمور. فبحسب الاختصاصيِّين في دراسة الوضع اللُّغويّ المستقبليّ، ستُمحى 3 آلاف لغةٍ تقريباً، أي ما يوازي الـ 50

بالمئة منها، عن سطح الكرة الأرضيّة بحلول نهاية هذا العصر، ويرفع الاختصاصيون الأكثر تشاؤماً هذا الرقم إلى 90 بالمئة من مجمل اللُّغات! ومن اليسير جدّاً التنبُّؤ باندثار لغةٍ ما، إذ يكفي أن نلقي نظرةً على هَرَم أعمار الأشخاص الذين يتكلَّمونها؛ فإذا رأينا أنَّ قاعدته تصغر، أي إذا توقَّفت الأجيال الصاعِدة عن تعلُّمها، تكون هذه اللُّغة محكومةً بالاندثار على أجَلٍ يطول أمده بدرجاتٍ متفاوتةٍ. وللأسف إنَّ عدداً كبيراً من اللُّغات هو اليوم في وضعٍ مماثلٍ.

ـ ولكن هل الأمر كارثيٌّ فِعلاً؟ فبعد كلّ حسابٍ، ليست هذه، كما سبق ورأينا، أوّل موجة انقراضٍ لغويٍّ يشهدها تاريخ البشريّة.

ـ يكون انقراض أيّ لغةٍ أشبه بالكارثة دوماً، لأنَّ ذلك يعني تلاشي فنّ عمارةٍ يكون على جانبٍ من التعقيد وحصيلةَ سنواتٍ طويلةٍ من التطوُّر، كما أنَّه يعني خسارةً نهائيّةً لثقافةٍ بكاملها ولأدبٍ شفهيٍّ برمّته ـ لأنَّ الانقراض غالباً ما يطالُ لغاتٍ غير مكتوبةٍ ـ ولمجموعةٍ من التقاليد والأغاني والقصص والأساطير. . . وربَّما أيضاً لأفكارٍ تفيد البشريّة. ناهيك عن أنَّ معجم مفرداتها وقواعدها الصرفيّة والنحويّة تنطوي، كما سبق وذكرنا، على كميّةٍ من المعلومات قد تسمح بإعادة بناء تاريخ مجموعةٍ من السكَّان ومراحل اتِّصالها بلغاتٍ أخرى وعلاقات القربى التي تربط بينها. . . إلى ما هنالك. ومن هذا المنظار، يُعدُّ فناء بعض اللُّغات خسارةً جسيمةً تؤثِّر على فهمنا لتاريخ البشريّة. ويحضرني مثَل اللُّغة التسمانيّة (Tasmanien): عندما وصَلَ البريطانيّون إلى تسمانيا (Tasmanie) في القرن التاسع عشر، أبادوا السكَّان. . . لم يُصَرْ إلى إلغاء أهل البلد الأصليِّين وكأنَّهم حيواناتٌ ضارّةٌ وحسب، بل إلى محو ثقافتهم وتاريخهم عن بكرة أبيه من ذاكرة العالم، لأنَّ أحداً لم يُسجِّل لغتهم. والحال أنَّ الكلمات القليلة التي بقيت منها لا تُظهِر أيَّ تشابهٍ جليٍّ مع اللُّغات

الأوستراليّة المُجاوِرة. وبخسارة اللُّغة التسمانيّة، فقدنا قطعةً من البازِل (puzzle) على جانبٍ من الأهميّة.

ـ ما الذي يجعل اللُّغات تفنى إلى هذا الحدّ؟

ـ تندثر اللُّغات لأنَّ المتكلِّمين أنفسهم يختارون التخلّي عنها، فقد يُقرِّر مثلاً الرجال والنساء الناطقين بلغتَين عدم نقل لغتهم الأولى إلى أولادهم، لكي يتكلَّم هؤلاء اللُّغة المُهيمنة فيحظون بفرصٍ أفضل في المُجتمع. ويعود هذا الخيار لهم، وهو ليس بالضرورة وليدَ حسابٍ خاطئٍ، فهو على أيّ حالٍ فعلٌ غير مُدانٍ أخلاقيّاً، وهذا تحديداً ما حصل بعد أن افتتحَ قيصر (César) بلاد الغال، حيثُ قرَّر السواد الأعظم من السكّان الغاليّين عدم تعليم اللّغة الغاليّة لأولادهم لكي يتمكَّن هؤلاء من الاندماج بشكلٍ أفضلٍ في العالم الرومانيّ. وبعد مضيّ 500 سنةٍ، أي في منتصف الألفيّة الأولى تقريباً، لم يعد أحدٌ يتكلَّم اللُّغة الغاليّة في فرنسا، وبات الجميع يتكلَّم لغةً متحدِّرةً من اللاتينيّة كانت في طور التطوُّر باتِّجاه اللُّغة الفرنسيّة، ولم نحتفظ إلاّ ببضع عشراتٍ من كلمات هذه اللُّغة السّلتيّة، على غرار كلمتَي **بلّوط** (chêne) و**قُبَّرة** (alouette). والتاريخ يُعيد نفسه اليوم في المكسيك، حيثُ يتخلّى الأمَرنديّون عن لغتهم ليتكلَّموا اللُّغة الإسبانيّة. وصحيحٌ أنَّ هذا الخيار يعود إلى الأفراد، ولكنَّنا نأمل أن تقوم الدول بتشجيعهم على الحفاظ على لغتهم بدلاً من التخلّي عنها.

ـ أوَليس الجديد اليوم هو تسارع وتيرة هذه الانقراضات؟

ـ أجل، فتاريخنا حافلٌ باللُّغات البائِدة، إلاّ أنَّ الحساب الختاميّ بين عدد الوفيّات وعدد الولادات سيكون من الآن فصاعِداً خاسِراً. ويُعدُّ هذا الأمر أحد العوارض الجانبيّة الناجمة عن العولمة، بحيثُ إنَّ البلدان صاحبة الاستثمار الصّناعيّ والتنميّة واقتصاد السوق

تعمدُ إلى نشر لغاتها... وتُجهِز على سائِر اللُّغات. وإنَّ اللُّغات التي يكون لها الغلبة هي بلا منازعٍ تلك التي تُقدِّم لمستخدميها إمكانيّات ترقيةٍ اجتماعيّةٍ أكبر. وتجريَ الأمور على هذا المنوال منذ العصر الحجريّ الحديث، حين تطوَّرت اللُّغات التي حملها المزارعون المزوَّدون بالتقنيات الأكثر تقدُّماً... ولا زال هذا المَدرَج مستمرّاً.

فلتحيَ ازدواجيّة اللُّغة!

ـ هل يعني ذلك أنَّنا سنتكلَّم جميعاً يوماً ما اللُّغة الإنجليزية أو اللُّغة الصينيّة كما يتكهَّن به البعض؟

ـ لا يُمكننا أن نستبعد إمكانيّة أن تتكلَّم البشريّة جمعاء لغةً واحدةً في المستقبل البعيد، ولكن يَبدو ذلك بعيد الاحتمال في العصور القليلة القادمة، إنَّما ليس باعتبار هذه اللُّغة لغةً أولى على أيّ حالٍ، إذ لا تدوم هيمنةٌ ثقافيّةٌ معيَّنةٌ على المستوى العالميّ لوقتٍ طويلٍ بما يكفي ليخوِّلها فرضَ لغتها على العالم بأسره! فستزول لغاتٌ عديدةٌ، كما رأينا، وسيزداد أكثر وأكثر وزن تلك المحكيّة على نطاقٍ واسعٍ. بيد أنَّ غالبيّة اللُّغات التي تحميها دولةٌ معيَّنةٌ، فضلاً عن قسمٍ كبيرٍ على الأرجح من تلك التي تملك كتابةً، ستنجو من الهلاك.

ـ نُدرك جيّداً السبب الذي يجعل من الكتابة عامل حمايةٍ. فكم هو عدد اللُّغات المكتوبة تحديداً؟

ـ هذا سؤالٌ عويصٌ آخر! ليس في جعبتي إحصائيّاتٌ موثوقةٌ، إذ يصعبُ ببساطةٍ تمييز الحالات التي تكون فيها الكتابة موجودةً باعتبارها قليلة الاستعمال أو غير مستعملةٍ إطلاقاً (وغالباً ما نُصادف هذا الوضع حين يكون المبشِّرون قد عمدوا إلى تدوين اللُّغات خطيّاً بغية تنصير الشعوب بشكلٍ أفضلٍ) عن الحالات التي تكون فيها

الكتابة قيد الاستخدام فعلاً. وسأقول ـ رامياً الكرة في ملعب الآخرين ـ إن ثمّة 65 لغةً على الأقلّ يقرؤها عددٌ كبيرٌ من القرّاء الشبّان، بما أنَّ هذا الرقم يرمز إلى عدد اللُّغات التي تُرجِم إليها كتاب **هاري بوتير** (*Harry Potter*)! أمّا الموقع الإلكترونيّ <www.omniglot.com>، فيورِدُ ترجمة البند الأوَّل من شرعة حقوق الإنسان بـ 314 لغةً، وهذا مؤشِّرٌ آخر. أمّا اللُّغة الفرنسيّة، فهي لغةٌ مكتوبةٌ، كما أنَّها لغةٌ رسميّةٌ في عدَّة بلدانٍ. ويتمّ على الدوام نقلها إلى الأطفال، وهي تتمتَّع بهرَم أعمارٍ يدلُّ على عافيةٍ، ولا زال عددٌ كبيرٌ من الأشخاص البالغين يهاجرون إلى البلدان الناطقة بالفرنسيّة ويتعلَّمونها كلغةٍ ثانيةٍ. فلا يتهدَّدها أيّ خطرٍ قبل فترةٍ طويلةٍ.

ـ ولكن في الوقت نفسه يقلق البعض من انحطاط اللُّغة الفرنسيّة تحت وطأة اجتياح المُصطلحات الإنجليزية التي يسيء الشبّان استعمالها في كتابة الرسائل القصيرة (SMS). . .

ـ أيّاً يكن ما يقوله الصّفائيّون(*) (Puristes)، إنَّه لمن الطبيعيّ أن تتبدَّل اللُّغات. فلو أنَّها لم تكن كذلك لما كانت اللُّغة الفرنسيّة موجودةً، ولكنّا لا نزال نتكلَّم اللُّغة اللاتينيّة! فالتغيير هو أمرٌ طبيعيٌّ، وهو دليلُ صحَّةٍ وعافيةٍ! فلا داعي مُطلقاً لأن نجزَع من «اجتياح» اللُّغة الإنجليزية. ويُعَدُّ الاقتراض اللُّغويّ من لغاتٍ أخرى ضرباً من ضروب التغيير. فهل سنُعيد إلى البريطانيِّين كلمتَي **ردنغوت** (redingote) **وباخرة** (paquebot)؟ فاللُّغات لا تنفكّ تتطوَّر. وبمعنى حسيٍّ أكثر، إنَّ التغيير هو دليل حيويّةٍ.

ـ لنرجع قليلاً إلى الموت المُعلَن الذي يتهدَّد آلاف اللُّغات. أوَلا يضطلع الألسنيّون بدورٍ ما لمواجهة هذا الوضع؟

(*) الصّفائيّون: من يتكلفون الحرص على صفاء اللغة.

ـ نعم، بالطبع. يكمن دور هؤلاء **أولاً** في أن يعمدوا قدر المستطاع إلى تدوين هذه اللُّغات قبل أن تندثِر. **ثمّ** إنَّ بعض الألسنيِّين قد أطلقوا برامج تهدفُ إلى محاولة إنقاذ بعضٍ من هذه اللُّغات، وكانت جهودهم تتكلَّل أحياناً بالنجاح، فعلى سبيل المثال، يبدو أنَّ اللُّغة الهاوايية واللُّغة الماووريّة واللُّغة الغاليّة... قد انتعشَت مجدَّداً. ويحدثُ ذلك حين ينظر المتكلِّمون إلى لغتهم باعتبارها رمزاً لهويّتهم ويُقرِّرون المحافظة عليها بمؤازرة الألسنيِّين في أغلب الأحيان. غير أنَّ هذه الجهود التي لا تُمنى بالفشل حكماً، هي جهودٌ شاقّةٌ. وكان كلّ شيءٍ ليكون أسهل لو أنَّ الحكومات كانت مدركةً لواقع أنَّ ازدواجيّة اللُّغة هي أمرٌ طبيعيٌّ تماماً، ولكن لا يكون الأمر كذلك دائِماً. ففي فرنسا مثلاً، ثمّة هلعٌ عنيفٌ من ازدواجيّة اللُّغة. فمنذ الثورة الفرنسيّة، عمَدَت الحكومات المتعاقبة إلى نشر اللُّغة الفرنسيّة على حساب اللُّغات الإقليميّة الأخرى. وكانت النتيجة أنْ أمسَت هذه اللُّغات كلّها ـ أي البريتانيّة (le breton) والباسكيّة والبروفانسيّة والپيكارديّة... إلخ ـ في وضع حَرِج؛ ما خلا الألزاسيّة، التي تتَّكِئ على اللُّغة الألمانيّة. ونُلاحِظ حالياً أنَّ التاريخ يُعيد نفسه في الصّين، حيثُ تسعى الحكومة إلى إنشاء الوحدة اللُّغويّة من خلال فرض اللُّغة المندرينيّة. ولكن يُخطئ مَن يعتقد أنَّ أحاديّة اللُّغة هي السبيل الوحيد للخلاص على مستوى البلد، إذ من الممكن أن تكون شعوبٌ بأكملها ناطقةً بلغتَين، أو حتّى بثلاث لغاتٍ. فانظري مثلاً إلى الهولنديِّين، فبالرَّغم من أنّ غالبيّة الأشخاص الراشدين يتكلَّمون الإنجليزية، إلاّ أنَّهم لم يتخلَّوْا إلى هذا الحدّ عن لغتهم التي يتعلَّقون بها كثيراً ولا يُفرِّطون فيها.

ـ أترمي إلى القول إنَّ ازدواجيّة اللُّغة هي فرصةٌ مؤاتيةٌ وغنًى؟...

ـ بالتأكيد. فعندما احتلَّ البريطانيّون شاطئ غينيا الجديدة، شكَّكَ البابويّون، وكان معظمهم متعدِّدَ اللُّغات، بذكاء الوافدين الجدد، لأنَّ هؤلاء كانوا يتكلَّمون اللُّغة الإنجليزية فقط! ولقد سألتِني منذ قليلٍ إذا كنَّا سنتكلَّم جميعاً اللُّغة الإنجليزية أو اللُّغة الصينيّة ذات يومٍ... وأجبتكِ بالنَّفي، مع أنَّني مُقتنِعٌ بأنَّ وجود لغةٍ دوليّةٍ يعود بفائِدةٍ على البشر. فلقد أدَّت اللُّغة الصينيّة واللُّغة العربيّة واللُّغة اللاّتينيّة واللُّغة الفرنسيّة دورَ اللُّغة الدوليّة في مناطق مختلفةٍ من العالم. واليوم، تكتسب اللُّغة الإنجليزية امتداداً عالميّاً، لأنَّها لغة المناقشة العلميّة ولغة التبادلات الدوليّة، فمن خلالها تنتقل الأفكار، فلنتعلَّمْها إذاً كلغةٍ ثانيةٍ ليكون لنا دورٌ في هذه المناقشات. ولكن ما من شيءٍ يُلزِمنا التخلِّي عن اللُّغة الفرنسيّة. وهكذا مثلاً، شكَّل تسهيل التبادلات المأرب الذي قصَدَ تحقيقه مبتكرو الإسْبِرانتو، وهي لغةٌ تمّ اختلاقها من ألِفها إلى يائها في مطلع القرن الماضي. وتُبلي لغة الإسبرانتو هذه بلاءً جيِّداً ـ والبرهان أنَّها تتطوَّر! ـ، ولكنَّها لم تصبح اللُّغة العالميّة المرومة. وأقول إذاً بالروحيّة نفسها إنَّه ينبغي ألاّ نخاف من اللُّغة الإنجليزية ولا من اللُّغات الإقليميّة، فمآل البشريّة إلى التعدُّديّة اللُّغويّة.



الحلقة الثالثة

ولادة الكلام الجديدة

منذ الولادة وحتّى قبلها، يستلم كلّ صغيرٍ بشريٍّ المِشعل ويبتكر اللغة مجدَّداً، أسوةً بكلّ سلفٍ من أسلافه من قبله. وبتنا اليوم نفهم بشكلٍ أفضلَ كيفيّة حدوث هذه الولادة الجديدة المُذهلة والدائِمة في دماغ الولد. كما أنَّنا نستخرج من كلّ ذلك إرشاداتٍ قيِّمةً.

الفصل الأول

معارف المولود الجديد

أطفال العالم أجمعون

ـ سيسيل ليستيان: لقد رأينا مع باسكال بيك ولوران ساغار أنَّ اللُّغة كانت منذ القِدم كفايةً فريدةً من نوعها تمتاز بها سلالتنا، أي سلالة الإنسان. واليوم يتكلَّم أبناء جنسنا أكثر من 6 آلاف لغةٍ مختلفةٍ. وننظر إلى كلّ جيلٍ جديدٍ بتأثُّرٍ وإنَّما ليس بدهشةٍ، فالأولاد يتعلَّمون تكلُّم اللُّغات الفرنسيّة أو اليوروبيّة (Yoruba) أو الكنتونيّة مثلاً بوقتٍ أقلّ بكثيرٍ من ذلك الذي يستغرقونه لتعلُّم ربط شريط حذائهم! مع أنَّ اللُّغة تُشكِّل نشاطاً مختلفاً معقَّداً أكثر بكثيرٍ.

ـ **جيسلان دوهان:** «معقَّداً» هي الصفة المناسبة! فإنْ قلتُ لكِ جملةً بسيطةً من مثل «السمكة على الطاولة» («le poisson est sur la table»)، ستنجزين عدّة عمليّاتٍ لتفهميها، فستعمدين أوّلاً إلى التحقُّق من هويّة المتكلِّم، أي أنا بالنظر إلى هذه الحالة، وستعرفين مباشرةً إنْ كنتُ امرأةً أو رجلاً، وإنْ كنتُ جذِلةً أو مرهقةً أو متوتِّرةً وأنا أدلي بهذه الجملة. وستميِّزين في الوقت نفسه الأصوات التي أنطق بها، مستعينةً بترميزٍ صوتي متأثِّرٍ إلى حدٍّ بعيدٍ، كما سنراه لاحقاً، باللُّغة

الأمّ. وبالرَّغم من أنَّ هذه الأصوات تصِل إلى مسامعك على شكل موجةٍ صوتيّةٍ متواصلة على الشكل الآتي: «إنّسمكتعلطّاولة» («lepoissonestsurlatable»)، إلاّ أنَّك تقطّعينها إلى كلماتٍ تنسبين إلى كلٍّ منها معنى، ومن ثمّ تفهمين بُنيتها النحويّة وتفعّلين المعاني المعجميّة كافَّةً المُرتبطة بكلمتَي **سمكة** (poisson) **وطاولة** (table) وتدمجين معها السياق بغية فكّ شيفرة ما أُدلي به، فتدركين أنَّني في الواقع أقول لكِ: «العشاء جاهزٌ ونستطيع أن نجلسَ إلى المائدة لتناوله» («le dîner est servi, on peut passer à table»). . . وبـالـطـبـع، يستغرِق كلّ ذلك وقتاً أقلّ بكثيرٍ من الوقت الذي نحتاجه لتفسيره، إذ إنَّه يستغرق جُزءاً من الثانيّة على الأكثر. ولقد تعلَّمتِ حقيقةَ القيام بهذا الأمر مذ كنتِ طفلةً، وحتّى قبل أن تتعلَّمي ربط شريط حذائك.

ـ ما هو مصدر موهبة الكلام هذه التي يتشاطرها أطفال العالم أجمعون؟

ـ مصدرها دماغهم. فبغية تعلُّم الكلام، نحتاج إلى دماغ، وأكاد أقول إنَّنا لا نحتاج إلى أيّ شيءٍ سواه. فلنفترض مثلاً أنَّ طَفلاً وُلِدَ قبل أوانه بكثيرٍ ووُضِعت له أجهزةٌ للتنفُّس الاصطناعيّ، فهو سيكون عاجزاً تماماً عن استخدام جهازه الصوتيّ المحرِّك، ولكنَّه سيتعلَّم التكلُّم رغم كلّ شيءٍ. فصحيحٌ أنَّه لا يستطيع أن ينطقَ ولكن باستطاعته أن يفهمَ. وهذا هو قوام ملَكَة اللغة قبل كلّ شيءٍ، إذ سيكون هذا الطفل قادراً على اكتساب المعلومة ومعالجتها والإجابة عنها من خلال الإيماءةِ والغَمز . . . إلخ. وتعدُّ مَلَكة اللغة في الواقع كفايةً دماغيّةً بحتة. ولكن بغية التعبير عن هذه الكفاية، سيعمدُ الدماغ طبعاً إلى تجنيد «ناقلاتٍ» تكون في أغلب الأحيان جهاز النطق المؤلَّف من الفم والحنجرة والوترين الصوتيّين، من أجل إنتاج الكلام. أمّا بالنسبة إلى الأطفال الصّم، فهم سيستخدمون أيديهم «للتكلُّم» بلغة الإشارات.

ـ هل يبدأ هذا التعلُّم منذ لحظة الولادة؟

ـ لا بل قبل ذلك بكثيرٍ! عندما يكون الطفل جنيناً. إذ إنَّ التعلُّم يبدأ ما أنْ يُصبح جهاز الجنين السّمعيّ عمليّاً، أي خلال الفصل الأخير من فترة الحَمل، حين تكون الأذن قد تكوَّنت جيِّداً والقنوات العصبيّة كلّها قد أخذت مكانها. فمنذ ذلك الوقت يبدأ الجنين بسماع الأشخاص يتكلَّمون من حوله. ولكن طبعاً ليس مثل ما يسمعهم المولود الجديد. ويُعزى سبب ذلك **أوّلاً** إلى واقع أنَّ الجنين يكون مُحاطاً بالماء، فهو يسبحُ في السائل السابيائيّ (amniotique)؛ **وثانياً**، إلى أنَّ الحاجز الذي يُشكِّله عضل رحم والدته وجدارها البطنيّ من شأنه أن يُخفِّف من حدّة هذه الأصوات؛ **وثالثاً** وأخيراً، إلى واقع أنَّ الضجيج يُموِّه جزئيّاً كلام والدَيه، ذلك لأنَّ الرَّحم، الذي نتخيَّله وكأنَّه عالم الصمت والسكون، هو على العكس تماماً صاخبٌ للغاية جرّاء التدفُّق الدمويّ الشريانيّ في المشيمة والكركرة المِعَويّة وخفقان قلب الوالدة . . . إلخ. وتكون النتيجة كالآتي: يستطيع الجنين أن يسمع صوت والده ولكنَّ صوته يكون بعيداً ما لم يتكلَّم هذا الأخير وهو ملتصِقٌ ببطن زوجته! فوحده صوت الوالدة يكون قريباً للغاية لأنَّه ينتقل عن طريق الهواء أسوةً بالأصوات الأخرى، ولكن أيضاً عن طريق الذبذبات التي يَرتدّ صداها في العِظام والأنسجة. . . وصولاً إلى أذن الجنين.

في ضوضاء أحشاء الأمّ

ـ كيف نعلمُ أنَّ الطفل يتأثَّر بالكلام وهو بعدُ في ضوضاء أحشاء والدته، وأنَّه قد بدأ فعلاً مسيرته في تعلُّم اللغة؟

ـ لقد أخضعناه للاختبار. فقد قامَ الفرنسيّ جان بيار لوكانوييه (Jean-Pierre Lecanuet) في الثمانينيّات بإحدى أولى التجارب في هذا الصدد، حيثُ عمدَ إلى قياس سرعة نبضات قلوب أجنَّةٍ تتراوح

أعمارهم بين 36 و40 أسبوعاً، بواسطة جهاز المراقبة الموجّهة (هو نفسه الذي يُستعمَل لدى التوليد)، بينما كان يُشغِّل مكبِّراً للصوت وضعه على بطن الوالدة. وكان هذا المكبِّر يبثُّ أوّلاً عبارة «بابي ـ بابي ـ بابي. . .» («babi-babi-babi...») ومن ثمّ عبارة «بيبا ـ بيبا ـ بيبا. . .» («biba-biba-biba...»)، وكان النَّظم القلبيّ لدى الأجنَّة يتبدَّل بمنهجيّةٍ، فاستنتجَ بالتالي أنَّهم يسمعون الأصوات الخارجيّة ويُحلِّلونها. ولقد بتنا نعرفُ اليوم أنَّ هذه الاتِّصالات الأولى مع الكلام تُخلِّفُ بصمةً ذاكراتيّةً لدى الأطفال. إلاّ أنَّ الشكوك كانت تساورنا بشأن ذلك، بسبب دراسةٍ أخرى أُجريَت على نساءٍ حوامل يسكنَّ قرب مطار أوساكا (Osaka) الذي فيه حركة طيرانٍ كثيفةٌ، حيثُ تمَّت مقارنة مواليدهنَّ بُعَيدَ الولادة مع مواليدِ أخريات أتين حديثاً للإقامة في الجوار، ولوحِظَ أنَّ هؤلاء الذين كانت عائلاتهم تقطنُ على مقربةٍ من المطار منذ وقتٍ طويلٍ كانوا لا يحرِّكون ساكناً حين تُقلِع الطائرة، في حين أنَّ القادمين الجدد كانوا ينتفضون. . . ومردّ هذه الشكوك إلى أنَّه قد يخطر لنا بالطبع أنَّ هذا التصرُّف كان متأثِّراً بتصرُّف الأمّهات المنزعجات بدورهنَّ من الضجيج. ولذلك، تمّ إعداد اختبارٍ مراقبٍ أكثر، يقضي بالطَّلب من بعض الأمَّهات الحوامل إنشاد أرجوزةٍ عَدِّيَةٍ[*] (comptine) أو أغنيةٍ صغيرةٍ، على غرار **دجاجة على الحائط**. . . *(Une poule sur un mur...)*، خلال الأسابيع الأخيرة من فترة الحَمل، والطلب من أمَّهاتٍ أخرياتٍ إنشاد أرجوزة عَدِّيَة أخرى، من مثل «واحد اثنان ثلاثة»[**] (Am stram gram). بعد الولادة،

(*) الأرجوزة العَدِّيَة: كلام موزون يغنّى لمعرفة مَنْ يقع عليه الاختيار أو من يتم استثناؤه.

(**) Am stram gram: هذه الأرجوزة العَدِّيَة ذات الكلمات التي لا معنى لها بالفرنسية، هي تحوير لفظيّ لأرجوزة عَدِّيَةٍ ألمانية، وهي – كالرَّدّيات جميعها ـ تبدأ كلماتها بالعد: واحد اثنان ثلاثة.

أخضعنا الأطفال للاختبار لمعرفة أيّ عَديّةٍ كانوا يُفضِّلون سماعها، ففازت العَديّة المألوفة بالغلبة في مجمل التصويتات تقريباً، ممّا يقيم الدليل على أنَّ هؤلاء المولودين الجدد قد تعلَّموا شيئاً ما عندما كانوا في أحشاء والدتهم.

ـ إذاً من شأن ذلك أن يُعزِّز موقف الأشخاص الذين يُنادون بإسماع الأطفال وهم لا يزالون في أحشاء والدتهم موسيقى لموزار أو نصوصاً إنجليزيةً لتنمية ذكائهم؟

ـ كلا، فلا ينبغي أخذ هذا الأمر على محمل الجدّ أكثر من الرغبة في تناول الفراولة أثناء فترة الحمْل، والذي يُقال إنَّها تترك وَحماتٍ على أجساد الأطفال، فلن يؤدِّي إسماع الطفل الموسيقى الكلاسيكيّة أو التحدُّث في الأدب معه إلى زيادة حاصله الذكائيّ (ح. ذ.)! ولكن من جهةٍ أخرى، لا ضَير من فعل هذه الأمور! فإنْ كان للأمّ رغبةٌ في التواصل مع طفلها بهذه الطريقة، فما المانع؟ ولكن إذا تكلَّمنا بصورةٍ علميّةٍ، لا يسعنا أن نغالي في تفسير النتائِج التي أفرزتها هذه الاختبارات. فهي تُبيِّن ببساطةٍ أنَّ الجنين يتحضَّر لتعلُّم الكلام ما أنْ تُشارِف فترة الحَمْل على نهايتها. وهذا أمرٌ لا يُستهان به، إذ يُبرهِن المولودون الجدد غبَّ الولادة عن كفاءاتٍ جديرةٍ بالملاحظة، فهم يستطيعون مثلاً في اليوم الثالث أو الرابع من حياتهم التعرُّف على صوت والدتهم بنوعٍ خاصٍّ، وحتّى إنَّه يكون بمقدورهم تمييز لغتهم الأمّ عن لغةٍ أجنبيّةٍ أُخرى.

ـ لا ينبغي إذاً تكبُّد عناء تحويل طفلنا إلى نابغةٍ، فهو أصلاً نابغةٌ!

ـ ليس إلى هذا الحدّ ربَّما. ولكن، من دون أن نسقط في المبالغات الإعلاميّة الحاليّة التي تجعل من الرضيع كائِناً كليّ العِلم،

فقد سمحت لنا أعمال علم النفس المعرفي خلال السنوات الماضية بمعرفةِ أنَّ الجنين لا يكون ـ كما كنَّا نخال لفترةٍ طويلةٍ ـ يرقانةً، أي **كائناً غُفْلاً** (*tabula rasa*) بانتظار أن ينطبع ببصمة محيطٍ معيَّنٍ يزوِّده تدريجيّاً بقدراتٍ تزداد تعقيداً أكثر فأكثر، بل نقع لدى المولودين الجدد على بداءاتٍ لعددٍ لا يُستهان به من المهامّ المعرفيّة السامية، على غرار مَلَكة اللغة، ولكن أيضاً الحِساب، وحتّى أنَّنا نجدها أيضاً لدى الجنين كما رأينا للتوّ.

صوت الماما

ـ ليس الرضيع يرقانةً، ولا شكَّ أنَّ الأهل كلَّهم سيوافقونكِ الرأي. ولكن مهما كان حبُّهم لطفلهم يُعميهم، فإنَّهم لا ينجحون بسهولةٍ في الكشف عن وجود الكفايات اللُّغويّة أو الحسابيّة لديه قبل بلوغه عدّة أشهرٍ على الأقلّ...

ـ يملك الباحثون أدواتٍ لاختبار الصِّغار يفتقر إليها الأهل، ونذكر منها على سبيل المثال تقنية «الرضاعة غير الغذائيّة» القديمة، التي تقضي بجعل الطفل يستلقي بهدوءٍ وسكينةٍ على كرسيٍّ طويلٍ وإعطائه مصّاصةً مزوَّدةً بلاقطِ ضغطٍ موصولٍ إلى حاسوب. وحين يجفُّ الحليب عند المفتاح، تتَّخذ رضاعة الطفل شكلاً خاصّاً، فتغدو على شكل موجاتٍ متقطِّعةٍ بحيثُ إنَّه يرضع بشكلٍ كثيفٍ في البداية ومن ثمّ يتوقَّف عن الرضاعة وبعدها يرضع بكثرةٍ ويعود فيتوقَّف... ونُسجِّل نَظم رضاعته الأساسيّ، ومن ثمّ نعاين ما الذي يحصل حين نُسمِعه صوتاً بعد كلّ رضعةٍ. ونلاحِظ أنَّ المولود الجديد المُثار فضوله يُضاعِف وتيرة رضاعته، ولكن بعد مضيّ بضعة دقائق يتلاشى مفعول الشيء الجديد وتخفُّ حدَّة الرضاعة، فنُبدِّل الصوت، وإذا ما تنبَّه الرضيع إلى الاختلاف نلاحِظ أن نظمَ رضاعته

يزدادُ لأنَّه يريد أن يفهمَ سبب هذا التبديل، ولكنَّه لا يلبث أن يتعوَّد مجدَّداً على الصوت، ويرجع نظمَ رضاعته ـ بِفِعْل السأَم المساعِد أيضاً ـ إلى وتيرته الطبيعيّة. تتَّصف هذه الطريقة بالطبع بطابعها غير المباشر للغاية، إذ إنَّ الطفل قد يُضاعِف حدَّة رضاعته لأنَّه يشعر بالجوع، أو قد يُخفِّف من حدِّتها لأنَّ النعاس يراود جفونه، ولذلك نُضطرّ إلى إخضاع عددٍ كبيرٍ من الأطفال للاختبار للتأكُّد من أنَّ تبديل الصوت هو الذي يؤدِّي إلى حصول ردّة الفعل هذه لدى الطفل ويجعله يُعدِّل وتيرة رضاعته. ويستخدِم البسيكو ـ ألسنيّ جاك ميلير (Jacques Mehler) هذه التقنية منذ حوالى العشرين سنة ليُبرهِن أنَّ الرضيع الذي يتراوح عمره بين الثلاثة والأربعة أيّام، يكون عاجزاً عن التمييز بين صوتَين عائِدَين لامرأتَين لا يعرفهما. ولكنَّه في المقابل يُميِّز الفرق بين صوت والدته وصوت امرأةٍ أخرى تتحدَّث إلى طفلها! وما هو أفضل بعدُ، هو أنَّ الطفل يتعرَّف في هذا العمر الصغير جدّاً على لغته الأمّ. وكانت هذه الدراسة الأولى التي أجريتها في فرنسا، حيثُ أُلقِيتْ على مسامع أطفالٍ مولودين حديثاً جُملٌ بصوتِ امرأةٍ تتكلَّم باللُّغتَين الفرنسيّة والروسيّة. كانت النتيجة كالآتي: لم يكن الأطفال يُدركون الاختلاف بين اللُّغتَين فحسب، بل بدا أنَّهم يؤثِرون لغتهم الأمّ، لأنَّهم كانوا يرضعون بقوّةٍ أكبر لدى سماعها.

ـ هل اكتسب هؤلاء الصِّغار القدرة على معرفة لغتهم الأمّ خلال الأيّام الثلاثة أو الأربعة من حياتهم، أم أنَّها ترقى إلى فترة مكوثهم في أحشاء والدتهم تحديداً؟

ـ إنَّ الوسيلة الفضلى لمعرفة ذلك تكمن في إخضاع المولودين الجدد للاختبار غبَّ ولادتهم، أي فور خروجهم من غرفة التوليد! ولكِ أن تتصوَّري مدى صعوبة تطبيق هذا الاختبار، فنحن لم نُجرِّبه سوى مرّةٍ واحدةٍ حتّى الآن، حيث قمنا بإسماع المولودين الجدد

الجمل الفرنسيّة والروسيّة نفسها التي أسمعناها للأطفال البالغين 3 و4 أيّام من العمر، ولكنَّهم لم يُدركوا الاختلاف بينهما. والجدير بالذكر أنَّ ظروف الاستماع قبل الولادة وبعدها تختلف اختلافاً شاسعاً، فهي تنتقل من الصوت المخنوق إلى الغنى الطيفيّ كلّه الذي يتمتَّع به الصوت. فلربَّما أنَّ هؤلاء الرُّضَّع لم يحظوا بعد بالوقت الكافي للتعوُّد على هذا التبديل، كما أنَّنا لسنا أكيدين إنْ كانوا قادرين لدى الولادة على ضبط رضاعتهم، باعتبار أنَّه لم يسبق لهم أن رضعوا من قبل! وهنا تكمن إشكاليّة النتائج السلبيّة التي نحصل عليها، إذ لا يسعنا أن نؤكِّد ما إذا كان الطفل يجهل تنفيذ ما يُطلَب منه، أم أنَّ الموضوع لا يُثير اهتمامه في تلك اللَّحظة بالذات ليُبرهن لنا أيّ شيءٍ مهما يكن. . . ولذا، لا بدّ لنا من تكرار هذه التجارب باستمرارٍ للتأكُّد من صحّة نتائِجها. ولا يتمّ ذلك بالسهولة التي نخالها، إذ لا يكون الأطفال متعاونين دائِماً، فبعضهم يغرق في السبات العميق والبعض الآخر يُجهِش بالبكاء. . . إلخ. ومن النافل القول إنَّنا لا نلجُّ عليهم، لأنَّ هدفنا لا يكمن في إساءة معاملة هؤلاء الرُّضع بل في كشف النقاب عن كفاياتهم. وعليه، فبغية التحقُّق من صحّة نتيجةٍ واحدةٍ، نجد أنفسنا مجبرين على إخضاع مجموعةٍ كبيرةٍ من الأطفال للاختبار لا يقلّ عددهم عن الـ 80 طفلاً. وقد لا يبدو لكِ هذا الرقم كبيراً، ولكنَّه يتطلَّب ستَّة أشهرٍ من العمل لكلّ اختبارٍ كحدٍّ أدنى. وبالتالي لا تكون إنتاجيّة هذا النمط من الأبحاث استثنائيّةً، كما أنَّ عدداً قليلاً من المختبرات يعمل على هذا الموضوع.

ـ إذا أردنا أن نوجِز، يمكننا أن نقول إنَّ الأطفال يكونون بُعَيد الولادة، أي بعد مضيّ 3 أو 4 أيّام، موهوبين للغاية، إذ إنَّهم يتعرَّفون على لغتهم الأمّ وعلى صوتٍ والدتهم. . .

ـ نعم، تكون لديهم أصلاً كفاياتٌ مثيرةٌ للاهتمام. إنَّهم لا

يتعرَّفون بعدُ ـ على ما يبدو ـ على صوت والدهم الذي كان أقلّ حضوراً في حياتهم داخل الرَّحم من صوت والدتهم. ويؤسفني ذلك بالنسبة إلى الآباء! ولكنَّهم يتعرَّفون على الأراجيز التي كانت تنشدها لهم والدتهم خلال فترة الحَمل، كما أنَّهم يُميِّزون تماماً مختلف أنماط الأصوات، من كلامٍ وضجيج وموسيقى. . . إلخ. ولكنَّهم يُفضِّلون ـ وبأشواطٍ بعيدةٍ ـ سماع الكلام، وبوجهٍ خاصٍّ كلام الماما! وهم يُميِّزون الـ «ba» عن الـ «pa» مثلاً، وكذلك كلمة «biba» عن كلمة «babi»، ويفضِّلون سماع المقاطع اللَّفظيّة السليمة البُنية من مثل «pat» على سلسلاتٍ تتعاقب فيها الأحرف الصامتة، من مثل «pft». كما أنَّهم يدركون عدد المقاطع اللَّفظيّة في الكلمات، ويتنبَّهون حين ننتقل من لائحة كلماتٍ مؤلَّفةٍ من مقطعَين لفظيَّين إلى لائحةِ كلماتٍ أخرى مؤلَّفةٍ من ثلاثة مقاطع لفظيّةٍ، حتّى أنَّهم قديرون أكثر من الأشخاص البالغين، إذ إنَّهم يدركون فوارقَ لا نُدركها نحن البالغين، لأنَّنا لا نستخدمها في لغتنا. وهكذا مثلاً يشقُّ على الأشخاص البالغين اليابانيِّين أن يُميِّزوا الصوت «r» عن الصوت «l» بينما يُجيد المولودون الجدد فعل ذلك على أكمل وجهٍ. . .

«Ba-be-bi-bo-bu»

ـ نصل هنا إلى السؤال الكلاسيكيّ، ومفاده: هل هذه الكفايات فِطريّةٌ أم مكتسبةٌ؟

ـ هذا هو تحديداً بيت قصيد الجدل. فالجميع يُقرّ بأنَّ اللُّغة تتَّصف بطابعها المُكتسب، بما أنَّ الطفل يتعلَّم اللُّغة الخاصّة ببيئته. ولكن ما يُشكِّل موضوع نزاعٍ إنَّما هو الآليّات الدماغيّة التي تسمح لصغير الإنسان بتعلُّم الكلامٍ. وتقضي **الفرضيّة الأولى** بما يلي: جلّ ما زوَّدنا به التطوُّر هو دماغٌ أكبر بكثيرٍ (مقارنةً مع أبناء عمِّنا قِرَدة

الشمبانزي)، ويمدُّنا هذا الدماغ الكبير بقدراتٍ «حسابيّةٍ» استثنائيّةٍ، فالأمر أشبه بحاسوبٍ كبيرٍ. ومن شأن هذه القدرة الحسابيّة الكبيرة أن تجعلنا على هذا القدر من الذكاء، وهي التي سمحت لنا بابتكار اللُّغة، أسوةً بابتكار الموسيقى والرياضيّات وغيرها. يكون تعلُّم الكلام في هذه الحالة تدريباً كسائر التدريبات، غير مرتكزٍ على أيّ خاصيةٍ دماغيّةٍ. أمّا **الفرضيّة الثانية**، فتقضي بما مفاده: لقد زوّدنا تاريخنا التطوُّريّ بنظام تواصلٍ خاصٍّ وفريدٍ، ونعني به اللغة، تماماً كما نمّى التاريخ التطوُّريّ نظاماً خاصّاً لاستشعار العوائق والطرائد لدى الخفّاش، وهو جهاز كشف الحواجِز الذي لا تملكه لا السناجب الطائِرة (écureuils volants) ولا العصافير. وعليه، يحتوي دماغنا على ضفائِرَ عصبيّةٍ خاصّةٍ تُعنى بمعالجة الكلام وتكون ناشِطةً منذ البداية وهي التي تُفسِّر ميل الطفل للغة، وهي التي تدفعه إلى اصطفائه الكلام من بين الأصوات كلِّها التي تبلغ مسامعه والتعرُّف على الرموز وتواليف رموز اللُّغة المحكيّة من حوله.

ـ ما هي البراهين التي يقدِّمها مناصرو الفرضيّة الأولى القائلين إنَّ الدماغ البشريّ لا يحتوي على نظامٍ فطريٍّ مختصٍّ باللغة؟

ـ سأُعطيكِ واحداً منها يتعلَّق بتمييز الفونيمات. إنَّ الفونيم هو أصغر وحدةٍ صوتيّةٍ في الكلمة. فمثلاً، تحتوي كلمة **مركب** (bateau) على أربعة فونيمات هي «b» و«a» و«t» و«o»، ولا يُفرِّقها عن كلمة **قالب الحلوى** (gâteau) إلاّ الفونيم الأوّل الذي يكون إمّا «g» أو «b». وإنَّ قوالب البناء الأوّليّة هذه أساسيّةٌ لغنى التواصل، لأنَّها تسمح لنا بتوليد كلماتٍ عديدةٍ من خلال جمعها بطريقةٍ مختلفةٍ. ولسنا متيقِّظين إلى واقع أنَّنا لا ندرك الفونيمات كإدراكنا لسائِر الأصوات المحيطة بنا. ففي الواقع، ثمّة خاصيّتان أساسيّتان لفهم الكلام، ألا وهما: التوحيد القياسيّ والتصنيف. وتتجلّى الأولى في

قدرتنا على التعرُّف على الفونيم نفسه بالرَّغم من الاختلافات الكبيرة في الإشارة الصوتيّة. وبكلامٍ آخر، قد يُقال لكِ «ba» بكلِّ النبرات، فقد يقولها لكِ أحدهم وهو يتنهَّد أو وهو يصرخ أو وهو يهمس، إلى ما هنالك، وقد يقولها كذلك بصوتٍ خفيضٍ أو مرتفعٍ، ولكنَّكِ ستسمعين دائماً «ba». ممّا يدلّ على أنَّكِ تهملين الاختلافات الصوتيّة الكبيرة على نحوٍ يُمكِّنكِ من المحافظة على وحدة تطابق الفونيم «ba». أمّا التصنيف، فهو منوطٌ بواقع أنّنا نرسم حدوداً واضحةً تفصل بين الفونيمات، فمثلاً: إذا انتقل صوتٌ اصطناعيٌّ تدريجيّاً من قول «ba» إلى قول «da»، فلن تدركي التدرُّج الصوتيّ، وستسمعين إمّا «ba» أو «da». وخِلافاً للتوحيد القياسيّ، سيُغيِّر هنا التبديل الدقيق في الإشارة الصوتيّة تمييزَك تغييراً جذريّاً، فينقلكِ من الـ «ba» إلى الـ «da». ولطالما اعتقدنا أنَّ هذا التمييز التصنيفيّ كان ميزةً بشريّةً صرْفة... إلى أن تمّ ذات يومٍ تعليم حيوانات الشَّنشليّة(*) (Chinchillas) القيام بالأمر نفسه! ومنْ ثمّ تعلَّمت ذلك عصافير الدوريّ. فإنْ كانت العصافير التي لا تتكلَّم تُجيد التمييز بين الـ «ba» والـ «da»، أين تكمن إذاً الخاصيّة البشريّة؟ لا بدّ أنَّها تكمن في حجم الدماغ. بيد أنَّ أنصار الفرضيّة الثانية، وأنا واحدةٌ منهم، يُجيبون بأنَّ الدوريّ لا يتعلَّم وحده تمييز الـ «با» عن الـ «دا»، بل ينبغي تدريبه لفعل ذلك. وإذا بدَّلنا الفونيم الصائت «a» بالفونيم الصائِت «i»، ليُصبح لدينا «bi» و«di»، يترتَّب علينا إعادة تدريبه من الصفر. فالأمر مختلفٌ تمام الاختلاف مع ما يجري لدى صغير الإنسان. وإليكِ مثلٌ آخر: تستطيع قِرَدة الميداس، وهي قِرَدةٌ من أميركا الجنوبيّة، أن تُميِّز اللُّغة الأميركيّة عن اللُّغة اليابانيّة، أسوةً

(*) الشنشليّة: حيوانات من القوارض، تنشط وقت الغسق، وهو ظلمة أول الليل، تصاد لفرائها الثمينة.

بالمولودين الجدد! وهكذا، تبدو بعض الكفايات التي يتمتّع بها المولود الجديد شبيهةً إلى حدٍّ بعيدٍ بتلك التي تملكها حيواناتٌ أخرى، إنَّما بعد مضيّ بضعة أشهرٍ يتفوَّق الصِّغار البشريِّين عليها، وبمنتهى السهولة على ما يبدو. ويتعيَّن علينا إذاً معرفة سبب ذلك.

رضيعٌ في مغنطيسه

ـ هل اللغة هي إذاً بمثابة وَحْدةٍ كامنةٍ في الدماغ ترتكزُ على آليّاتٍ دقيقةٍ ومحدَّدةٍ وتكون مستقلَّةً إلى حدٍّ معيَّنٍ عن سائِر الوظائِف المعرفيّة لا بل حتّى عن الذكاء؟

ـ على ما يبدو، تؤيِّد الأعمال التي نُنجزها منذ بضعة أعوام في مجال التصوير الطبقيّ الدماغيّ هذه الفرضيّة. فلقد ثَبُتَ وجودُ أجهزةٍ عصبيّةٍ مُكيَّفةٍ تماماً لمعالجة الكلام في دماغ المولودين الجدد. ولنتناول مجدَّداً مثل تمييز الفونيمات. فبغية معرفة إنْ كان تمييز الفونيمات يُفعِّل لدى أطفالٍ رضَّع تتراوح أعمارهم بين اليومَين والشهرَين المناطقَ نفسها التي تتفعَّل لدى الشخص البالغ، لجأنا إلى استعمال الطريقة المُسمّاة «طريقة الطاقات الكامنة المُثارة» والتي تقضي بتسجيل النشاط الكهربائيّ الذي يقوم به الدماغ. ولهذا، نضع على رأس الطفل «قلنسوةً جميلةً» من اللَّواحِب (électrodes) هي عبارةٌ عن شبكةٍ مزوَّدةٍ بـِ 64 لاقطاً (capteur) (ولدينا نموذجٌ آخر يحتوي على 128 لاقطٍ يُستعمَل لإجراء الاختبار على الأشخاص البالغين)، ومن ثمّ نعطي الولد حافِزاً معيَّناً، كضوءٍ أو صورةٍ أو صوتٍ. وعليه، ستُقوم منطقة الدماغ التي تُعالِج هذا الحافِز لديه بتعديل نشاطها العصبيّ، أي بالتالي نشاطها الكهربائيّ الذي نقوم بتسجيله، ويقتضي بالطبع إجراء بعض الحسابات لإزالة ضجيج الخلفيّة، لأنَّ الدماغ لا يتعطَّل أبداً عن العمل، وتعيين

الطاقة الكامنة التي يُثيرها تحديداً هذا الحافِز. ونُظهِّر بعد ذلك كلّ شيءٍ في صورٍ، بغية تلخيص النتائج الكهربائيّة التي حصلنا عليها. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه التقنية هي في الحقيقة سهلةُ الاستعمال للغاية بحيثُ يجلس الطفل مستريحاً على ركبتَي والدته معتمراً قلنسوة اللَّواحِب، فنلقي على مسامعه السلسلة الصوتية التالية «ba, ba, ba, ba, ba, ba, ba» تليها السلسلة الصوتيّة التالية «ba, ba, ba, ba, da...» على سبيل المثال، أم أنَّنا نُخضعه لاختبار تغيُّر الصوت أو تبدُّل الرنَّة أو تغيُّر صوتَين إلكترونيَّين... وماذا نرى؟ يُشغِّل الرضيع المناطق الدماغيّة عينها التي يُشغِّلها الشَّخص البالغ!

ـ المناطق نفسها تماماً؟

ـ نعم. يُفعِّل تبديل الفونيم المناطق الصدغيّة اليُسرى، في حين تلتقط نصف كرة الدِّماغ اليُمنى تبدُّل الصوت. والأمر سيَّان لدى الطفل ولدى الشَّخص البالغ، بالحدّ الذي تسمح لنا تقنيَة التصوير الطبقيّ هذه بمراقبته. والجدير بالذكر أنَّ لهذه التقنيّة مزايا عديدةً، أبرزها: سهولةٌ كبيرةٌ في الاستعمال، ودقَّةٌ زمنيّةٌ كبيرةٌ، إذ نستطيع أن نتتبَّع سير معالجة الحافِز مِلِّيثانية (milliseconde) بمِلِّيثانية. ولكنَّ لهذه التقنية مدًى أقصى تبلغه، ألا وهو: لا تعدو موضعة المناطق الدماغيّة المُفعَّلة كونها موضعةً مُفترضةً. ففي الحقيقة، إنَّ واقع تفشِّي الحقل الكهربائيّ يصعِّبُ معرفة مصدر النشاطات التي نقيسها على سطح الرأس معرفةً دقيقةً، ممّا يصعِّبُ بالتالي تحديد مكان المناطق الدماغيّة الناشِطة في لحظةٍ معيَّنةٍ. وبغية الحصول على الخريطة الدقيقة للدماغ في طور نشاطه، ينبغي اللُّجوء إلى التصوير بالرنين المغنطيسيّ (IRM)، وهو ببساطةٍ عبارةٌ عن مغنطيسٍ ضخمٍ يقوم على المبدأ التالي: عندما تُفعَّل إحدى مناطق الدماغ، فهي تحتاج إلى كميةٍ أكبر من الأوكسيجين،

فيزداد الدفق الدمويّ فيها، ممّا يُعدِّل الخاصيّات المغنطيسية الخاصّة بالأنسجة.

ـ هل هذا ما نستطيع استبانته بفضل مغنطيس التصوير بالرنين المغنطيسيّ (IRM)؟

ـ بالضبط. ولكن بعكس التقنيّة السابقة، تفتقر هذه التقنيّة إلى الدقَّة الزمنيّة (إذ يلزمُ 6 ثوانٍ لبلوغ الحدّ الأقصى من تبدُّل صبيب الدمّ («débit sanguin») المُرتبط بالنشاط العصبيّ الذي تُطلقه عمليّة معالجة الحافِز). ولكنَّ دقَّتها الجغرافيّة ممتازةٌ، إذ إنَّها تسمح بتطويق المناطق الناشِطة بدقَّةٍ. وتكمن نقطة الاختلاف الأخرى ـ والمهمَّة! ـ بينهما في صعوبة الاستعمال، إذ إنَّ آلة التصوير بالرنين المغنطيسيّ هي آلةٌ ضخمةٌ وتصدر ضجيجاً مُصِمّاً للآذان، وحيثُ ينبغي أن نُمدِّد الأطفال في شيءٍ يُشبِه النفق وأن نضع على رؤوسهم سمَّاعةَ رأسٍ مُضادَّةً للضجيج نُخبِّئ في داخلها مكبِّراتٍ للصوت. والحال أنَّ الأطفال يهلعون أغلبَ الأحيان من النوم في مكانٍ لم يألفوه سابقاً، لأنَّ ذلك يعني بالنسبة إليهم وجوب «النوم» ولا رغبة لهم بالنوم أبداً، بينما تجري أمورٌ جمّة مثيرة للاهتمام من حولهم. ويُمكن أن نصِفَ آلة التصوير بالرنين المغنطيسيّ هذه بكلّ شيءٍ عدا بأنَّها مُبهِجَةٌ! ومع بلوغ الطّفل عامه السادس، يفهم ما نترقَّبه منه، ولكن قبل هذا العمر، يكون الأمر شاقّاً فعلاً، خلا الرضَّع الحديثي الولادة جدّاً، الذين ننجحُ بإلهائهم وتحويل انتباههم بواسطة بعض صورِ الحلزونيّات والوجوه التي نعكسها على مرآةٍ صغيرةٍ مُثبَّتةٍ فوق رؤوسهم، أو أولئك الذين يغرقون بسهولةٍ في النوم، إذ بإمكاننا أن نجري بعض الدراسات على الأطفال حتّى وإنْ كانوا يغطّون في النوم.

ما يقوله الدِّماغ

ـ ما هي النتائج الأولى التي حصلنا عليها بفضل هذه التقنيَات؟

ـ عمدنا بادئ ذي بدءٍ إلى دراسة المركزة الحركيّة(*) لمناطق اللغة في الدماغ. وكما تعلمين، إنَّ هذه المناطق تقع جهة اليسار لدى السواد الأعظم من الأشخاص البالغين، المستخدِمين اليد اليمنى منهم والعسراويِّين على حدٍّ سواء، في حين أنَّها تقع جهة اليمين لدى 5 بالمئة فقط من الكائنات البشريّة، وذلك لأسبابٍ نجهلها، مردُّها على الأرجح إلى الاختلافات البيولوجيّة الطبيعيّة. السؤال الوجيه الذي كان حريّاً بنا طرحه في ما يتعلّق بالمولودين الجدد هو الآتي: هل تكون هذه المركزة الحركيّة الواقعة جهة اليسار موجودةً منذ البداية لديهم أم أنّها ثمرة تعلُّم حافِزٍ معيَّنٍ، ونعني به الكلام الذي تتمّ معالجة خاصيّاته الصوتيّة (على غرار سرعة المعلومة المنقولة، فمثلاً: هل تعلمين أنَّ الاختلاف القائِم بين الفونيم «b» والفونيم «d» لا تتعدّى فترة وجوده الـ 40 مِلّيثانية (milliseconde)؟) بشكلٍ أفضل بواسطة المناطق السمعيّة اليُسرى؟ وكانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك أن يتمّ عَرْض دماغ الطفل وهو يعمل عَرضاً عِيانيّاً، وذلك بواسطة التصوير بالرنين المغنطيسيّ. وبعدُ، لقد بيَّنت الدراسة التي قمنا بها أنَّ إسماع الأولاد البالغين 3 أشهر من العمر لغتهم الأمّ كان يُفعِّل لديهم المناطق الصدغيّة عينها التي تتفعَّل لدى البالغين، مع وجود لاتماثلٍ جليٍّ لصالح نصف كرة الدماغ اليُسرى. وقد سمحت لنا دراسةٌ أخرى بإقامة الدليل على أنَّ هذه المناطق لا تتجاوب دفعةً واحدةً، بل إنَّها مفروقةٌ أصلاً وتتبعُ تنظيماً تراتبيّاً، تماماً كما لدى الشخص البالغ.

(*) المركزة الحركية لدى الصغير هي تحوّل استعداده الحركي بين الثالثة والسادسة من عمره نحو أحد الشقين الأيسر أو الأيمن من جسمه.

ـ **ما هي الخلاصة التي نستنتجها من كلّ ذلك؟**

ـ من شأن ذلك طبعاً أن يؤيِّد فرضيّتنا، ومفادها: إنْ كان الأولاد يتعلَّمون اللُّغة الأمّ، فلا بدّ أنَّ ثمّة ضفائرَ عصبيّةً يُساعِد تنظيمها الخاصّ على هذا التعلُّم. وكانت المفاجأة التي أفرزتها هذه النتائج في أنّنا رأينا أنَّ الفلقة الجبهيّة ـ غير الناضجة إلى حدٍّ بعيدٍ في هذا السنّ لدرجة أنّه كان يتمّ اعتبارها أحياناً عاطلةً عن العمل ـ كانت تضطلعُ بدورٍ ما. وهكذا، ثمّة منطقةٌ جبهيّةٌ واقعة إلى اليمين تتفعَّل لدى الشَّخص البالغ حين يتذكَّر أنَّه سمِعَ كلمةً معيَّنةً، كانت تتفعَّل أيضاً لدى المولودين الجدد حين كانوا يسمعون لغتهم الأمّ، إنَّما حين كانوا مستيقظين فقط وليس حين كانوا يغطّون في النوم، فكما لو أنَّ الطفل يُحدِّث نفسه قائِلاً: «آه! آه! لقد سبق لي أن سمعتُ ذلك في مكانٍ ما» («ah, ah, mais j'ai déjà entendu cela quelque part»). ويستخدِم المولود الجديد هذه المنطقة للتعرُّف على أنَّ نبرة الجملة هي مختصَّةٌ بلغته الأمّ. هذا وكانت منطقةٌ جبهيّةٌ أخرى واقعةٌ إلى اليسار هذه المرّة ويستخدمها الشخص البالغ حين يتوجَّب عليه أن يحفظ رقم هاتفٍ أو جدول الضَّرب عن ظهر قلبٍ، تتجاوب هي أيضاً لدى الطفل حين كان يدركُ أنَّ جملةً ما قد تمّ تكرارها. وبالطبع، لا يعرف الأطفال موضوع الاختبار والبالغين من العمر ثلاثة أشهر لا الكلمات ولا معنى الجملة كما يعرفها الشخص البالغ، ولكنَّهم يستندون إلى العناصر النغميّة في الجُملة، أي إلى إيقاعها ومحيطها الأدائيّ، بغية التمكُّن من تحليلها، فدماغ الرضيع لا يكون مُطلقاً عجينةً ليّنةً بانتظار أن يُشكِّلها العالم الخارجيّ، بل يكون مُنظَّماً في مناطقَ وظائفيّةٍ ستساعده في التعلُّم.

ـ **أتقصدين منطقتَي بروكا وويرنيك اللَّتين سبق أن حدَّثنا عنهما باسكال بيك؟**

ـ ليس هاتان المنطقتان فقط، فإنَّ هاتَين المنطقتَين ـ اللَّتَين اكتشفهما في الأصل طبيبا الأمراض العصبيّة في القرن التاسع عشر، ويرنيك وبروكا، لدى تشريح جثثِ مرضى حبيسي اللسان (aphasiques)، أي الأشخاص الذين يعانون اضطراباتٍ لغوية ـ أساسيّتان طبعاً لإنتاج الكلام وتمييزه، ولكن تتَّخِذ ارتباطات هاتَين المنطقتَين إحداهما بالأخرى وبباقي الدّماغ، فضلاً عن تداؤب هذه المناطق كافَّةً، طابعاً مهمّاً على حدٍّ سواء. وبالعودة إلى التفعيل الذي اكتشفناه في المنطقة الجبهيّة اليُسرى، أي منطقة بروكا، لدى الأطفال الرضَّع موضوع الاختبار البالغين 3 أشهر من العمر، إنَّها مثيرةٌ فِعلاً للدهشة لأنَّ هذه المنطقة تضمن للشخص البالغ إنجاز مهامَّ تكون في هذا العمر إمّا غير ناضجةٍ بعدُ، كإنتاج الكلام، أو غير موجودةٍ حتّى، كإعراب الجملة. غير أنَّ أعمالاً حديثةً ـ سبق أن تحدَّثَ عنها باسكال بيك ـ قد برهنَت وجود خلايا عصبيّةٍ خاصّةٍ تُسمَّى «خلايا عصبيّة مرايا» في المنطقة المُعادِلة لدى قِرَدة الماكاك الآسيويّة، ولا تتفعَّل هذه الخلايا لدى إنجازِ قِرد الماكاك فعلاً ما وحسب، بل أيضاً ما إنْ يرى أو يسمع شبيهاً له يُنجِز الفعل نفسه. وتسمح هذه «الخلايا العصبيّة المرايا» بوجود نظام مشتركٍ بين «تمييز» الحركات وإنتاجها. والحال أنَّ الكلام يستتبع بدوره أيضاً متتاليةً من الحركات النُّطقيّة يشعر بها الطفل حين يلفظ أو يراها حين يُكلِّمه والداه وجهاً لوجه أو يسمعها. وقد تكون إذاً منطقة بروكا أساسيّةً لتوحيد هذه التمثيلات الحركيّة والبصريّة والسَّمعيّة المختلفة. واللافت أنَّ تفعيل هذه المنطقة لا يأتي نتيجة تدريبٍ حركيّ طويل الأمد، بما أنَّ عمر الصِّغار الذين تناولتهم هذه الدراسة كان ثلاثة أشهر فقط، كما أنَّهم بالكاد يلفظون. وبالعكس، قد تُوَجِّهُ هذه المنطقة التعلُّم الحركي عبر خلق متتالياتٍ «نموذجيّةٍ» مبنيَّةٍ على هذا التكامل المتعدِّد الأشكال.

لحن الكلام

ـ من الجميل فِعلاً أن نعلمَ أنَّه بإمكاننا «رؤية» دماغ الأطفال وهو يعمل، فلدينا انطباعٌ بأنَّنا سنكتشف الأسرار كلّها. . .

ـ أوه! لا زال الطريق طويلاً أمامنا! ومردّ ذلك أوّلاً إلى أنَّ دراسات التصوير الطبقيّ هذه هي حديثة العهد بحيثُ ترقى دراسة الطاقات الكامنة المُثارة إلى عشرين عاماً، بينما ترجع تقنيّة التصوير الطبقيّ بالرنين المغنطيسيّ إلى فترةٍ أقرب منها. ولا تشهد هذه التقنيَات تقدُّماً سريعاً، لأنَّ عدد آلات التصوير الطبقيّ بالرنين المغنطيسيّ لا يزال قليلاً في المستشفيات، وبالتالي يُخصَّص معظم وقت استعمال هذه الآلات للفحص العياديّ، ولا يُكرَّس سوى حيِّزٍ يسيرٍ جدّاً من الوقت للأبحاث والدراسات. ومن ثمّ، إنَّ هذه التجارب هي كما تعلمين أصعب من حيثُ الإعداد من تجارب الرَّضاعة. وتكمن العلَّة الحسَّاسة في هذا الأمر في الحركة. فصحيحٌ أنَّنا نُسجِّل بواسطة اللَّواقط النشاط الكهربائيّ الذي يقوم به الدماغ، ولكنَّنا نُسجِّل أيضاً نشاط عضلات العيون، أو نشاط عضلات العنق مثلاً! أمّا بالنسبة إلى التصوير الطبقيّ بالرنين المغنطيسيّ، فيكون الأمر أكثر تعقيداً بعد. فإذا تحرَّك الطفل تُصبح الصُّور المتتابعة التي نأخذها لتتبُّع تفعيل الدماغ غير متراصفةٍ! وبما أنَّه يصعبُ منع الولد من الحراك، فإنَّنا نصطدمُ بإشكاليّاتٍ جسيمةٍ في تصويب هذه الحوادث المُصطنعة.

ـ فلنعد إلى ما بتنا نعرفه عن الكفاءات التي يتحلَّى بها المولود الجديد. إنَّه يتعرَّف إذاً على لغته الأمّ، ولكن كيف؟ إذ كونه يبلغ من العمر أيّاماً معدودةً، فلا ينبغي أن تكون مجموعة المفردات التي يعرفها كبيرةً لدرجةٍ تسمح له بالتمييز بينها وبين مجموعة مفردات لغةٍ أخرى. . .

ـ إنَّه لا يتعرَّف على الكلام، بل على «لحن» الكلام، أي على ما نُسمِّيه «عِلم العَروض»، فمنذ أن يُبصر النور، يُصنِّف المولود الجديد اللُّغات ـ حتّى تلك التي لم يسبق له أن سمعها مُطلقاً ـ تصنيفاً على التقريب تبعاً لخاصيّاتها النغميّة والإيقاعيّة. فمثلاً، ينجح المولودون الجدد الفرنسيّون البالغون 4 أيّام من عمرهم بتمييز الجُمل الإنجليزية عن الجُمل اليابانيّة. إلاّ أنَّ هذا التصنيف يكون ناقصاً لأنَّه لا يسمح لهم بتمييز هذه الجُمل الإنجليزية عينها عن جملٍ في اللُّغة الهولنديّة كونها تتشابه كثيراً على الصعيد النطقيّ. غير أنَّ تحليل الكلام هذا يكون كافياً ليسمح للمولودين الجدد بتكوين تمثيل أوّلي عن لغتهم الأمّ خلال الأسابيع الأولى من حياتهم، ممّا يجعلهم يتجاوبون بشكلٍ مختلفٍ مع الجُمل تبعاً لانتمائها إلى هذه الأخيرة أم لا.

ـ إنْ كنتُ أفهمُ جيّداً، من المُفترض أن يستجيب الطفل «الناطق بالفرنسيّة» في الأسابيع الأولى من حياته، وأن «يندهِش» إذا سمِعَ مثلاً صديق والدَيه الألماني أو الصينيّ يتحدَّث بلغته الخاصَّة؟

ـ تماماً. ثمّة اختبارٌ كلاسيكيٌّ يقضي بوضع مكبِّرَين للصوت أمام الطفل، واحداً إلى يمينه والآخر إلى يساره، ويبثُّ كلٌّ منهما بين الفينة والفينة جملاً في لغةٍ مختلفةٍ. ومن ثمّ نعمدُ إلى قياس السرعة التي يدير فيها الطفل رأسه إلى مصدر الصوت. ولوحِظَ أنَّه في عمر الشَّهرين، يتلفَّت الصِّغار الأميركيّون نحو مكبِّر الصوت «الناطق بالإنجليزية» بسرعةٍ تفوق بالتأكيد سرعة استدارتهم نحو مكبِّر الصوت «الناطق بالفرنسيّة»؛ والعكس بالعكس بالنسبة إلى الأطفال الفرنسيِّين البالغين العمر نفسه، وقد حصلنا على نمطٍ مماثلٍ من النتائِج لدى اختبار أطفالٍ إسبانيِّين وكتالونيِّين في شهرهم الرابع، بالرَّغم من أنَّ نَغَم هاتَين اللُّغتَين متقاربٌ للغاية.. وأفضل بعد: يتمكَّن الصِّغار

الأميركيّون لدى بلوغهم الشهر الخامس من تمييز اللُّغة الإنجليزية المحكيّة في الولايات المتَّحِدة عن اللُّغة الإنجليزية المحكيّة في بريطانيا!

فونيماتٌ بلا حدود

ـ هل يسمح لهم هذا التعرُّف على لحن لغتهم بأن يفهموا في ما بعد الكلام الذي يُقال فيها؟

ـ نعم، ولكنَّ ذلك سيتمّ على مراحل. فسيتعرَّف المولودون الجدد على الأصوات أوّلاً، فبين الشَّهرَين الرابع والسادس، يُصبحون سريعي التأثُّر بفونيمات لغتهم. ولقد رأينا مع لوران ساغار أنَّ كلّ لغةٍ تستخدمُ في الواقع مجموعةً محدودةً من الفونيمات المحتملة، فمثلاً: لا يستعمل البريطانيّون الصوت اللغوي الفرنسيّ «u»، بينما لا يستخدم الفرنسيّون الصوت اللغوي الإنجليزي «th»، في حين أنَّ اليابانيِّين لا يعرفون الفونيم «r» الذي نستخدمه نحن، كما أنَّهم لا يستطيعون تمييزه عن الفونيم «l». ونلاحِظ أنَّ المولودين الجدد يُصبحون سريعي التأثُّر بوجهٍ خاصٍّ بالأحرف الصائِتة في لغتهم لدى بلوغهم الشهر السادس، وبالأحرف الصامتة فيها لدى بلوغهم الشهر الثامن، وشيئاً فشيئاً يصل بهم الأمر إلى حدّ فقدان قدرتهم على تمييز الفونيمات التي لا تُستعمَل في لغتهم الأمّ.

ـ أتقصدين أنَّ أذنهم تُطبِقُ!

ـ أذنهم أو دماغهم... وتجري الأمور كما لو كان المولودون الجدد في العالم بأسره قادرين منذ أن يُبصروا النور على تمييز الفونيمات كلّها في لغات العالم قاطبةً؛ فهم قادرون على سماع مختلف أصوات المدّ. ولكنَّهم «يفقدون» لاحقاً التمييزات الصوتية غير المُستعملة في لغتهم. إنَّ الاختبار الأبرز في هذا المجال هو ذلك

الذي قامت به الكنديّة جانيت ويركير (Janet Werker)، التي برهَنت أنَّ مولودين جدداً ناطقين باللُّغة الإنجليزية تتراوح أعمارهم بين 6 و8 أشهر كانوا يُميِّزون على أكمل وجهٍ الـ «da» عن الـ «Da» (وهي الـ «da» التي نلفظها ونحن نُمعِن في إرجاع لساننا إلى الوراء، إنَّها تمييز صوامتي مُستعمل في اللُّغة الهِنديّة)، ولكنَّهم يعجزون بعد مضيّ بضعة أشهرٍ، أي بين الشهرَين الثامن والعاشر من حياتهم، عن إدراك هذا الاختلاف، أسوةً بالبريطانيّين جميعهم، في حين لا يجد بالطبع الأطفال الهنود أيّ صعوبةٍ في القيام بهذا الأمر. ولربَّما كانت الحقيقة أكثر تعقيداً ودقَّةً ممّا يوحي به هذا الاختبار، إذ إنَّ الحدود العريضة الفاصلة بين الفونيمات فِطريةٌ بالتأكيد، ولكنّني أعتقد أنَّ ثمّة حدوداً أخرى يتمّ اكتسابها عن طريق التعلُّم، فمثلاً، لا يضع الإسبانيّون والفرنسيّون والبريطانيّون الحدود الفاصلة بين الـ «pa» والـ «ta» في المكان نفسه تماماً، وإنَّ هذا الاختلاف هو مكتسبٌ حتماً. وعلى أيّ حالٍ، يُصبح هذا النظام الصوتيّ فيما بعد راسخاً في عمق أعماق الدِّماغ.

ـ هل لهذا السبب يشقُّ علينا إلى هذا الحدّ أن نتعلَّم لغةً ثانيةً، ولا سيَّما أن نتكلَّمها من دون لكنةٍ؟

ـ هذا صحيحٌ تماماً. يُدرك الشخص البالغ اللُّغة عن طريق مصفاة لغته الأمّ، أي إنَّه يُرمِّز كلّ كلمةٍ يسمعها في شكلٍ مقبولٍ في لغته الأمّ. فعلى سبيل المثال، سيسمع الشخص الإيطاليّ كلمتَين مختلفتَين إنْ قلنا له (an̲cora = أنـكورا) أو (anc̲o̲ra = أنكورا)، في حين أنَّكِ ستعتبرينهما كلمةً واحدةً، لأنَّ المدّ ليس معبّراً في اللُّغة الفرنسيّة. وأفضل من ذلك بعد، سيسمع الشخص الفرنسيّ كلمة «**إيبزو**» («ebzo») كما هي: «إيبزو»، بينما سيسمعها الشخص اليابانيّ «**إيبوزو**» («ebouzo»). فما سبب ذلك؟ مردّ ذلك إلى أنَّ اللُّغة اليابانيّة لا تُجيز

تعاقب الأحرف الصامتة، فمثلاً إنَّ كلمة **مطعم** (restaurant) التي اقترضتها منّا، تُلفَظ «مطوعَم» («resoutoran») في اللُّغة اليابانيّة. وبناءً عليه، إذا لفظنا «ebzo» يعمد الشخص اليابانيّ لاشعوريّاً وتلقائيّاً إلى إدخال الفونيم «ou» بين الفونيم «b» والفونيم «z».

ـ أيعني ذلك أنَّنا قد نُصاب بـ «هلوساتٍ سمعيّةٍ»، فنسمع فونيماتٍ لم يتمّ التلفُّظ بها مُطلقاً؟

ـ تماماً! فكما أشرتُ آنفاً، يُصار إلى إعادة ترميز الكلام على ضوء المروحة الصِواتيّة في اللُّغة الأمّ. إننا نجد في هذه المروحة تسلسلات الفونيمات المُحتملة وتلك غير المُحتملة. وممّا لا شكّ فيه أنَّ عمليّة إعادة الترميز هذه مفيدةٌ جدّاً لنقوم تلقائيّاً بتصحيح أخطاء اللَّفظ والأغلاط اللُّغويّة التي يرتكبها الشخص الذي يتوجَّه إلينا بالحديث، ولنحسِّن ـ هكذا ـ عمليّة نقل المعلومة بسرعةٍ. وبالعودة إلى الأطفال، يعمد المولودون الجدد بين الشهرَين الـ 6 والـ 9 من عمرهم، وبشكلٍ موازٍ لعملية تنقية التمثيلات الصَواتِميّة الخاصّة باللُّغة الأمّ وتهذيبها، إلى توسيع معرفتهم بالقواعد الصوتيّة التكتيكيّة في لغتهم، أي تعاقب الفونيمات المسموح به أو غير المسموح به داخل الكلمات. ففي اللُّغة الفرنسيّة مثلاً، ما من كلمةٍ تحتوي على التعاقب «مك» «mk» المُحتمل في المقابل في اللُّغة الهولنديّة. وإذا ألقينا على مسامع هؤلاء الرُّضَّع لوائح مؤلَّفةً من كلماتٍ مزيَّفةٍ، سواء كانت تراعي أم لا هذه القواعد، فهم يؤْثِرون تلك التي تحتوي على كلماتٍ محتملةٍ في لغتهم.

سبعون عضلةً لكي نتكلَّم

ـ لم نتحدَّث حتّى الآن سوى عن الفهم وإدراك الكلام، ولم نتطرَّق مطلقاً إلى مسألة النطق. مع أنَّ الطفل ليس أبكم. . .

ـ يكون الطفل شبه أبكم لدى الولادة! كما أنَّه يبكي كثيراً خلال الأسابيع الأولى من حياته! ولكنَّه سيبدأ تدريجيّاً بالطبع بالنطق وبـ «إنشاد» الأصوات التي يُصدرها من مثل «آهـهـه» («ahhhh») و«أوهـهـه» («euhhhh»). ولكن تبقى هذه الإنتاجات محصورةً بالأصوات التي يُحدِثها دخول الهواء المُفاجئ في قناة الصوت المفتوحة. وتنتجُ هذه الأصوات عن طريق المصادفة تقريباً ولا تُعدَّل طبقات الصوت فيها سوى بشكلٍ طفيفٍ جدّاً.

ـ هل هذا بسبب حنجرته؟ غالباً ما نقرأ أنَّ وضعيّة الحنجرة المُرتفعة لدى المولودين الجدد تمنعهم من التكلُّم تماماً، كما أنَّها تمنع القِرَدة العليا من النطق...

ـ كان ذلك ليكون صحيحاً لو كانت المسألة تتعلَّق بموضع الحنجرة فقط! ولكن ثمّة العديد من العوامل الأخرى التي تمنع المولود الجديد من التكلُّم، أبرزها أنَّه يملك بادئ ذي بدءٍ لساناً كبيراً مُربكاً محشوراً في فمه الصغير الضيِّق. ولا تتبدَّل نِسب تقاسيم وجهه قبل بلوغه شهره الثالث، فيتمدَّد عظم فكِّه، فيخفّ حينئذٍ الضغط عن لسانه. ومن ثمّ يكون تحكُّمه الحركيّ غير ناضجٍ بالكامل، فهو بالكاد يخوِّله الرضاعة ولكنَّه لا يكفي ليُمكِّنه من السيطرة على مُمَفصلاته، فلكي أتكلَّم كما أفعلُ أنا الآن، عليَّ أن أنسِّق بين 70 عضلةً! ويكون الطفل عاجزاً تماماً عن القيام بذلك حتّى وإنْ كان يرغب في فعله، لا بل حتَّى وإنْ كان يتمتَّع بالكفاية لفعله.

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ إنَّ البَون شاسعٌ بين الكفاية والأداء، إذ يكون الطفل عاجزاً عن التقاط غرضٍ معيَّنٍ، حتّى أنّه لا يهمُّ بحركة التقاطه، ويُعزى

ذلك للسبب نفسه دائِماً، ألا وهو: عدم نضوجه الحركيّ. فإذا تأمَّلنا الطفل جيِّداً، نجد أنَّ أعضاءه تكون متصلِّبةً جدّاً وعودُه رخواً تماماً. ومنذ بضعة سنواتٍ خلت، برهَنَ طبيب الأطفال الدكتور غرونييه (Grenier) أنَّنا لو ثبَّتنا عمود المولود الجديد الفقريّ، فهو سيمدّ يده ليُحاول التقاط غرض موضوع أمامه. ممّا يُثبِت أنَّه وإنْ كان الطفل لا يلتقط الأغراض، فليس لأنَّ الرغبة في فعل ذلك أو الفكرة أو الكفاءة تنقصه، بل لأنَّ الأداء، أي النضوج الحركيّ، ليس على الموعِد.

ـ ولكنَّ الطفل يكتسِب هذا النضوج على توالي الأيّام، فمتى يحين الوقت الطبيعيّ لبروز أدائه الصوتيّ؟

ـ بين الشهرَين والثلاثة أشهر، حينها يبدأ الطفل بنطق أصواتٍ من مثل «آههه» («ahhh») و«أوهه» («euhh») تُكرِّرها والدته من بعده بفخرٍ. فيُحاول عندئذٍ أن يُقلِّدها، فإذا فتحَتْ فمها فتحَ فمه، وإذا أخرجَت لسانها أخرجَ لسانه، وهلمَّ جرّاً. ونتبيَّن منذ الآن وجود بذور لعبة التواصل لديه حتّى وإنْ كان الوقت لا يزال مُبكراً للتحدُّث عن اللغة. وفي الأسابيع التي تلي ذلك، يعكفُ على ممارسة ألعابٍ صوتيّةٍ جمّةٍ، فيهمِسُ ويتذمَّر ويصرخ ليختبرَ ارتفاع صوته ومستواه الجهوريّ، ويصدر أصواتاً كأصوات الاحتكاك، فضلاً عن تمتماتٍ أنفيّةٍ (من مثل: «مممم» («mmmm»))، كما أنَّه يُسجِّع ويزغرِد ويطقطق بلسانه ويفتح فمه ويُقفله، أي إنَّه باختصارٍ، يبدأ بتمرين مُمَفصلاته. ولكنَّه يمزج قليلاً بين الوظائِف المختلفة التي يؤدِّيها الفمّ، فتكون بعض إصداراته الكلاميّة مصحوبةً بقدرٍ من اللُّعاب يوازي قدر الزفير، هذا حين لا يكون فمه ملآناً بهريسة الجَزَر التي توسِّخ قميص الماما! ولكن شيئاً فشيئاً تأخذ سيطرةٌ معيَّنةٌ مكانها ونشهد ولادة أولى الصوامت، من مثل «awa» و «abwa»

و«am». . . الأكثر سهولةً من غيرها. ومردّ ذلك إلى أنَّ النطق بحرفٍ صامتٍ هو أمرٌ على جانبٍ من الصعوبة، فمثلاً: بغية لفظ الفونيم «b»، ينبغي أن نتعلَّم أن نضمَّ شفاهنا بالكامل ومن ثمّ أن «نُفجِّر» الصوت. . . ولا ينجح الطفل عموماً بفعل ذلك قبل بلوغه الشهر السابع من عمره.

«باباباپا. . .» («Papapapapa ...»)

- لقد ذكرتِ أنَّه ينبغي التحكُّم بـ 70 عضلةً تقريباً لكي نتكلَّم. . .

- تماماً. يستلزِم النُّطق أن نُسيطر على حركات الحنجرة (Larynx) والرزدمة (Glotte) والغَلصمة (Voile de Palais) والحنك والشِّفاه واللِّسان وغيرها، والتنسيق بينها، فضلاً عن مزامنة التنفُّس مع حركة أوتار الصوت. ولأعطيكِ فكرةً عن الموضوع أقول: تحتوي الشفتان على 12 عضلةً واللِّسان على 9 عضلات، والعظم اللامي على 10 عضلات. . . وهلمَّ جرّاً. وإنَّ تنسيق هذه المجموعة تنسيقاً فعَّالاً لا يتمّ بين ليلةٍ وضحاها، بل إنَّه يستغرق أشهراً عديدةً. وبسرعةٍ خاطفةٍ يتعلَّم الأولاد مطابقة الصوت مع رؤية الشِّفاه وهي تنطق بالصوت المذكور، فلو فتحنا فمنا مثلاً أمام الطفل وكأنَّنا نقول له «aaaa»، ولكنَّنا جعلناه يسمع الصوت «iiiiiiii»، فلن يروق له ذلك، فهو يترقَّب رؤية الفم ينبسِط تماشياً مع الصوت اللغوي «i». . . ونحن أيضاً نستعين بالرؤية، فحين تشاهدين التلفاز - مثلاً - ويكون الصوت متأخِّراً قليلاً عن الصورة، يكون ذلك مزعجاً للغاية. إنَّ هذه القدرة على ربط الصورة بالصوت مهمّةٌ جدّاً من أجل تنمية الكلام. فمن خلال مراقبة وجه والدته وفمها، بالإضافة إلى وجوه الأشخاص الآخرين الذين يعتنون به وأفواههم، يُعمِّق الطفل معرفته

بالعلاقات التي تربط عملية سماع الصوت بالنُطق به، ويتمّ ذلك بلا ريبٍ بفضل منطقة بروكا التي سبق لنا أن رأينا مدى أهميّتها. وهكذا، يبدأ الطفل بين الشهرَين السادس والعاشر من عمره، ولكن غالباً قرابة شهره السابع، بتمتمة كلماتٍ من مثل «babababa» و«papapapa»... فيطير قلب الوالد فرحاً!

ـ «Bababa» و«papapa»... يبدو وقع ذلك مألوفاً. فهل يُمكن اعتبار الثغثغة بمثابة اللُّغة الكلّية؟

ـ كلا على الإطلاق. فلقد خلنا لفترةٍ طويلةٍ أن الثغثغة كانت عبارةً عن سلسلةٍ من الأصوات المنوَّعة، ولكن الاعتباطيّة، والتي لا تمتّ بصلةٍ للكلمات الأولى التي ينطقها الطفل في مرحلةٍ لاحقةٍ. ولكنَّ ذلك خاطئٌ، لأنَّ الأطفال يثغثغون في لغتهم الأمّ! ويُمكننا أن نسمع ذلك بوضوحٍ تامٍّ. فمنذ حوالى العشرين سنةً، قامت البسيكو ـ ألسنيّة بينيديكتَ دو بواسّون ـ بارديز (Bénédicte de Boysson-Bardies) بإسماع أشخاصٍ راشدين ناطقين بالفرنسيّة نماذج عن ثغثغات مولودين جدد فرنسيِّين وعرب وكنتونيِّين يبلغون 8 أشهر من العمر... وقد تعرَّف الأشخاص البالغون على ثغثغة الأطفال الفرنسيِّين بنسبة 70 بالمئة. لمَ ذلك؟ يُعزى السبب إلى أنَّ ثغثغة الأطفال تتبعُ إيقاع اللُّغة الأمّ نفسه ونمطَ التنغيم الأدائيّ ومروحة فونيماتها نفسها، فالأطفال العرب يستخدمون حرف الراء «r» المُردَّد جدّاً إلى الوراء والذي لا يعرفه الأطفال الفرنسيّون، في حين يُصدِر الأطفال الكانتونيّون تبدُّلاتٍ صغيرةً جمّة في ارتفاع الصوت تُجسِّد مُقدَّماً نبرات لغتهم. وفي سياقِ اختبارٍ متَّصلٍ، برهنت بينيديكت دو بواسّون ـ بارديز أنَّ الثغثغة الفرنسيّة لها بُنيةٌ مؤلَّفةٌ من حرفٍ صامتٍ يليه حرفٌ صائتٌ وهي تتَّخذ شكلاً يُشبه الشكل الآتي: «ba, ba, ba»، بينما تخضع ثغثغة الأطفال النيجيريِّين الذين يتحدَّثون اللُّغة

اليوروبيّة (Yoruba) لبنيةٍ مؤلَّفةٍ من حرفٍ صائتٍ يليه حرفٌ صامتٌ يليه حرفٌ صائتٌ، على الشكل الآتي: «aba, aba...»، ذلك لأنَّه في اللُّغة اليوروبيّة يبدأ السواد الأعظم من الكلمات بحرفٍ صائتٍ!

ثغثغةٌ وزقزقةٌ

ـ هل توازي إذاً الثغثغةُ بالنسبة إلى الطفل ضبطَ الأنغام بالنسبة إلى عازف البيانو؟

ـ تماماً. تسمحُ له الثغثغة بالتمرُّن، فالأطفال يُثغثغون وحدهم ويستَلِذُّون بسماع صوتهم، وهم يُعيِّرون لفظهم، فلو عدَّلنا بواسطة سمَّاعة رأسٍ خاصّةٍ ارتدادَ صوتهم، كأنْ نحوِّل الـ «ba, ba, ba» الذي يُدندنونه ليُصبح «be, be, be» مثلاً، فسيُعدِّلون الصوت الذي يُصدرونه حتّى يسمعوا ما كانوا يريدون قوله! ممّا يدلّ على أنَّهم يلجؤون إلى المعايرة.

ـ ولكن، هل يقصدون حقّاً قول شيءٍ معيَّنٍ؟

ـ لا أستطيع أن أجيبكِ في الوقت الراهن، وربَّما ستكون السنوات المقبلة كفيلةً بالإجابة، أي بعد أن نكون قد اكتسبنا خبرةً أوسع في مجال التصوير الطبقيّ. ولكنَّ الأطفال ينغمسون منذ نعومة أظافرهم على ما يبدو في رغبة التواصل. ونُلاحِظ ذلك منذ الأشهر الأولى من حياتهم، حيث تنشأ علاقةٌ حميمةٌ وجهاً لوجه بين الوالدة والطفل، وحيثُ يُحملق واحدهما بالآخر ويُقلِّده، وحيثُ يكون تبادل النظرات بينهما في أشدِّه. فلا يجب أن يغيبَ عن بالنا أنَّنا حيواناتٌ اجتماعيّةٌ، يُعَدُّ التبادل جوهريّاً في سلالتنا ولا سيَّما من أجل التعلُّم. ذاك هو السبب الكامن وراء عدم تطوُّر لغة الولد حين نجعله يجلس كثيراً أمام شاشة التلفاز! فهو بحاجةٍ إلى أن يتفاعل أيضاً! ولقد رأينا على سبيل المثال أنَّ المولودين الجدد يفقدون في الفترة الممتدَّة بين

الشهرَين الثامن والعاشر من حياتهم القدرة على التمييز بين الفونيمات التي لا يُصار إلى استخدامها في لغتهم الأمّ. وعليه، أتت باتريسيا كوهل (Patricia Kuhl)، وهي باحثةٌ أميركيّةٌ، بمجموعتَين من الأطفال الأميركيِّين البالغين من العمر 9 أشهر، فعهدت بالمجموعة الأولى إلى امرأةٍ صينيّةٍ لتلعب معهم لمدّة 25 دقيقة ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع على مدى شهرٍ، في حين عهدت بالمجموعة الثانية إلى امرأةٍ أميركيّةٍ، فاحتفظَ الأطفال الذين كانوا على اتِّصالٍ باللُّغة الصينيّة (حتّى وإنْ كانت مدّةُ ستِّ ساعاتٍ في الشهر تُعَدُّ فترةً زمنيّةً قصيرةً نسبيّاً) بقدرتهم على تمييز صلةٍ نطقيّةٍ معيَّنةٍ خاصَّةٍ باللُّغة المندرينيّة، وكان تصرُّفهم يحاكي بالتالي تصرُّف الصينيِّين الذين اعتادوا سماع هذه اللُّغة منذ أن أبصروا النور؛ أمّا أطفال الفريق الثاني، فقد فقدوا هذه القدرة كما كان متوقَّعاً. وبعدها أتت باتريسيا كوهل بفريقَين آخرَين من المولودين الجدد الأميركيِّين، وبدلاً من أن تعهد بهم إلى امرأةٍ صينيّةٍ لتلعب معهم، جعلت الفريق الأوَّل يستمع إلى تسجيلاتٍ صوتيّةٍ سُجِّلت للفريق الذي لعبت معه المرأة الصينيّة، في حين جعلت الفريق الثاني يُشاهِد تسجيلاتٍ سمعيّةً بصريّةً سُجِّلت له. وتبيَّن أنَّ لا الفريق الأوَّل الذي استمع إلى التسجيلات الصوتيّة، ولا الفريق الثاني الذي شاهد التسجيلات السمعيّة البصريّة، قد احتفظَ بهذه القدرة على تمييز الصلة النطقيّة الخاصّة باللُّغة المندرينيّة. ويتَّضح جليّاً من هذه الدراسة أنَّ إتاحة المجال أمام الطفل لسماع لغةٍ معيَّنةٍ لا يكون كافياً بحدّ ذاته، بل يقتضي إشراكه بشكلٍ فعّالٍ في علاقةٍ تربطه بالآخر لكي يتعلَّم التكلُّم.

الفصل الثاني
كلماتٌ لقول ذلك

«هلتريدرَضّاعتكَ» («Tuveuxtonbiberon»)

ـ في الشهر التاسع من عمره، يكون الطفل إذاً عبقريّاً صغيراً في علم الأصوات ومكيَّفاً تماماً مع أصوات لغته الأمّ. بيد أنَّ اللُّغة لا تتألَّف من سلسلةِ فونيماتٍ وحسب، بل إنَّ هذه الأصوات تنطوي على معانٍ. فكيف يكتسب الأولاد المعاني؟

ـ يتمّ ذلك تدريجيّاً بالطبع، فبين الشهرَين الثامن والعاشر، يبدأ الطفل بالتأثُّر بالشكل الصوتيّ الذي تتَّخذه الكلمات في لغته الأمّ. وتكون هذه المرحلة على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة، باعتبار أنَّ الكلمات لا تكون مقتطعةً إلاّ نادراً في المحادثة العاديّة، بل تكون الإشارة الصوتيّة مُطَّردةً ولا يُصار إلى فصل الكلمات بفسحاتٍ من الصمت، خِلافاً للنصّ المكتوب، حيثُ يفصل البياض بين الكلمات. فنحن نكتب مثلاً: «هل تريد رضّاعتكَ؟» («Tu veux ton biberon?»)، ولكنَّنا نقول لولدنا «هلتريدرَضّاعتكَ؟» («Tuveuxtonbiberon?»). ويتكفَّل الدماغ بتقطيع دفق الكلام إلى كلماتٍ. ولكن ينبغي أن يكون الطفل قد تعلَّم فعل هذا الأمر،

فمثلاً: إذا سمعتِ أحدهم يتكلّم في لغةٍ أجنبيّةٍ لا تعرفينها، ينهال عليكِ سيلٌ من الكلام لا تفهمين أوّله من آخره. فهذا هو بالتالي ما يتعلّمه الطفل، ألا وهو تمييز الكلمات، على غرار كلمة **رضّاعة** (biberon) في جملةٍ من مثل «هلتريدرَضّاعتكَ؟». ويتمكّن الطفل عند بلوغه شهره الـ 12 من التعرُّف على عددٍ من الكلمات يتراوح بين 40 و50 كلمةً. ولأجل ذلك، فهو سيُطبِّق إستراتيجيّةً فِعليّةً لتحليل الكلام.

ـ أيعني ذلك أنَّ ثمّة أنماطاً عديدةً من المؤشّرات التي تكون في متناول الطفل لتسمح له باكتشاف الكلمات في الجملة؟

ـ نعم. ويكمن المؤشّر الأوّل في النَّغَم، أي إيقاع الكلام. فعندما نتكلّم، نأخذ فترات استراحةٍ، بحيثُ إنّنا نتوقّف أحياناً عن التكلُّم بغية التنفُّس على الأقلّ. والحال أنّنا لا نتنفّس في أيّ وقتٍ، فنحن لا نتنفّس في منتصف الكلمة مثلاً. ومن ثمّ، إنّنا نُقطّع جملنا، إلاّ إذا كانت الجملة عسيرة الفهم، فنقول مثلاً: «إيزابيل / كماتعلمون / هِيَرائعتلجمال» («Isabelle/ vouslesavez/ esttrèsjolie»)، ولا نقول «إيزابيلكماتعلمونهِيَرائعتلجمال» («Isabellevouslesavezesttrèsjolie»). ونميل في اللُّغة الفرنسيّة إلى خفض نبرة صوتنا ومدّ المقطع اللّفظيّ الأخير في الكلمات. ويتأثّر الأطفال في وقتٍ مُبكرٍ جدّاً من حياتهم بهذا التقطيع الخاص بأداء الصوت. ففي الشهر الثامن، يتأثّر الأطفال بالجُمَل التي تنطوي على وقفةٍ بين الفعل والفاعل، والتي تُعدُّ حدّاً فاصلاً طبيعيّاً، أكثر ممّا يتأثّرون بالوقفة بين الفعل والمفعول به، التي لا تُعدُّ حدّاً فاصلاً طبيعيّاً. ففي هذا العمر الفتيّ، يكون هؤلاء قد تعلّموا على حدٍّ سواء الترسيمة النبريّة الخاصّة بكلمات لغتهم الأمّ. ففي اللُّغة الإنجليزية على سبيل المثال، إنَّ الشّكل السّمعيّ الأكثر شيوعاً للكلمات هو

ذلك الذي يتألَّف من مقطعٍ لفظيٍّ قويٍّ يتبعه مقطعٌ لفظيٌّ ضعيفٌ. وهكذا، يُفضِّل الطفل جوْن (John) أن يستمع إلى لائحة كلماتٍ تراعي هذا الإيقاع على الاستماع إلى لائحة كلماتٍ تَتَّبعُ ترسيمةً نبريّةً معاكِسةً. أمّا المؤشّر الثاني، فيستمدّه الأطفال عن طريق التحليل الإحصائيّ لسلسلات الفونيمات في الكلام.

الكشف عن المقاطع اللَّفظيّة

ـ إنَّك تعاملين الطفل مرّةً أخرى بعدُ وكأنَّه خبيرٌ في الإحصاء! هل يعني ذلك إذاً أنَّ الأطفال جميعهم عباقرةٌ في الحساب؟

ـ إنْ كنتِ تقصدين الحساب الذي نُسمِّيه بالحساب العصبيّ، فجوابي نعم، فليس الدماغ حاسوباً، وسنمحِّص لاحقاً هذه المسألة، ولكن يبدو أنَّ هذه الأعمال كلّها تُثبِت أنَّ قشرة دماغ الأطفال الصِّغار تحتوي على ضفائرَ عصبيّةٍ تسمحُ لهم بتعلُّم الكلام في فترةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ نسبيّاً في النهاية بالنظر إلى مدى تعقيد اللغة البشريّة، فعندما نراقبهم نجد أنَّهم يتصرَّفون فِعلاً وكأنَّهم آلاتٌ صغيرةٌ. ففي الولايات المتَّحدة الأميركيّة، قام بعض الباحثين بإسماع مجموعةٍ من المولودين الجدد البالغين 8 أشهر من العمر على مدى دقيقتَين سلسلةً من المقاطع اللَّفظيّة، من مثل «bidakupadotigolabubidakugolabu». ولاحظي أنَّ بعض المقاطع الصوتيّة تأتي في هذا التمرين متبوعةً دائِماً بالمقاطع الصوتيّة نفسها، كما في «bidaku»، فإذا كان المقطع اللَّفظيّ «da» يتبعُ دائِماً المقطع اللَّفظيّ «bi»، وإنْ كان المقطع اللَّفظيّ «da» يأتي متبوعاً دائِماً بالمقطع اللَّفظيّ «ku»، الذي يأتي بدوره في إطار تمريننا هذا متبوعاً دائماً بالمقطع اللَّفظيّ «pa» أو «go»، فنُلاحِظ بعد انقضاء دقيقتَين على بدء هذا التمرين أنَّ الأطفال يؤثِرون سماع لائحة الكلمات التي تحتوي على «bidaku»

و«padoti» و«golabu» علـى تـلـك الـتـي تـنـطـوي عـلـى «dakupa» و«tigola» و«labubi» ممّا يعني أنَّهم «حَسَبوا» تواترات الانتقال بين المقاطع اللَّفظيّة، واستنتجوا، حتَّى إثبات العكس، فرضيّة أن تكون كلمة «bidaku» كلمةً مُحتملةً بينما اعتبروا أنَّ كلمتَي «kupado» و«dakupa» تحظيان بفرصٍ أقلّ لتكونا كذلك. وقد لزِمَهم دقيقتَين فقط لإجراء هذا التحليل.

ـ ينمّ ذلك عن مقدرةٍ غير عاديّةٍ!

ـ لا ينبغي أن نتباهى كثيراً بذلك. إنَّه أداءٌ تُنجِزه أيضاً قِرَدة الميداس والجرذان! وإنَّ هذه الحسابات التي تبدو معقَّدةً للغاية حين يتعيَّن علينا تفسيرها تُمثِّل في الواقع إحدى الحسابات الأساسيّة التي يُنجزها الدماغ بشكلٍ متواصلٍ، بحيثُ إنَّه يُنشئ العلاقات المُتبادَلة بين حدثَين بصريَّين أو سمعيَّين. وبطبيعة الحال، يستفيد النظام اللُّغويّ من هذه القدرة الحسابيّة الإحصائيّة بغية تحديد المتتاليات الصوتيّة الأكثر شيوعاً. وبناءً عليه، وباعتبار أنَّ تعاقب الفونيمين «tr» أكثر شيوعاً في اللُّغة الفرنسيّة من تعاقب الفونيمين «lr»، فيطرح الدماغ كمسلَّمةٍ أنَّه من المحتمل العثور على «تر» في الكلمة، في حين أنَّ «لر» هي قليلة الاحتمال. وهكذا مثلاً، يستنتج الأطفال من عبارة «غزال رشيق» («la gazelle rapide») أنَّ حرف الـ «l» وحرف الـ «r» يرسمان حدّاً فاصلاً بين كلمتَين، إذ لا يُمكن أن تُشكِّل لفظة «gazelra» كلمةً. ولكن أحياناً تكون هذه الإستراتيجيّة مصدراً لارتكاب الأخطاء، كما تُثبته كلمتَا «لأناس» («nananas») أو «لطائرة» («navion») اللَّتَين يُصدرهما الأطفال بعد بضعة أشهرٍ من ذلك. وفي الواقع، يُشكِّل المقطع اللَّفظيّ «na» بداية كلمةٍ جائِزةٍ في اللُّغة الفرنسيّة، إذ يسهل تجزئة كلمة «الطائِرة» («un avion») إلى «ال ـ لطائِرة» («un navion»).

ـ يستخرج الطفل الكلمات، ولكن هل يفهم المعاني التي تنطوي عليها؟ فبصرف النظر عن كلمة «لطائِرة» («navion»)، ماذا لو أنّ «bidaku» كلمة. . .

ـ فِعلاً، تقترح هذه الدراسات كلّها أنَّ المولودين الجدد يلاحظون الأشكال السمعيّة التي تكون للكلمات قبل أن يعرفوا معانيها بوقتٍ طويلٍ. وقد برهَنَ الأميركيّ بيتر جوسزيك (Peter Jusczyk) أنّنا إذا ردَّدنا على مسامع أطفالٍ في الشهر السابع من عمرهم كلمة «**ملك**» («king») عدّة مرّاتٍ، سيؤْثِرون فيما بعد سماع جملٍ تحتوي على كلمة «king»، مع أنَّهم لا يفقهون طبعاً في هذا العمر معنى هذه الكلمة. إنَّهم يستسيغون سماع كلمة «king»، ولكنَّ الجدير بالملاحظة هو أنَّ كلمة «**مملكة**» («kingdom») لا تؤثِّر بهم قطّ! ممّا يُقيم الدليل على أنَّهم اقتطعوا بشكل سليم كلمة «king» وحفظوها. ونستنتج بالتالي أنَّ التعرُّف على الشَّكل السَّمعيّ للكلمة يتمّ قبل التعرُّف على معناها بوقتٍ طويلٍ. ويَشذُّ عن هذه القاعدة على الأرجح اسم الطفل وكلمتا **بابا** (papa) و**ماما** (maman).

من الكلمة إلى المفهوم

ـ يؤكِّد بعض المؤلِّفين في الواقع أنَّ المولودين الجدد يتعرَّفون على اسمهم ابتداءً من الشهر الرابع من عمرهم.

ـ ولكن هل يعرف الطفل حقاً أنَّ باتيست (Baptiste) أو جولييت (Juliette) يدلّ عليه هو بالذات؟ أشكّ في ذلك. فلربَّما كان يُعير اسمه انتباهاً خاصّاً لأنَّه ببساطةٍ سمعه آلاف المرّات وبشكلٍ منعزلٍ في أغلب الأحيان. فلطالما اعتقدنا أنَّه يتعيَّن على الطفل معرفة سلسلةٍ من المفاهيم قبل أن يمتلك الكلمات، فقد كنَّا نخال مثلاً أنَّ الطفل، من فَرط ما كان يرى سيّارات تمرّ، كان يفهم معنى كلمة

السيّارة، وأنّه كان يكفي أن تقول له والدته «سيّارة» («voiture») لكي يربط الكلمة بالمفهوم. إنَّ الأمور تجري فِعلاً على هذا المنوال حين يتعلَّم الشَّخص البالغ لغةً ثانيةً! لأنَّ الشخص في هذه الحالة يربط شكلاً صوتيّاً جديداً بالمعنى الذي يملكه أصلاً. ولكن ليست هذه على الإطلاق الإستراتيجيّة التي يلجأ إلى استعمالها الولد الذي يتعلَّم التكلُّم. فهو يتعرَّف أوَّلاً على شكل الكلمات، ومن ثمّ يربطها بمفهومٍ معيَّنٍ.

ـ إنَّ الشكل يسبق المعنى دائِماً.

ـ لدى الطفل الصغير، بلا أدنى شكٍّ، بما أنَّه يرصد أصلاً خلال السنة الأولى من حياته أشكالاً صوتيّةً جمّةً من دون أن يعرف بالضرورة المعنى المُرتبط بها. ويشكِّل معجم مفردات الألوان المثل التقليديّ الذي يُظهِر استقلاليّة الشَّكل عن المعنى. فليس من النادر أن نصادف ولداً صغيراً يمتلكه في عمر السنتَين تقريباً، بحيثُ إنَّه يعرف أن يقول: **أصفر وأحمر وأزرق**. . . إلخ. ولكنَّه أحياناً يكون عاجِزاً حتّى بلوغه عامه الرابع عن ربط مخزون أسماء الألوان التي بحوزته مع الألوان التي يراها، فمثلاً: إذا أريناه لوناً أزرق، فقد يقول إنَّ هذا اللَّون هو «أحمر» أو «أصفر»، ليس لأنَّه يمزج هذه الألوان، فهو يُميِّز بينها تمام التمييز، بل لأنَّه يُخرِج بلا تبصُّرٍ اسم لونٍ يعرفه، فهو لا يعرف بعدُ كيفية إقامة العلاقة الصحيحة بين اللَّون واسمه. ونعرفُ كذلك حقّ المعرفة أنَّ الولد يتعلَّم أسماء الأرقام (**واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ أربعة ـ خمسة**. . .) قبل معرفة ربطها برقمٍ حقيقيٍّ بوقتٍ طويلٍ.

ـ نعم، ولكنَّ الأطفال لا ينتظرون دائِماً أن يبلغوا عامهم الرابع لكي يربطوا الكلمة بالمعنى.

ـ بالطبع! فبين الشَّهرَين السادس والثامن، يتأثَّر الطفل بكلماتٍ شديدةِ الارتباط بظروفٍ معيَّنةٍ، فهو سيلوِّح بيده ـ على سبيل المثال ـ حين تقول له والدته «إلى اللِّقاء» («au revoir»)، أو أنَّه سيُصفِّق بيدَيه حين سيسمع كلمة «أحسنتَ» («bravo»). ولكن يُعزى ذلك إلى التكييف والإشراط أكثر منه إلى الفهم. ولا يبدأ الطفل بنسبِ معنى إلى الكلمات التي يعرفها قبل بلوغه الشهر التاسع. حتَّى وإنْ كان من الشّاق تحديد مدى هذا الفهم، فالأهل كلُّهم يلاحظون أنَّ الولد ينظر إلى قدمَيه حين نقول له «حذاء» («chaussures») أو أنَّه ينظر إلى «الرضّاعة» حين نقول له «رضّاعة» («biberon»)، ولكن يصعبُ كثيراً أن نختبرَ المعنى الدقيق الذي ينسبه إلى الكلمة، فهل كلمة **حذاء** (chaussures) متعلِّقة بالحذاء ـ الشيء أم بالقدمَين؟ أم بالاثنَين معاً؟ فهل إنَّ كلمة «حذاء» تعني من وجهة نظره حذاءه الخاصّ الأزرق مثلاً أم الأحذية كلّها، لأنَّه يمتلك مفهوم الحذاء ولأنَّه قادرٌ على التصنيف؟

ـ يبدو أنَّ الأطفال هم أبطالٌ في التصنيف، إذ من المذهل حقاً أن نرى طفلاً صغيراً يطلق اسم كلب (chien) على حيوانَين مختلفَين بقدر اختلاف كلب بكين عن كلب الدوبرمان!

ـ أوه! ولكنَّ الأطفال يُخطِئون! فعندما يبدأ الطفل بالتكلُّم يُسمِّي على سبيل المثال العصافير كلَّها دجاجةً (poule)، وقد يُسمِّي الهرّ كلباً. ولكنَّه في الحقيقة لن يُسمِّي مُطلقاً الكرسيّ كلباً، ولا حتّى السمكة. ولا يُدهشنا واقع أنَّ طفلنا لا يضع الكرسيّ والكلب في السلّة نفسها، مع أنَّ ذلك كان ليكون منطقياً، إذ إنَّ لكليهما أربع أرجلٍ!

ـ بالضبط. فكيف ينجح الطفل في معرفة أنَّ كلمة كلب (chien) تدلّ على كلب الصيد البنيّ الذي يملكه الجار، وعلى البودِل الأبيض الذي تملكه جدَّته، والذي يُناديه الجميع باسم «فيفي» («Fifi») والذي لا يمتّ بصلةٍ للضَيْوَن(*) (Matou) الكبير المُجاوِر؟ كما أنّه لا يمتّ بصلةٍ طبعاً للكرسيّ. وكيف يعلمُ أنَّ كلمة «كلب» تدلّ على الحيوان بمجمله وليس فقط على خطم الكلب أو وبره؟

ـ في البداية، يعمد الولد إلى جمع الأغراض التي تمتلك خصائصَ مماثلةً، فإنَّ الدوبرمان والبودِل هما «غرضان» يتنقَّلان وينبحان ولهما عدد القوائِم نفسه. . . إلخ. ومع توسُّع معارفه، يعمد الولد إلى إنضاج عمليّة تنقية هذه الفِئات وصقلها، فيركَن إلى معارفَ سياقيّةٍ أكثر، فيُحدِّث نفسه قائِلاً مثلاً: «هذا كلبٌ أعرفه، يمكن إذاً أن يكون اسمه «فيفي»؛ أو يملك هذا الكلب أربعَ قوائِم ويتنقَّل ولكنَّه يقول «مياو» («miaou») وليس «عَوْ، عَوْ» («wouah-wouah»)، فمن الممكن إذاً ألاّ تكون كلمة **كلب** هي الكلمة المناسب لتسميته، ولقد قالت أمّي للتوّ كلمةً لم ألحظها من قبل، ألا وهي «**هرّ**» (chat)، وبالتالي إنَّ «**الهرّ**» و«**الكلب**» هما فِئتان مختلفتان». ومن البديهيّ أن يكون أسلوب التصنيف هذا منحازاً في اتِّجاهاتٍ معيَّنةٍ، وأن يتغلَّب مفهوم المتحرِّك من حيثُ الأهميّة على مفهوم الأربع قوائِم مثلاً، ممّا يُفسِّر إمكانيّة أن يقوم الطفل بتسمية **الكلب** «هرّاً» وإنَّما ليس «طاولةً».

ـ تعرف الحيوانات التصنيف أيضاً، فعصافير أبو زريق مثلاً

(*)الضَيْوَن: هو قط ذكر.

قادرةٌ على تصنيف مختلف أنواع أوراق الشجر تبعاً لليُسروعات(*) (Chenilles) التي تأكل منها، وإنَّ هذا التصنيف هو بالتأكيد منوطٌ بتفضيلاتها الغذائيّة. . .

ـ أجل، وكذلك قِرَدة الماكاك قادرةٌ ـ كما نعلم ـ على تصنيف الفواكه تبعاً للونها، وعلى التمييز بين الجامد والمتحرِّك، وبين الحيوان وغير الحيوان. . . إنَّ هذه القدرة هي بالتأكيد جوهريّةٌ للتعرُّف سريعاً على الطعام الذي يؤكَل وعلى الحيوانات القانصة. . . إلخ. وقد نَمَت هذه القدرة لدى الإنسان نتيجة تاريخه التطوُّريّ، إذ يخوِّله تنظيم دماغه أن يضعَ سويّاً الأغراض التي تجمعها خصائص مشتركة، سواء أكانت بصريّةً أم ذات صلةٍ بالملمس أو اللَّون أو الشَّكل، أو تلك التي تبدو وكأنَّها تتفاعل بالطريقة نفسها أو تلك التي يستطيع أن يُجري عليها الأفعال نفسها. فتكون المحصِّلة تجميعاً لأغراضٍ أو لمفاهيمَ تتشاطر خصائصَ متماثلةً، وتكون هذه الأغراض مصنَّفةً ومنظَّمةً في «علبٍ» مختلفةٍ.

ـ هل تقصدين «العلب» الدلاليّة المختلفة؟

ـ إنَّها طريقةٌ في التعبير. . . ولكنَّنا نعلمُ بفضل معاينة المرضى الذين تعرَّضوا لجلطةٍ دماغيّةٍ أنَّه من الممكن المحافظة على ملكة لغوية سويّة وعدم فقدان إلاّ أسماء الحيوانات أو الأعداد أو الفواكه والخضار أو حتَّى أفعال الجملة فقط. . . فهل إنَّ كلّ فِئةٍ من هذه الفئات الدلاليّة هي مخزَّنةٌ في منطقةٍ محدَّدةٍ بدقَّةٍ في الدماغ؟ ربَّما. ويحضرني مَثَلُ أسماء الألوان الذي ضربتُه منذ قليلٍ. هذا ويُظهِر التصوير الطبقيّ أنَّ المناطق الدّماغيّة التي تتفعَّل حين نتلو لائحة المشتريات التي ابتعناها

(*) اليُسروعات: دود الفراش منذ خروجها من البيضة حتى تتحول إلى خادرة.

من السوق ليست نفسها تلك التي تتفعَّل حين نُسمِّي قاطني حديقة الحيوانات! علماً بأنَّ هذه الأمور كلّها تجري في المنطقة الصدغيّة السفلى. ويعتقد البعض أنَّ الأفعال التي تدلّ على الحركة تكون مخزَّنةً قرب التمثيلات الحركية، وأنَّ الكلمات المُرتبطة بالطعام تكون محفوظةً قرب المناطق التي تُعنى بمعالجة الألوان والروائِح.

أمَّهاتٌ ذلِقات اللِّسان

ـ يُخال للسامع أنَّ الدماغ يُشبه فِعلاً الآلة التي تحتوي على خاناتٍ فارغةٍ ينبغي ملؤها...

ـ حذارِ! علينا ألاّ نؤخَذ بالمفردات لأنَّها قد تُضلِّلنا، فصحيحٌ أنَّ الأعمال التي أنجزناها تُبرهِن أنَّ الدماغ ليس صفحةً بيضاء، بل إنَّه منظَّمٌ في مناطقَ وظيفيّةٍ مُنفصلةٍ تتعاون بشكلٍ وثيقٍ، إلاّ أنَّه ليس حاسوباً، فهو يخضع لقوانينَ خاصّةٍ تكون ثمرة إرثه البيولوجيّ والتطوُّريّ، وتسعى العلوم المعرفيّة جاهدةً لضبطها. فلنلقِ على سبيل المثال نظرةً على «تأثير ستروب» («Effet Stroop»). هو عبارةٌ عن تجربةٍ شهيرةٍ جدّاً في مجال علم النفس الاختباري تقضي بأن نطلبَ إلى المشاركين في الاختبار تسمية لون الحبر الذي كُتِبت فيه الكلمات المطبوعة على الورقة. وتكون المهمّة غايةً في السهولة بالنسبة إلى كلماتٍ من مثل **هرّ** (chat) أو **أريكة** (canapé)، أمّا إذا كتبنا كلمة **أخضر** (vert) باللَّون الأحمر مثلاً، حينها يُبطِئ الأشخاص بشكلٍ ملحوظٍ في التعرُّف على اللَّون، لأنَّهم يرتبكون جرّاء التداخل الحاصل بين لون الحبر ومعنى الكلمة. ونرى جليّاً في هذا المثل أنَّ الإجابة لا تتطلَّب الولوج إلى معنى الكلمة، ومع ذلك يتمّ هذا الولوج بشكلٍ تلقائيٍّ تقريباً، ويكون من شأنه أن يُعرقِل الإجابة. في حين أنَّ الحاسوب سينجح في إجراء هذه العمليّة من دون أيّ مشقَّةٍ.

ـ لنَعد إلى الطفل الذي يُدرك وهو في أواخِر عامه الأوَّل أنَّ الكلمات تنطوي على معنى.

ـ يستبدُّ به حينها وسواس التعرُّف على الكلمات وربطها بمعنى معيَّنٍ. فيُحرِزُ عندئذٍ تقدُّماً مذهلاً. وقد تتبدَّل سرعة التعلُّم كثيراً من ولدٍ إلى آخر، ولكن لنقل إنَّه يفهم عدداً من الكلمات يتراوح بين 40 و50 كلمةً في عيد مولده الأوَّل، وأكثر من 300 كلمةٍ عند بلوغه شهره الـ 16. ويُشكِّل هذا التقدير بداهةً المعدَّل الوسط، إذ يكون الأمر وقفاً على الأولاد والثقافات، فيُقال مثلاً إنَّ الأطفال الأميركيِّين هم أسرع في التعلُّم من الأطفال اليابانيِّين. وهذا ما يتَّضح على أيّ حالٍ من الاستبيان المَسوس ذاتياً ذي النمط التالي: «كم كلمةً يفهمها طفلكِ في عامه الأوَّل؟». ولكن من الممكن ببساطةٍ أن تكون الأمَّهات الأميركيّات أكثر تساهلاً بشأن ما يمكن أن يُشكِّل كلمةً من الأمَّهات اليابانيّات!

ـ ويُقال أيضاً إنَّهنَّ غير متحفِّظاتٍ ومُنفتحات القلب، وإنَّهنَّ يتكلَّمنَ بنبراتٍ مبالغٍ فيها مع أطفالهنَّ. ولطالما تساءلنا في فرنسا إنْ كان من الجيِّد أم مَن السيِّئ للأطفال أن نكلِّمهم «على طريقة الأمَّهات» («mamanais»)، أي أن نستخدِم مفردات لغةٍ تُشبه لغة الطفل، فنقول للحليب ـ مثلاً ـ «لولو» بلغة الأطفال (lolo)، أو للقمل (toto)، أو «عَوْ ـ عَوْ» لصوت نباح الكلب (ouah-ouah).

ـ في مجتمعاتنا الغربيّة نتكلَّم عادةً مع الأطفال بلهجةٍ معيَّنةٍ، وهذا ما تفعله الأمَّهات بوجهٍ خاصٍّ، فهنَّ يردِّدنَ الكلمات أو الجمل ويُبالِغنَ في استعمال المحيط الأدائيّ وتعابير الوجه ويتكلَّمنَ ببطءٍ ويتحدَّثنَ عن أمورٍ بسيطةٍ نسبيّاً (فهنَّ نادراً ما يتناقشنَ في مواضيع الفيزياء الكميّة مع ولدهنَّ البالغ من العمر 10 أشهرٍ). أمّا بالنسبة إلى مسألة استخدام معجم مفردات لغةٍ تُشبه لغة «الطفل»، فإجمالاً يتعلَّم

الأطفال كلُّهم الكلام في السنّ نفسه، مع أنَّ الأهل يُحدِّثون أطفالهم بطرقٍ مختلفةٍ جداً تتباين من ثقافةٍ إلى أخرى. ففي بعض البلدان، يهمِسُ الأهل حين يكلِّمون المولود الجديد. أمّا في بلدانٍ أخرى، فيرفعون ـ على العكس ـ نبرةَ صوتهم حين يُحدِّثون طفلهم. وأحياناً لا يتوجَّه الأهل بالطريقة نفسها إلى الفتيان الصِّغار وإلى البنات الصغيرات. هذا وفي بعض الأحيان، لا يُحدِّث الأهل أولادهم بشكلٍ مباشرٍ طالما أنَّهم لا يستطيعون التكلُّم بأنفسهم، وفي المقابل ينهالُ البعضُ الآخر منهم على الطفل بسيلٍ من الكلام. وفي أماكن أخرى، يكرِّر الأهل بلا كللٍ أو مللٍ الكلماتِ والجُمَل أو يوضِّحونها باستمرارٍ، إلى ما هنالك. وعلى الرَّغم من الاختلافات الثقافيّة هذه قاطبةً، يتعلَّم الأولاد كلُّهم التكلُّم بلغتهم الأمّ بشكلٍ سليمٍ.

من الفهم إلى الكلام

ـ نستنتج إذاً أنَّ الدور الذي يضطلع به الأهل محدودٌ جدّاً في إطار هذه الحكاية...

ـ لا يُعلِّم الأهل أولادهم التكلُّم، بل إنَّهم يُشكِّلون بالنّسبة إليهم نماذجَ عن اللُّغة والثقافة. ولا أقصد بقولي هذا أنَّ المحيط اللُّغويّ يكون مجرَّداً من أيّ أهميّةٍ، إذ إنَّه سيكتسب أهميّةً قصوى في مرحلةٍ لاحقةٍ ولا سيَّما لجهة اتِّساع معجم مفردات اللُّغة وغنى التركيب ووضوح النطق. ولكن أودُّ التشديد على أنَّ الحاجة إلى التواصل عبر الكلام هي في إطار جنسنا البشريّ محرِّكٌ للتعلُّم على درجةٍ عاليةٍ من القوة، بحيثُ إنَّ المولودين الجدد يتعلَّمون الكلام أيّاً يكن المحيط الذي يترعرعون فيه.

ـ إنَّهم على أيّ حالٍ يفهمون أسرع ممّا يتكلَّمون، وكلّ الأهل هم على بيّنةٍ من هذا الأمر.

- في الواقع، إنَّ الإنتاج اللغوي يأتي متخلّفاً جدّاً عن الفهم، ويُعزى ذلك إلى الأسباب التي أثرناها سابقاً، إذ إنَّ السيطرة الحركيّة الخاصّة بالكلام هي بمنتهى الصعوبة. ويبدأ الأطفال بفهم المعنى الذي تنطوي عليه الكلمات لدى بلوغهم الـ 9 أشهر من العمر تقريباً كما سبق وذكرنا، ولكنَّهم لا يشرعون بالنطق بهذه الكلمات بشكلٍ متعمَّدٍ إلاّ بين الشهرَين الـ 11 والـ 14 من عمرهم، وليس قبل ذلك. وبحسب دراسةٍ باللغة الإنجليزية، يفهم الأولاد في عمر الـ 16 شهراً عدداً من الكلمات يتراوح بين 92 و320 كلمةً، ولكنَّهم لا ينتجون منها سوى عددٍ يتراوح بين 10 و180 كلمةً.

- ما هي الكلمات الأولى التي ينطقون بها؟ هل هي دائِماً بابا وماما؟

- في أغلب الأحيان. وغالباً ما ينطقون بكلمة **بابا** (papa) قبل كلمة **ماما** (mama)، ومردّ ذلك بلا أدنى شكٍّ إلى أنَّ كلمة **بابا** هي أسهل قولاً من كلمة **ماما**. فهم ينطقون بادئ ذي بدءٍ بكلماتٍ سهلةٍ، ونذكر منها على سبيل المثال في اللُّغة الفرنسيّة الكلمات التالية: «**بابا**» (papa)، و«**دادا**» (dada)، أي جوادٌ في لغة الأطفال، و«**واوا**» (bobo)، أي ألمٌ خفيفٌ في لغة الأطفال ... ولكنَّهم لا يَنطقون مطلقاً بكلماتٍ من مثل «**فيفي**» (fifi)، أي بنتٌ في لغة الأطفال، و**جنديّ** (pioupiou)، لأنَّ النُّطق بهذه الكلمات أكثر صعوبةً. وغالباً ما تتكرَّر المقاطع اللَّفظيّة، كما في الكلمات الحقيقيّة، من مثل: «**بيبي**» (bébé)، أي طفل في لغة الأطفال، و«**بونبون**» (bonbon)، أي مُلبَّس في لغة الأطفال، ولكن أيضاً في كلماتٍ من مثل «**دادا**» (dada)، أي جوادٌ في لغة الأطفال، و«**حلابو**» (lolo)، أي حليب في لغة الأطفال، و«**دودو**» (dodo)، أي النوم في لغة الأطفال؛ ويُعزى سبب ذلك هنا أيضاً إلى أنَّ الحركة الدافعة تكون أكثر سهولةً. إنَّ

السعي إلى تبسيط الحركات الدافعة هو الذي يدفع بالطفل إلى قول كلماتٍ من مثل «papo» للدلالة على (**القبّعة**) «chapeau»، و«tato» للدلالة على (**قالب الحلوى**) «gâteau»، وهو الذي يؤدّي به إلى حذف الأحرف الصامتة الأخيرة من الكلمة (فيقول الطفل «cana» أو «caca» للإشارة إلى (**البطّة**) «canard»)، أو اختصار مجموعة الأحرف الصامتة منها (فيقول مثلاً «tin» بدلاً من «train» (**قطار**)، أو «bawo» بدلاً من «bravo» (**برافو**))، أو حتّى إنقاص عدد المقاطع اللَّفظيّة منها (فيقول «efan» للدلالة على «éléphant» (**فيل**)). . . إلخ. بيد أنَّ ذلك يتبدَّل كثيراً من طفلٍ إلى آخر تبعاً للفونيمات التي يستسيغ الطفل لفظها. وغالباً ما تكون هذه المرحلة بالتحديد صعبةً جدّاً، لأنَّ الولد لا يكون كفوءاً بما فيه الكفاية، بحيثُ إنَّه يقول العديد من الأمور التي تكون غير مفهومةٍ أحياناً. علماً بأنَّ الأمر يكون في هذا الصدد أيضاً رهن الثقافات. فغالباً ما يتعرَّف الأهل الأميركيّون على كلماتٍ يشقُّ تمييزها على أشخاصٍ آخرين أقلّ حبّاً للولد، لاسيَّما أنَّ اللُّغة الإنجليزية تنطوي على الكثير من الكلمات الأحاديّة المقطع أو الكلمات ذات المقطع اللَّفظيّ المُنبَّر جدّاً. وبالتالي، يُصدر الأطفال الأميركيّون الكثير من الكلمات الأحاديّة المقطع، من مثل «book» (**كتاب**) و«dog» (**كلب**)، بالإضافة إلى كلماتٍ من مثل «da» و«dad» للإشارة إلى كلمة «daddy» (**أبي**)، بما أنَّ الطفل سيُبقي على المقطع اللَّفظيّ الأوَّل من الكلمة، أي ذلك الذي يتناوله النبر.

ـ ينطوي معجم المفردات الأوَّل هذا على أسماء بشكلٍ أساسيٍّ. . .

ـ هنا أيضاً يكون الأمر منوطاً بالثقافات وببُنية اللُّغة الأمّ، فعلى سبيل المثال، يلجأ الأطفال الكوريّون إلى استعمال الأفعال أكثر بكثيرٍ

من الأطفال البريطانيّين المتعوّدين بشكلٍ خاصٍّ على الأسماء. إنَّ صِيَغ المجاملة هي أساسيّةٌ في الثقافة اليابانيّة، لذلك يستخدمها الأطفال اليابانيّون بسرعةٍ فائقةٍ. في حين أنَّ المصطلحات التي تدلّ على إنجاز فعلٍ ما، من مثل **لعِبَ** (jouer) و**قفزَ** (sauter) و**رقصَ** (danser)، تُهَيمن لدى الأطفال السويديّين، والكلمات المُرتبطة بالطعام... لدى الأطفال الفرنسيّين!

الفصل الثالث

إعادة ابتكار اللغة

الجُمَل الأولى

ـ بين الشهر الثامن عشر والسنتَين، يزداد عدد مفردات لغة الولد تزايداً أُسّياً، إذ يُقال إنَّه يتعلَّم عشر كلماتٍ في اليوم! فما هو مصدر هذا التسارُع؟

ـ ثمّة فرضيّاتٌ عديدةٌ. فإمّا أنَّ المسألة تتعلَّق بنضوج الدماغ، بحيثُ إنَّه يُصبح فجأةً قادراً على تخزين عددٍ أكبر بكثيرٍ من الكلمات، أو أنَّ التفسير يكتسبُ طابعاً وظيفيّاً، فيكون الأمر أشبه بما يحصل على حلبة التزلُّج، حيثُ إنَّكِ في البداية تقعين المرّة تلوَ الأخرى وتشبكين الزُحلوقتَين إحداهما بالأخرى... وحينها تُلازمين بتعقُّلٍ الحلبة الخضراء. ومن ثمّ ومن دون سابق إنذارٍ، تكونين قد أحرزتِ تقدُّماً كافياً، وهوب! تنطلقين نحو الحلبة السوداء! وهكذا، تشكِّل هذه المرحلة من تعلُّم اللغة البدايةَ، ويكتسب خلالها الطفل مهارةً وثقةً بالنفس ابتداءً من اللَّحظة التي يُسيطر فيها على مُمفصلاته، هذا إنْ لم يكن التسارُع ناجماً ببساطةٍ من ازدياد غنى عالم الطفل، الذي بات يتحرَّك ويقوم بتجاربه الخاصّة ويُكوِّن خبرته

الشَّخصيّة. فكم مرّةً يستطيع أن يوقع لعبته من على كرسيِّه وأن يستعيدها وأن يوقعها مجدَّداً. . . إلخ؟ وكآدمَ صغيرٍ أمام سرّ الخلق، يحتاج طفلنا إلى تسمية الأشياء كلّها التي يستكشفها بنفسه. علماً بأنَّ هذه الفرضيّات الثلاث لا تتنافى واحدتها مع الأخرى.

ـ ومع ازدياد معجم مفردات اللُّغة، نشهد ظهور الجُمل الأولى. . .

ـ ولكنَّها غالباً ما تكون غير متقنةِ الإعداد، من النمط التالي: «بابا ذهَبَ» («papa parti») و«بيبي واوا» («bébé bobo»). . . إلى ما هنالك. فلا يستخدم الطفل لا الضمائر ولا أدوات التعريف، ولا تتعدَّى «جمله» الكلمتَين أو الثلاث كلماتٍ. زِد على أنَّنا شكَّكنا لفترةٍ طويلةٍ بأنَّ الأولاد في هذا العمر يكونون لانحويِّين يُعانون حُبسةً تركيبيّةً، أي إنَّهم لا يفهمون الكلمات الإعرابيّة. ولربَّما خطَرَ لنا هذا حينها، لأنَّ غالبيّة الدراسات كانت تتناول أطفالاً ينطقون بالإنجليزية، وأنَّ الكلمات في اللُّغة الإنجليزية هي كلماتٌ ضعيفة التشكيل وبالكاد تُحرَّك، إلى أن أتى اليوم الذي أجرينا فيه الاختبار التالي: لقد ألقينا على مسامع مجموعةٍ من الأطفال جملاً مؤلَّفةً من أسماءٍ وأفعالٍ فقط لا غير، ولكنَّ ذلك لم يَرُقْ لهم أبداً! فهُم في الواقع يفهمون أدوات التعريف وحروف الجرّ وإلى ما هنالك ويترقَّبون سماعها. وبرهنَت أعمالٌ قامت بها مؤخَّراً آن كريستوف (Anne Christophe) أنَّ هذه الكلمات الصغيرة هي جوهريّةٌ بالنسبة إلى الأطفال وتساعدهم على تحديد مكان الكلمة التالية في الجملة من الإعراب. فإذا سمعَ الطفل البالغ من العمر 23 شهراً عبارة «انظر، هو نعم» («regarde, il vouiche») أو عبارة «انظر، نعم» («regarde, la vouiche»)، فهو سيفهم في الحالة الأولى أنَّ كلمة «vouiche» (**نعم**) هي فعل الجملة وتدلّ على العمل، وأنَّها في

الحالة الثانية اسم وتدلُّ على المفعول به. وبناءً عليه، إنْ كان الأولاد لا يُنتجون هذه الكلمات الصغيرة النحويّة، فليس لأنَّهم يجهلون قواعد اللُّغة، بل على العكس! فمردّ ذلك بلا شكٍّ إلى أنَّ تتابُع سلسلةٍ مؤلَّفةٍ من عدّة كلماتٍ يتطلَّب سيطرةً عاليةً على متتاليةٍ محرِّكةٍ نُطقيِّةٍ، الأمر الذي يتجاوز حدود قدراتهم! فيقولون في سرِّهم: دعنا من الكلمات الثانويّة، ولنركِّز على كلمات المضمون لكي نُبيِّن عن مرادنا! والزمن كفيلٌ بالباقي.

المتشدِّقون

ـ نعم، ولكن لا يتمّ ذلك بالطريقة نفسها لدى الجميع، إذ لا يكون لدينا انطباعٌ بأنَّ الأطفال يتَّبِعون في هذه المرحلة الإستراتيجيّةَ نفسَها لتعلُّم الكلام. وتبدو الاختلافات الفرديّة هائلةً.

ـ أنتِ على صوابٍ، فلكلِّ شخصٍ أسلوبه الخاصّ! ولتبسيط الأمور يُمكننا تصنيف الأطفال الذين يبدؤون بالتكلُّم في ثلاث فئاتٍ. فالسواد الأعظم منهم (أي ما يساوي الـ 75 بالمئة) لا يُعبِّر إلاّ بواسطة كلماتٍ، من مثل «قالب حلوى» («gâteau») و«خرجَ» («sortir») و«ماما ذهبت» («maman partie»)... إلخ. إنَّهم في أكثر الأحيان أطفالٌ تدقيقيّون يبذلون قصارى جهودهم للنطق بالكلمات بشكلٍ سليم، فيقولون «train» (قطار) وليس «crin» أو «tin». أمّا بعضهم الآخَر، وهم الأطفال العاطفيّون (ويُشكِّلون 20 بالمئة تقريباً)، فينتهجون طريقة تواصلٍ طنَّانةٍ رنَّانةٍ أكثر، إذ كونهم مُطنبين وميَّالين جدّاً للإسهاب، فهم يُنتجون أحاديثَ طويلةً نتعرَّف فيها على المحيط الأدائيّ الخاصّ باللُّغة... ولكنَّنا لا نفقه منها أيّ كلمةٍ تقريباً! كما أنَّ «جملهم» لا ترمي إلى قول أشياءَ عظيمةٍ. أمّا الباقون، وهم قلائل (يُشكِّلون 5 بالمئة)، فيعتزمون ألاّ ينبسوا ببنت شفةٍ ـ تقريباً ـ طالما

أنَّ كلامهم لا يتَّصف بالكمال. إنَّ هؤلاء المدقِّقين في الإتقان يفهمون جيِّداً ما يُقال لهم، غير أنَّ مجموع الكلمات التي يعرفونها ركيكٌ، إلى أنْ يأتي يومٌ يُفاجئوننا بتركيب جملٍ بديعةٍ ناجِزةٍ.

ـ عن أيّ عمرٍ يقومون بذلك؟

ـ هنا أيضاً تكون المسألةُ ذاتَ طابعٍ متقلِّبٍ للغاية، فقد نقع على أطفالٍ متشدِّقين يبلغون من العمر 20 شهراً، وعلى آخرين يبقى كلامهم غير مفهومٍ إلى حين دخولهم صفوف الروضة. ولكن يكتسب الطفل إجمالاً علمَ تركيب الجُمل بين عمر السنتَين والثلاث سنواتٍ. ويؤكِّد ستيفن بينكر (Steven Pinker) أنَّ الولد في الثالثة من عمره يكون نابغةً في قواعد اللُّغة. وهذا صحيحٌ. ففي أواخر عامه الثالث، يتضَلَّع الولد بالضمائر وبصيغة المجهول وبأدوات النفي وبتطابق الفعل والفاعل والنوع وبالأفعال الضميريّة. . . إلخ، ويُركِّب جملاً أطول أكثر فأكثر تنطوي على صلات الموصول، كما أنَّه يكون قادراً على رواية حدثٍ أو حكايةٍ، وعلى تفسير الأمور، مسلسِلاً 4 أو 5 جملٍ الواحدة تلوَ الأخرى. . . وهكذا، يكون الطفل قد امتلكَ كلّ أسرارِ اللغة، حتّى وإنْ كان لايزال يرتكبُ أخطاءً كثيرةً.

ـ ولكن ليس أيَّ نوعٍ من الأخطاء. . .

ـ فِعلاً، فهو سيرتكبُ بادئ ذي بدءٍ أخطاءً منوطةً بتركيب الجُمل في لغته الأمّ. وهكذا، قد يُسوِّغ طفلٌ إيطاليٌّ لنفسه حذف الفاعل من الجملة لأنَّ الفاعل لا يكون إلزاميّاً دائماً في لغته، ولكن لن يُقدِمَ الطفل الفرنسيّ على ارتكاب هذا النوع من الأخطاء، بل إنَّه سيرتكبُ أخطاءً نحويّةً جسيمةً، فسيقول مثلاً: «كان الأولاد الصِّغار يأخيذون الملبَّس» («les petits garçons prendaient des bonbons») أو «الحِصانات كانتوا قد ذهبت» («les chevals sontaient partis»). . .

إلخ. أترَين؟! إنَّها أخطاءٌ خاصّةٌ جدّاً لا يرتكبها شخصٌ أجنبيٌّ يتعلَّم لغتنا الفرنسيّة. لمَ ذلك؟ يُعزى السبب إلى أنَّ الطفل يُبالِغ في تعميم قواعد النحو. ويشقُّ عليه حفظ الحالات التي تشذُّ عن القاعِدة، لذا فهو لن يسِم علامة الجمع ـ التي من النادر أن نسمعها في اللُّغة الفرنسيّة ـ لكلمة **حِصان** (cheval) وسيُصرِّف فعل **أخَذَ** (prendre) الفرنسيّ كما يُصرِّف فعل **باع** (vendre). إنَّه باختصارٍ يُطبِّق القاعدة بحذافيرها! في حين أنَّ الشخص الأجنبيّ قد يُخطِئ ربَّما بشأن جمع كلمة «حِصان» (فيحتار إنْ كان عليه أن يقول «حِصانات» («chevals») أو «أحصنة» («chevaux»))، ولكنَّه لن يخترع أبداً شكلاً لم يسبق له قطّ أن سمعه، على غرار «يأخيذون» («prendaient»).

ـ ألا يُعزِّز ذلك رأي الألسنيّ نعوم تشومسكي الذي تحدَّثنا عنه مع باسكال بيك في مستهلّ كتابنا هذا: فهل ينطوي إذاً الدماغ البشريّ على قواعد لغةٍ كلّيةٍ فِطريةٍ؟

ـ سأكرِّر مرَّةً جديدةً بعدُ، أنَّ لدماغنا تنظيماً يخوِّله التعرُّف في نطاق محيطه على أصوات الكلام، وأنَّه يمتلك الأدوات لاستخراج بُنى هذه العناصر الصوتيّة، وللبحث عن القواعد وتملُّكها. هذه ميزةُ اللغة البشريّة. ويتمّ هذا الحساب الدِّماغيّ بشكلٍ لاواعٍ تماماً. فعلى سبيل المثال، لا يعلم الطفل قبل أن يتعلَّم القراءة أنَّ الكلمتَين الفرنسيَّتين **رضّاعة** (biberon) **وقارب** (bateau) تبدآن بالصوت نفسه. وهو يكون عاجزاً على أيّ حالٍ عن قول ذلك. مع أنَّه يستخدم هذا الفونيم بشكلٍ سليمٍ تماماً.

عشرة آلاف كلمةٍ!

ـ وبالطريقة نفسها، يكون عاجزاً عن تسميع أواخر الأفعال في صيغة كان + الفعل المضارع، أي ما يُعرف في اللُّغة الفرنسيّة بصيغة

الاستمرار (imparfait). . . مع أنَّه يقول بدقَّةٍ متناهيةٍ حين يُصرِّف الفعل «كان يأخيذ» («prendait») بدلاً من أن يقول «كان يأخذ» («prenait»)!

ـ تماماً. لستُ واثقةً إنْ كان ثمّة قواعد لغةٍ كلّيّةٍ بالمعنى الذي يتحدَّث عنه نعوم تشومسكي، ولكن بوسعنا أن نلاحِظ أنَّه في ما مضى كان العبيد من مختلف الإثنيّات في المستعمرات يبتكرون سريعاً ما يُشبه الرطانة، وهي عبارةٌ عن وسيلةِ تواصلٍ بدائيّةٍ للتفاهم، من نمط عبارة «أنا طرزان، أنتِ جاين» («Moi Tarzan, toi Jane»). وكان أولادهم يحوِّلون بمنهجيّةٍ هذة الرطانة إلى لغةِ مستعمراتٍ، أي إلى لغةٍ حقيقيّةٍ مزوَّدةٍ بقواعد لغةٍ نشأت على الأرجح من هذه القدرة على التعميم المُفرِط التي يتحلَّى بها صغار الإنسان الذين يكونون في طور تعلُّم التكلّم.

ـ أيّاً يكن من أمرٍ، هل يترتَّب على الطفل البالغ من العمر 3 سنواتٍ، والذي لا يعرف بعد أن يربط شريط حذائه، أن يكون متكلِّماً عن حقٍّ وحقيقةٍ؟

ـ أوه! لا يزال عليه أن يُحرِزَ الكثير من التقدُّم، كأنْ يزيد من مفردات لغته، فلدى بلوغه عامه السادس، سيُصبح في جعبته 10 آلاف كلمةٍ! وأن يُهذِّب إلمامه بقواعد اللُّغة وبعلم تركيب الجُمل! ولكن لنقل إنَّه لن يكون أمامه بعد الآن أيّ مرحلةٍ جوهريّةٍ ليتجاوزها على الصعيد المعرفيّ، فلا يبقى عليه إلاّ التمرُّس والتمرُّن. وبناءً على ذلك، يطرح السؤال التالي نفسه: هل يتعيَّن لِزاماً أن يتكلَّم الطفل في الثالثة من عمره؟ ما من جوابٍ بسيطٍ على هذا السؤال. فكما سبق لي أن أشرتُ، تكتسبُ الاختلافات الفرديّة أهميّةً كبرى في هذا الصدد. إنَّ مُنحنى تطوُّر التعلُّم هو مُنبسطٌ للغاية، إذ يصعب علينا معرفة ما إذا كان الطفل الذي لا يتكلَّم جيِّداً في هذا العمر يُعاني

مجرَّد تأخُّرٍ بسيطٍ في تعلُّمه، أم أنَّ هذا التأخُّر هو مؤشِّرٌ مَرَضيٌّ. وبحسب الدراسات، إنَّ نسبةً تتراوح بين 8 و10 بالمئة من الأطفال يعانون اضطراباتٍ في تعلُّم اللغة، وليس هذا بالأمر البسيط الذي لا يُعتدُّ به... ولكنَّ السبب الأوَّل الذي ينبغي أن نبحث عنه هو طبعاً الصمم.

- ولكنَّنا نتحدَّث عن أطفالٍ في ربيعهم الثالث! فهل من الممكن ألاّ يفطن أحدٌ إلى وجود الصمم حتّى بلوغ الولد مثل هذا العمر المتقدِّم؟

- نعم، كثيراً ما يحدث ذلك. ويُعزى السبب أوَّلاً إلى وجود درجاتٍ متفاوتةٍ من الصمم، إذ إنَّ سيِّئي السمع لا يكونون مصابين جميعهم بطرشٍ كليٍّ، فصحيحٌ أنَّهم لا يسمعون جيِّداً، ولكنَّهم يسمعون قليلاً. وأحياناً يكون الأولاد ماكرين، إذ إنَّهم يعوِّضون عن إعاقتهم من خلال استخدام مختلف أنواع الدلائِل التي تكون في متناولهم لكي يفهموا ما يُقال. فمثلاً، عندما تُقبِل الماما حاملةً معطفها، فمن المحتمل جدّاً أن يعني ذلك أنَّنا «سنغادر المنزل» («on va sortir»). ويُفسِّر ذلك واقع أنَّ عدداً كبيراً من الأهل الذين يقاومون على أيّ حالٍ فكرة أنَّ ولدهم لا يُشبه تماماً الأولاد الآخرين، يستغرقون وقتاً طويلاً قبل أن ينشغِل بالهم بما فيه الكفاية ليستشيروا طبيب الأذن والأنف والحنجرة. ولكن لا يجدر بنا أن نقسوَ عليهم، إذ يصعبُ فِعلاً كشف النقاب عن هذه الإعاقة، فمنذ بضع سنواتٍ خلت، كشفت دراسةٌ منهجيّةٌ تناولت مراهقي إقليم إندر ولوار (Indre-et-Loire) كلّهم عن ضعفٍ كبيرٍ في السمع لدى عددٍ لا يُستهان به منهم، وكان ذلك ناجماً من سوء استخدام جهاز الموسيقى الجوَّال (walkman). ولكن، لم يكن أحدٌ متنبِّهاً لذلك، فلا الأهل فطِنوا لهذا الأمر ولا الأساتذة ولا حتّى المراهقون

أنفسهم! مع أنَّه كان حريّاً بهم أن يشكُّوا بوجود الصمم كردّةِ فعلٍ أوّليّةٍ فور حصول تدهورٍ مفاجئٍ في نتائج الأولاد المدرسيّة وأنْ يستشيروا طبيب الأذن والأنف والحنجرة أوّلاً للتأكُّد من أنَّ المسألة لا تتعلَّق ببساطةٍ بإشكاليّةٍ في السمع.

جينات اللغة؟

ـ ما هي الأسباب الأخرى الكامنة وراء حصول اضطرابات لغوية؟

ـ إنَّها أسبابٌ لا تُعدّ ولا تُحصى. فكما رأينا سابقاً، إنَّ اللغة هي نظامٌ معقَّدٌ، في حين أنَّ الدماغ هو عضوٌ هشٌّ. فعندما نُصادف طفلاً يتكلَّم قليلاً، أو بشكلٍ سيّئٍ، قد نردّ ذلك أحياناً إلى وجود تشوُّهٍ خَلقيٍّ، أو جُرحٍ، أو عُقبولِ التهاب السحايا، أو أكسجةٍ سيئةٍ لدى الولادة، أو ابتسارٍ... إلخ، أو نعتبر أنَّ صعوبات التعلُّم هذه هي منوطةٌ بتخلُّفٍ عقليٍّ شاملٍ، أو بأمراضٍ أخرى، مثل الانطواء. وبالطبع، عندما نستبعد هذه الأسباب كلّها، نشكُّ حينها بأمر الجينات.

ـ على غرار جينة فوكس پ2، التي تمَّ تقديمها منذ بضع سنواتٍ خلت بصفتها جينة اللغة؟

ـ لقد تمّ تفحُّص هذه الجينة بمعزلٍ عن سواها بسبب عائلةٍ بريطانيّةٍ (معروفةٍ بالاسم المُختصر KE) كان نصف أفرادها يُعانون اضطراباتٍ لغوية ويَشْكُون من تحوُّلٍ في هذه الجينة. وقد خلنا بادئ الأمر أنَّ الخلل لديهم يكمن بشكلٍ أساسيٍّ في قواعد اللُّغة، وجاء الزَّعم باكتشاف جينة اللغة الوحيدة متسرِّعاً. ففي الواقع، يُعاني أفراد هذه العائِلة اضطراباتٍ في النُّطق، ولذلك كانوا يتحاشون بداهةً قول جملٍ طويلةٍ، لأنَّها عويصةٌ بالنِّسبة إليهم. وعليه، إنَّ جينة فوكس پ2 هي جينةٌ مثيرةٌ للاهتمام لأنَّها لا تخصّ الدماغ وحده، إذ إنَّها

تتجلّى أيضاً في الرئة والقلب والأمعاء، وحتَّى إنَّها ليست حكراً على الإنسان، بحيثُ إنَّنا نعثر عليها لدى الفئران والعصافير على سبيل المثال. وتتَّصف هذه الجينة بطابعها المُستقرّ نسبيّاً لدى هذه الأجناس كلّها. وهي متشابهةٌ بنسبة 98٪ بين الإنسان والعصفور، إلاّ أنَّ التحوّل أصابها مرَّتَين منذ تباعُد الإنسان عن قِرد الشمبانزي، ممّا يشهدُ على حدوث ضغطٍ اصطفائيٍّ شديد الوطأة مؤخَّراً. وبالإضافة إلى ذلك، تؤشِّر عمليّة صَوْغ التحوُّليّة بين الأجناس في نماذجَ رياضيّةٍ إلى أنَّ شكل هذه الجينة الحاليّ قد نشأ على الأرجح منذ زهاء الـ 200 ألف سنةٍ، أي ربَّما لدى ظهور ملَكَة اللغة لدى أسلافنا. وأخيراً، تبرز هذه الجينة لدى العصفور في المناطق التي تتحكَّم بإنتاج الشدو، ولا سيَّما خلال الفترة الحاسمة من تعلُّمه. أمّا لدى الإنسان، فقد أظهرت دراسات صور الأشعَّة التي أُخِذَت لعائلة KE، وجودَ شذوذٍ في الضفائِر التي تضبط تخطيط حركات الفمّ والوجه والقيام بها، ما أدَّى إلى حدوث خللٍ في النطق لدى الأفراد المصابين في هذه العائِلة، فمن الجائِز أن نعتبر إذاً أنَّ تطوُّر جينة فوكس پ2 قد اضطلع فِعلاً بدورٍ معيَّنٍ في نشأة اللغة، ولكن ليست هذه الجينةُ الجينَةَ الوحيدة المسؤولة عن اللغة طبعاً، إنَّما هي جينةٌ تُساهِم في التسلسل الوِراثيّ الذي يُشارِك في اللغة، ولا سيَّما في شقِّها المُنتِج.

ـ نستنتج إذاً أنَّه ما من جينة لغةٍ واحدةٍ، بل عدّة جيناتٍ، كما نوّه به باسكال بيك.

ـ بالضبط. تشترك عدَّة جيناتٍ في ذلك. فلكي نتكلَّم يلزَمنا أن نُميِّز المقطع اللَّفظيّ «بْ» («be») عن المقطع اللَّفظيّ «تْ» («te») بالقدر نفسه الذي نحتاج فيه إلى التمرُّس بعلم التركيب وامتلاك معجم مفردات اللُّغة. هذا ومن ناحيةٍ ثانيّة، لا يتَّخِذ عسر الكلام شكلاً واحداً، بل عدّة أشكالٍ، فبعض الأولاد ينطقون بشكلٍ مُذرٍ،

ويُبعثرون ترتيب الفونيمات (فيقولون مثلاً «مِقنَلة» («bourette») بدلاً من مِنْقَلَةٌ[*] («brouette»). في حين يُعاني آخرون اضطراباتٍ في فهم الكلام مع أنَّهم يتمتَّعون بحاسّةِ سمعٍ رهيفةٍ. وقد يمتلك آخرون أيضاً معجم مفرداتٍ ركيكاً بنوعٍ خاصٍّ، فيواجهون صعوباتٍ في إيجاد الكلمات ويُركِّبون جملهم بشكلٍ كيفيٍّ (أو بشكل غير صحيح نحويّاً)، ويُسقطون أدوات التعريف وحروف الجرّ، ويتلفَّظون بجملٍ من مثل «أريد إلى الخارج أن أذهب» («je veux dehors aller») و«سآكل هذه» («je mange ça») بدلاً من قول «سآكلها» («je la mange»)، أي إنَّ أسلوبهم يبقى برقيّاً (télégraphique)، رغم بلوغهم سنّاً لا يجدر بأسلوبهم فيه أن يبقى كذلك. ونستنتج من كلّ ما تقدَّم ما يلي: من المرجَّح أنّ ثمّة جيناتٍ مختلفة وراء كلّ ذلك. ونأمل طبعاً أن تتقدَّم الأبحاث في هذا المجال، لأنَّ من شأن هذه الاضطرابات أن تُصعِّب حياة هؤلاء الأولاد الذين يشقّ عليهم التواصل مع أنَّهم يتمتَّعون في أغلب الأحيان بذكاءٍ طبيعيٍّ جدّاً.

إينشتاين، هذا «المتخلِّف»

ـ لا يكون للغة إذاً علاقة متبادلة مع الذكاء؟

ـ كلا. ليس بشكلٍ بسيطٍ أو جليٍّ على أيّ حالٍ، والبرهان أنَّ هؤلاء الأولاد المصابين بعسر الكلام يتمتَّعون أحياناً بذكاءٍ يفوق المعدَّل الطبيعيّ. وبالعكس، يصوغ الأولاد المُصابون بتناذُر وليام (Syndrome de Williams)، أي الأولاد المِهذارين الهَذَيانيِّين، جملاً معقَّدةً، كما أنَّهم يستخدمون كلماتٍ فذَّةً نادرةَ الاستعمال، إلاّ أنَّ فصاحتهم تُخفي تأخُراً فكريّاً تتفاوت درجة حدَّته.

(*) مِنقَلَة: نقالة بعجلتين استعملت قديماً لنقل الأشخاص.

- نعرفُ جميعاً المثل الذي يُطمئِن الأهل ويُهدِّئ من روعهم، وهو مَثَل ألبرت إينشتاين (Albert Einstein)، الذي اشتُهِرَ عنه أنَّه لم يتكلَّم قبل بلوغه عامه الرابع أو الخامس.

- أجل. فعلى ما يبدو، لقد تكلَّم إينشتاين عن عمرٍ متأخِّرٍ وظلّ يتكلَّم ببطءٍ لفترةٍ طويلةٍ. ولكن ما هي الأسباب الكامنة وراء ذلك؟ لم يكن أحدٌ متوفِّراً آنذاك لتشخيص هذا العارض وتقدير الموقف، فلقد ترعرَع ألبرت الصغير في مجتمع صارمٍ على يد والدةٍ قاسيةٍ متزمِّتةٍ.. فلربَّما لم يكن يتكلَّم مع الأشخاص الراشدين المحيطين به، لأنَّه ببساطةٍ لم يكن يرغب في القيام بذلك. وبلا مزاحٍ، لا يُعدّ بالضرورة كلّ تأخيرٍ مؤشِّراً على وجود مرضٍ ما.

- كثيراً ما أكَّد إينشتاين أنَّه لم يكن للغة دورٌ في تأمُّلاته، وأنَّه نادراً ما كان يُفكِّر تفكيراً يرتكز على الكلمات، بل كان يشعر بحدسٍ يقدحُ شرراً يصعبُ عليه لاحقاً أن يصوغه في كلماتٍ.

- حريٌّ بنا أن نتنبَّه إلى أنَّ المفاهيم التي اخترعها إينشتاين كانت تسبق عصره بكثيرٍ، لدرجة أنَّه لا يُدهشنا ألبتّة أن يكون جَهِدَ ليعثر على الكلمات المناسبة للتعبير عنها، إذ إنَّ العلاقة التي تربط اللغة بالفكر هي على جانبٍ كبيرٍ من التعقيد، فمن دون لغةٍ، كيف السبيل إلى السيطرة على مفاهيمَ مجرَّدةٍ؟ وتروي إيمانويل لابوريت (Emmanuelle Laborit)، وهي الممثِّلة الصمَّاء الشهيرة، أنَّها قبل أن تتعلَّم لغة الإشارات لم تكن ملمَّةً بمفهوم الوقت، وأنَّها لم تكن تُدرك مبدأ القبل والبعد. ولكن يُمكننا أن نُجيبَ على ذلك بأنَّ بعض الحيوانات تملك حسّ الوقت، وقد تمّت برهنة هذا الأمر لدى الجرذان على سبيل المثال، ولكنَّها تعجزُ، بسبب افتقارها إلى ملَكَة اللغة عن التعبير عن ذلك أو عن نقله. وباختصارٍ، لا غنى عن اللغة لتنظيم الفِكر ومشاطرته مع الآخرين. فهي بلا شكٍّ تُتيح للكفايات

المعرفيّة المُختلفة مجالاً للتداوُب... إلاّ أنَّ ذلك لا يحُول دون إمكانيّة اتِّخاذ الفِكر أشكالاً تنأى عن اللغة، على غرار الموسيقى وبَدائِه الرياضيّات مثلاً.

إنْ كان الولد لا يتكلَّم

ـ نُدرك جيِّداً ما تُقدِّمه اللغة لسائِر الوظائف المعرفيّة. فما الذي يجدر بالأهل فعله إذاً إنْ كان ولدهم لا يتكلَّم جيِّداً؟

ـ إذا كان ولدنا البالغ من العمر 3 سنواتٍ لا يتكلَّم، أو في حال لم يكن أحدٌ من خارج المحيط العائليّ يفهم ما يقوله، يُستحسَن بنا ومن دون أن ينتابنا الهلع أو يجنَّ جنوننا، استشارة شخصٍ أخصّائيٍّ في المجال. فإذا تبيَّن أنَّ الطفل يشكو من مجرَّد تأخُّرٍ بسيطٍ، فمن شأن ذلك أن يُهدِّئ من روع الأهل. أمّا إذا كانت المسألة تتعلَّق باضطرابٍ لغوي، فكلَّما كان الكشف التشخيصيّ مُبكِراً وكلَّما بكَّرنا في المعالجة، زادت فرص التحسُّن والشِّفاء.

ـ هل من علاجاتٍ ناجعةٍ لذلك؟

ـ يكون الأمر وقفاً على الحالة. فأحياناً تكون علاجات إعادة التأهيل للتصويب النُّطقيّ فعّالةً للغاية. خاصّةً أنَّ مجرَّد طرح التشخيص يُخفِّف في أغلب الأحيان عن كاهل الأهل والولد معاً. وقد يبدو ذلك مُفارِقاً، ولكن حين يعرف الأهل أنَّ التأخُّر في اللغة سببه عضويٌّ، فمن شأن ذلك أن يزيل الشعور بالذنب لديهم، لأنَّهم يكونون قلقين من فكرة أنَّهم أخفقوا في إحدى المراحل، أو أنَّهم لم يُحسِنوا التكلُّم مع ولدهم. وكذلك يشعر الولد بالارتياح لأنَّه في البداية يخال نفسه غبيّاً، ولكنَّه حين يعلم أنَّ الذنب ليس ذنبه، وأنَّ العلَّة تكمن في عيبٍ صغيرٍ في تكوّن دماغه، تماماً كما يوجَد عيبٌ

في عين رفيقه يُضطرُّه إلى وضع النظّارات. إلاّ أنّه لم يتمّ بعد ابتكار «نظّاراتٍ للدماغ» إنْ جاز التعبير، ولكن يحدونا الأمل ـ ولا سيَّما بفضل الأبحاث في مجال التصوير الطبقيّ ـ أن نفهمَ السيرورة الطبيعيّة لتعلُّم اللغة على نحوٍ أفضل، وبالتالي أن نفهمَ بشكلٍ أفضل كذلك حالات الخلل الوظيفيّ المحتملة، من أجل ضبط تقنيَاتٍ للتأهيل تكون على جانبٍ أكبر بعد من الفعاليَة.

ـ المهمّ هو أن يتمّ العلاج بأسرع وقتٍ ممكنٍ، لأن ثمّة مرحلةً حاسمةً في ما يخصُّ تعلُّم اللغة، هل هذا صحيحٌ؟

ـ نعم. يتعيَّن أن تنشأ هذه الإوالَة العصبيّة كلّها الخاصّة باللغة، وأن تُشغَّل قبل بلوغ الولد عمراً معيَّناً، وإلاّ فهو لن يتمكَّن بعد ذلك من تعلُّم لغته الأمّ بشكلٍ سليم، ولا سيَّما تركيب الجمل وبعض عناصر قواعد اللُّغة، على شاكلةٍ تصريف الأفعال وتناسب الأفعال في اللُّغة الفرنسيّة. ولكن ما هو الحدّ الأقصى الذي تبلغه هذه المرحلة الحاسمة من عمر الولد؟ لا نعلمُ حدودها بدقّةٍ، وبالطبع لن يُكرِّر أحدٌ التجارب التي قام بها الفرعون پسماتيك الأوّل أو الإمبراطور فريديريك الثاني من سلالة هوهنشتاوفن، اللّذَين تحدَّث عنهما لوران ساغار. كما أنَّ حالات الأولاد الذئاب، أو الأولاد الهمجيِّين، على غرار حالة فيكتور (Victor) من إقليم أفيرون (Aveyron) الشهيرة، أو حالة أولاد الخزانات (من مثل جيني (Genie)، وهي فتاةٌ أميركيّةٌ صغيرةٌ احتُجِزَت حتّى بلوغها الـ 13 عاماً من عمرها) أو أيضاً حالة غاسبار هاوسير (Gaspard Hauser)، لا تخوِّلنا الإجابة عن هذا السؤال، إذ إنَّ هؤلاء الأولاد المُبعدين طوال سنواتٍ عديدةٍ عن الجماعة البشريّة، عانوا الأمَرَّين لدرجة أنَّه لم يعد بوسعنا أن نُحدِّد المصدر الذي تحدَّرت منه إشكاليّة اللغة التي يُعانونها. ومَن يدري إنْ كانوا أصلاً طبيعيِّين لدى الولادة.

الحوار هو الأساس!

ـ هل تمدُّنا مراقبة الأولاد الصمّ بإرشاداتٍ إضافيّةٍ؟

ـ لدينا دلائِل حصلنا عليها بفضل مراقبة أولادٍ صمٍّ بالولادة ترعرعوا في كنف عائلةٍ لا يُعاني أفرادها الصّمَم. ووجدنا أنَّ هؤلاء الأطفال لا ينقصهم الحنان ولا الروابط الاجتماعيّة، ولكن إنْ هم لم يتعلَّموا لغةً في سنوات حياتهم الأولى، سواء لغة الإشارات أو لغة ذويهم في حال كان بالإمكان تركيب جهاز سمعٍ بديلٍ لهم يفي بما فيه الكفاية بالغرض، حينها سيتعذَّر عليهم التمرُّس باللُّغة في ما بعد. ونعرف حقّ المعرفة الحالة الموثَّقة جدّاً بالمُستندات والتي تتناول فتًى مكسيكيّاً أصمّ لم يتمّ تركيب جهازِ سَمْعٍ بديلٍ له قبل بلوغه الـ 12 سنةً من عمره إثر مهاجرته إلى كنداً، فهو اليوم يتكلَّم ولكنَّه يُسقِط حروف النّفي، ولا يُحسِن مطابقة الفعل والفاعل. . . إلى ما هنالك. وقد عمَّمت دراسةٌ أخرى قامت بها ألسنيّةٌ أميركيّةٌ تُدعى راشيل مايبوري (Rachel Mayberry) هذه الملاحظة، فقد قابلت النتائِج التي كانت تُحقِّقها مجموعتان مؤلَّفتان من أشخاصٍ صمٍّ راشدين يُعبِّرون بلغة الإشارات الأميركيّة (ASL)، علماً بأنَّ بعضهم كان قد تعلَّم لغةً على يد ذويه، سواء اللُّغة الإنجليزية في حالة الصّمَم المتأخِّر أو لغة الإشارات الأميركيّة في حالة الصّمَم الوِراثيّ، في حين أنَّ البعض الآخر، وهم أشخاصٌ صمٌّ باكوريِّين، لم يكونوا قد تعلَّموا لغة الإشارات الأميركيّة قبل دخولهم إلى المدرسة. وتبيَّن أنَّ هؤلاء الذين كانوا على اتِّصالٍ بنظامٍ لغويٍّ أيّاً يكن خلال سنوات حياتهم الأولى، حتّى وإنْ لم يكن هذا الاتِّصال قد تمّ مع اللُّغة نفسها، يملكون مستوى أفضل بكثيرٍ من الأشخاص الذين لم يتلقّوا أيَّ تعلُّمٍ لغويٍّ مُبكرٍ بسبب إعاقتهم، أو لعدم وجود «مؤشِّرين» في

محيطهم، ففي سيرورة تعلُّم اللغة، يبدو إذاً أنَّ التفاعل بين البشر عبر نظامٍ لغويٍّ معيَّنٍ منذ نعومة الأظافر هو أمرٌ أساسيٌّ للغاية.

ـ إذاً ثمّة مرحلةٌ حاسمةٌ لتعلُّم اللغة، ولكن يُبرهِن الدماغ في الوقت نفسه عن طواعيَةٍ مذهلةٍ. وأفكِّر تحديداً بهؤلاء الأولاد الذين تمّ تبنِّيهم بشكل متأخِّر وهم في سنٍّ متقدِّمة، تتراوح بين 6 و8 سنواتٍ، لا بل 12 سنةً أحياناً، والذين ينسون لغة مَولِدهم ولكنَّهم يتعلَّمون اللُّغة الفرنسيّة على أكمل وجهٍ.

ـ لقد حصل زميلي كريستوف بالييه (Christophe Pallier) على نتائجَ مثيرةٍ جدّاً للاهتمام في هذا الشأن، فلقد أجرى اختباراً على أشخاصٍ بالغين من أصلٍ كوريٍّ تبنَّتهم عائلاتٌ فرنسيّةٌ في صغرهم، وبعضهم لم تكن رجله قد وطِئَت الأرض الفرنسيّة قبل بلوغه عامه الثامن، في حين أنّهم بداهةً كانوا يُجيدون التكلُّم، لا بل القراءة والكتابة أيضاً في لغتهم الأمّ، وحتَّى أنَّ أحدهم يروي بأنَّه احتفظَ بذكرياتٍ من طفولته التي عاشها في كوريا، ولا سيَّما ببعض الروائح التي لا زالت عالقةً في ذهنه، ولكنَّه نسِيَ تماماً لغته الأمّ، شأنه في ذلك شأن سائِر المُشاركين في الدراسة. وجميعهم يتكلَّمون اللُّغة الفرنسيّة مثلكِ ومثلي بلا لكنةٍ ومن دون ارتكاب أخطاءٍ. وما يدعو للدهشة أكثر بعدُ هو أنَّه اتَّضحَ من التصوير الطبقيّ بالرنين المغنطيسيّ أنَّ دماغهم لا يتفعَّل أكثر من دماغ شخصٍ فرنسيٍّ مولودٍ في فرنسا لدى سماعهم اللُّغة الكوريّة، فكما لو أنَّهم استبدلوا تماماً لغةً بلغةٍ أخرى، وحتّى إنَّنا لا نعلمُ (إذ لا يزال علينا أن نعمل على دراسة هذا الموضوع) إنْ كان باستطاعتهم أن يتعلَّموا اللُّغة الكوريّة أسرع من الفرنسيِّين العاديِّين. وعليه، نستنتج أنَّ الدماغ هو مِطواعٌ بما فيه الكفاية ليستبدِل لغةً بأخرى حتَّى في عمرٍ متقدِّمٍ نسبيّاً.

ـ هذا أمرٌ يدعو فِعلاً إلى الدهشة، إذ كيف يُمكن للمرء أن ينسى لغته الأمّ الخاصّة وأن تبقى بعض الذكريات عنها محفورةً في ذاكرته؟ فلو ألقينا نظرةً من حولنا على الولد الذي يبلغ 8 سنواتٍ من العمر والذي يعرف أن يقرأ وأن يكتب وأن يَعُدَّ وأن يُغنّي وأن يستظهِر الأشعار وأن يروي حكاية الخِنَّوْصات الثلاثة (*les trois petits cochons*)، يشقُّ علينا أن نتصوَّر أنَّه قادرٌ على محو لغته الأمّ من ذاكرته إلى الأبد. . .

ـ إنَّه أمرٌ لا يُعقَل، ولكنَّه صحيحٌ! ويحصل ذلك على الأرجح حين يتمّ قطع الصِّلات التي تربط الأولاد بلغتهم الأمّ كليّاً، فباعتبار أنَّ عائلاتٍ فرنسيّةً قامت بتبنّي هؤلاء الكوريِّين، فهم لم يحظوا مطلقاً بفرصة سماع لغة مسقط رأسهم بعد ذلك لأنَّها غير شائِعةٍ في فرنسا. أمّا لو تبنَّت عائلاتٌ أميركيّةٌ أطفالاً إسبانيِّين على سبيل المثال، فلن يخسروا لغتهم الإسبانية خسارةً تامَّةً، لأنَّهم سيُصادفون حكماً بين الحين والآخر أحداً يتكلَّم لغتهم الأمّ في الشارع أم أنَّهم سيسمعونها عبر شاشة التلفاز أو عبر جهاز الراديو. . . ممّا يحول دون نسيانها من وجهة نظري.

في دماغ ثنائيي اللغة

ـ ربَّما حالفهم الحظّ ليصبحوا ثنائيي اللغة. . . ولكن كيف تجري الأمور تحديداً في دماغ ولدٍ ناطقٍ بلغتَين؟ إذ يقول لوران ساغار إنَّ مصير الإنسان مآله إلى التعدُّديّة اللغوية.

ـ نحن في فرنسا غالباً ما نعطي هذا الأمر أهميّةً مبالغاً فيها، لأنَّنا بشكلٍ عامٍّ أحاديّي اللُّغة منذ مدرسة جول فيري (Jules Ferry). غير أنَّ الثنائية اللغوية هي عملةٌ رائِجةٌ في مناطق أخرى من العالم، كما هو الحال في كتالونيا (Catalogne) مثلاً، لكي لا نبتعد كثيراً.

ومع تقنيّات التصوير الطبقيّ، من المفيد جدّاً أن نراقب ما يحدث في دماغ ثنائيي اللغة عندما يتكلّمون لغتهم الأولى أو لغتهم الثانية. فلدى الشخص البالغ، نرى أنَّ منطقتَين مختلفتَين تتفعَّلان في المنطقة الجبهيّة تبعاً لكونه يتكلَّم بلغةٍ أو بأخرى. أمّا في ما يتعلّق بفهم اللغة في المقابل، فلم نرصد أيّ اختلافٍ منظورٍ ـ حتّى الآن على الأقلّ ـ لدى ثنائيي اللغة «الفعليّين»، إذ يبدو أنَّ هؤلاء يستخدمون المناطق الصدغيّة الجداريّة اليُسرى نفسها تماماً لتكلُّم اللُّغتَين. أمّا لدى ثنائيي اللغة «المزيَّفين»، أي الأشخاص الذين يتكلَّمون لغةً ثانيةً ولكن بصعوبةٍ تفوق صعوبة تكلُّمهم بلغتهم الأمّ، فتُطالعنا الأوضاع المحتملة كلُّها، بما في ذلك وجود فصلٍ تامٍّ بين المنطقتَين المُفعَّلتَين للُغتَين، بحيثُ تستخدِمُ اللُّغة الأمّ الجهةَ اليُسرى بينما تستخدم اللُّغة الثانية الجهة اليُمنى! فكما لو كان ثمّة بُنيةٌ وحيدةٌ لتعلُّم اللُّغة الأولى، ومن ثمّ يختار الدماغ بين عدّة إستراتيجيّاتٍ محتملةٍ لتعلُّم اللُّغة الثانية، تبعاً لطُرق التعلُّم المتَّبعة أو للسنّ. ويبقى سؤالٌ عالقٌ طبعاً، ألا وهو: هل يستخدم ثنائيو اللغة الكاملون المناطق الدماغيّة اليُسرى نفسها في اللُّغتَين لأنَّهم أصبحوا أكفياء بالقدر نفسه في اللُّغتَين معاً، وبالتالي ما عادوا بحاجةٍ إلى المناطق الثانويّة، أم أنَّهم يتكلَّمون بلغتَين لأنَّهم اختاروا منذ البداية إستراتيجيّةً فعّالةً ترتكز على هذه المناطق الصدغيّة اليُسرى؟ إنَّها قصّة معرفةِ إنْ كانت البيضة وُجِدت قبلُ أم الدجاجة.

ـ تتحدَّثين عن ثنائيي اللغة «الفعليّين»... ولكن هل يستطيع المرء أن يتكلَّم بلغتَين على الوجه الأكمل تماماً؟ ألا تُهيمن دائِماً لغةٌ على الأخرى؟

ـ إنَّه سؤالٌ تصعبُ الإجابة عنه، وغالباً ما يتردَّد ثنائيو اللغة أنفسهم بالردّ عليه. خصوصاً لأنَّهم أحياناً لا يوظِّفون اللُّغتَين في

مجال الاستخدام نفسه: العائليّ والمهنيّ والاجتماعيّ... إلخ. ويزعم البعض أنَّ اللُغة الأولى، أي اللُغة الأمّ الفعليّة، هي تلك التي نشتمُ ونسبُّ فيها عندما نستشيطُ غضباً. في حين يعتبر آخرون أنَّها اللُغة التي نعدُّ فيها... ولكنَّ الصحيح هو أنَّنا نحفظُ غيباً بعض الوقائع الحسابيّة في اللُغة التي تعلَّمناها فيها. فنحن نحفظ على سبيل المثال جداول الضرب باعتبارها كتلةً مؤلَّفةً من أصواتٍ/ ومعانٍ. وعليه، فإنْ تعلَّمناها في لغةٍ لن تكون ترجمتها تلقائيّةً، حتَّى وإنْ كنَّا ثنائيي اللغة، بل يجدر بنا أن نتعلَّمها مجدَّداً في اللُغة الأخرى.

فلتحيَ اللُغات!

ـ هل باستطاعة المرء أن يكون ثلاثيَّ اللُغة أو حتَّى رُباعيَّ اللُغة على الوجه الأكمل؟ فما هو عدد اللُغات الأقصى التي نستطيع أن نتعلَّمه؟

ـ ما من دراساتٍ قد تناولت فعلاً هذا الشأن. ولا أدري إنْ كان ثمّة حدٌّ أقصى، ولكن على أيّ حالٍ من النادر جدّاً أن نُصادف شخصاً يتكلَّم 25 أو 40 لغةً بطلاقةٍ. إلاّ أنَّ الأشخاص ثلاثيّي اللُغة، أو حتَّى رُباعِيِّيها ليسوا فريدين من نوعهم. ومع ذلك، أعرفُ شخصاً يصلحُ ذكره كمثلٍ على ذلك، ألا وهو أستاذي جاك ميلير، الذي تولَّى لفترةٍ طويلةٍ إدارة المختبر حيثُ كنتُ أعمل، والذي كان يتكلَّم عدداً كبيراً من اللُغات (فهو يتكلَّم أربع لغاتٍ بطلاقةٍ ويفهم عدداً أكبر بكثيرٍ منها). ولكن، لديه لكنةٌ خفيفةٌ في هذه اللُغات كلّها، كما أنَّه أحياناً يُركِّب جُمله بشكلٍ فيه بعض الغرابة أو يستخدم مفردات لغةٍ غير مستعملةٍ. فكما لو أنَّه لا يملك لغةً أُمّاً في النهاية!

ـ من شأن ذلك أن يزرع الذعر في نفوس الأهل الذين يخافون دائِماً من تشويش الولد إنْ هم كلَّموه بلغتَين!

ـ هذا خطأٌ، إذ ليست ثنائية اللُّغة بحدّ ذاتها سبباً من الأسباب التي تؤدِّي إلى حصول اضطرابات لغوية. وبالطبع، إنَّ تعليم لغتَين للأولاد الذين يُعانون أصلاً أمراضاً لغويّة ليس بالأمر السَّهل، أمّا بالنِّسبة إلى الأولاد الآخرين، فلن يُغيِّر واقع أن يُصار إلى تربيتهم في لغتَين من مراحل تعلُّمهم، حتَّى وإنْ كان من شأنه أن يؤخِّرها قليلاً في بعض الأحيان، فما من خطرٍ أن يمزج الطفل بين اللُّغتَين، بخلاف ما يخشاه الأهل غالباً، إذ إنَّ الولد سيمتلك لغتَين منفصلتَين في رأسه. فكما لو أنَّه يُرتِّب كلّ شيءٍ في علبٍ متمايزةٍ، بحيثُ إنَّه يضع مفردات اللُّغة والنظام الصِّواتيّ... إلخ، كلٌّ منها على حِدةٍ. وحتَّى إنِ استعمل الولد أحياناً كلمةً في لغةٍ ليختمَ بها جملةً في لغةٍ أخرى ـ بسبب أنَّ لديه ثغرةً في معجم مفرداته ـ فهو سيعلمُ تمام المعرفة أنَّه لجأ إلى اقتراض لغوي. زِد على أنَّه سيستخدم دائِماً اللُّغة المناسبة، ولن يتكلَّم مُطلقاً باللُّغة الإسبانيّة مع الجارة الفرنسيّة... إلاّ إنْ كان بهدف مُضايقتها!

ـ هل ينبغي إذاً في كنف العائِلات الثنائية اللغة أن يُصار بأسرع وقتٍ ممكنٍ إلى التكلُّم بلغتَين مع الولد؟

ـ تماماً. يبدو سنّ التعلُّم بمثابة العامل الأساسيّ الحاسِم لجهة النتائج المُحْرَزَة في اللُّغة الثانية، فكلَّما كان التعليم مُبكراً تحسَّنت النتائِج المُحرزة! ولا ينسحبُ ذلك على مظاهر اللغة كلّها، إذ باستطاعة المرء أن يتعلَّم مفردات اللُّغة بغضّ النظر عن عمره تقريباً. ولكن لا يتمّ فِعلاً تعلّم علم الأصوات وبعض قواعد اللُّغة إلا شرط الاحتكاك المُبكر باللُّغة، وينطبق ذلك حتَّى على اللُّغات المتقاربة، فقد برهنت دراسةٌ أُجريَت على أشخاصٍ بالغين ناطقين باللُّغتَين الإسبانيّة والكتالونيّة، أنَّ الأشخاص الذين كانوا يتحدَّرون من أصلٍ إسبانيٍّ وتعلَّموا الكتالونيّة عن عمرٍ يُناهِز السادسة، وتابعوا تحصيلهم العلميّ كلّه باللُّغة الكتالونيّة، لم يكونوا ينجحون في تمييز الـ «é» (أي

الصوت إي) عن الـ «é» (أي الصوت آي)، بخلاف الأشخاص الذين كانوا من أصلٍ كتالونيّ. وليس هذا بالنبأ المثير ولكن هذه هي القاعدة العامّة، ومفادها: كلَّما كان المرء فتيّاً أكثر لدى تعلُّمه اللُّغة الثانية، تمرَّس فيها على نحوٍ أفضل! ويبدو أنَّ سنّ البلوغ هو المرحلة الفاصلة.

ـ مع أنَّنا في فرنسا لا نبدأ بتعليم اللُّغات الأجنبيّة إلاّ في الصفّ السادس، أي حين يبلغ الأولاد عامهم الحادي عشر تقريباً.

ـ إنَّه الوقت الأسوأ! لقد تمّ طبعاً منذ بضع سنواتٍ خلت إنشاء تعليم تمهيديٍّ للُّغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائيّة. ولكن لا تبدو لي النتائج مُقنعةً. ويُعزى السبب ربَّما إلى فترة التشبُّع القصيرة، بحيثُ إنَّ ساعةً أو ساعتَين من تعلُّم اللُّغة الإنجليزية في الأسبوع ليست مدّةً كافيةً! هذا ويكون المنهج في أغلب الأحيان سهلاً فوق الحدّ، إذ نمكثُ مطوَّلاً عند جملة «اسمي برايان» (My name is Brian) وأسماء الألوان. فكما لو أنَّه يترتَّب علينا أن نُبسِّط اللُّغة لأنَّنا نتوجَّه إلى أولادٍ صغارٍ. ولكنَّهم لن يتعلَّموا الشيء الكثير إنْ نحن تكلَّمنا معهم بلغةٍ مُبسَّطةٍ. وسأكرِّر ما سبق لي أن قلته: تكون اللُّغة الفعليّة على جانبٍ كبيرٍ من التعقيد، إلاّ أنَّ أطفال العالم أجمعين هم مُبرمجون سلفاً منذ فجر التاريخ لاستيعاب هذا التعقيد، أو على الأصحّ، إنَّهم يكونون كذلك حتَّى بلوغهم عمراً معيَّناً على أيّ حالٍ.

ـ هل تشاطرين إذاً لوران ساغار الرأي وتعتبرين أنَّ مستقبل البشريّة آيلٌ إلى التعدُّديّة اللغوية؟

ـ لستُ أعلم إنْ كان مآل البشريّة إلى التعدُّدية اللغوية، ولكنَّه على أيّ حالٍ مصيرٌ محتملٌ، فلسنا بحاجةٍ إلى أن نتحوَّل وأن نتبدَّل لكي نتمرَّس بعدّة لغاتٍ. فكما سبق أن رأينا، إنَّ الأطفال موهوبون ـ طبيعيّاً ـ لتعلُّم اللُّغات! فلنُنمِّ إذاً هذه الموهبة لديهم!

الثبت التعريفي

إسبرانتو (Esperanto): لغةٌ عالميّةٌ اصطلاحيّةٌ ابتكرها الطبيب البولونيّ زامِنهوف (Zamenhof) سنة 1887. وأبجديّتها 28 حرفاً وألفاظها مُشتقَّةٌ من ألفاظِ اللُّغات الأوروبيّة.

صبير (Sabir): غالباً ما يُشير الألسنيّون إلى اللغة الهجينة «التاريخية» باسم صبير.

كتابة مقطعيّة (Syllabaire): نظامُ كتابة ذو مقاطع صوتية ولا يحتوي على حروفٍ فقط. ففي إطار الكتابة المقطعيّة مثلاً، لا يُشبه الرمز «هَـ» الرمز «هِـ»، بل هما رمزان مختلفان تمام الاختلاف.

لغة الإشارات (Langue des signes): وتُعرَف بـ «لغة الصمّ والبُكم». إنَّها لغةُ التخاطب بالإشارات الإصبعيّة، وهي شائِعة الاستعمال عند الصمّ والبُكم.

لغة اصطناعية (Langue artificielle): إنَّ اللُّغات الاصطناعيّة هي ابتكاراتٌ بشريّةٌ «ثقافيّةٌ». وثمّة فئتان منها تبعاً لكونها إما لغاتٍ بكلّ ما للكلمة من معنى أو لغاتٍ على الصعيد الاستعاريّ أو المجازيّ. **فالأولى** ابتكرها بعض أصحاب الأوهام، الذين خُيِّل إليهم أنَّه بفضل لغةٍ كلّية يُمكن تخطِّي الحواجز اللُّغويّة التي تقف حجر عثرةٍ بوجه

التواصل بين البشر. إنَّها لغاتٌ كاملة العضوية تتَّصِف بطابعها الصوتيّ والخطّي وبالتلفّظ المزدوج، وغرضها تأمين التواصل بين أفراد الجماعة البشريّة. أمّا بالنسبة **للفئة الثانية** من اللُّغات التي يكون من الخطأ تسميتها كذلك، بل حريٌّ بنا تسميتها «أنظمةً لغويّةً»، فهي لغاتٌ للبرمجة، وغرضها تأمين التواصل ليس بين البشر، بل بين البشر والآلات، كما أنَّها تتألَّف من مجموعة رموزٍ ومن «كلماتٍ» و«عباراتٍ» يُمكن تنظيمها في «جملٍ» بمقتضى قواعد «تركيبٍ». ولكن يقف التماثل بينها وبين اللُّغات الفعليّة عند هذا الحدّ، وذلك لأنَّ هذه الأنظمة اللُّغويّة تكون مجرَّدةً من خاصيّات اللُّغة الأساسيّة التي أشرنا إليها سابقاً (أي الطابع الصوتيّ والخطيّ والتلفّظ المزدوج).

لغة انعزاليّة (Langue isolant): يُطلق في علم الألسنيّة على اللُّغة اسم لغة انعزاليّة حين يتعذَّر إرجاعها إلى أيّ أسرةٍ لغويّةٍ أو حتّى ربطها بأيّ صلة قربى وِراثيّة مع اللُّغات الحيّة الأخرى. وتندرج اللُّغات الباسكيّة والكوريّة واليابانيّة في خانة اللُّغات الانعزاليّة.

لغة جرمانية (Langue germanique): إنَّها إحدى فروع الأسرة اللُّغوية الهنديّة الأوروبية. وتمثِّل اللُّغتان الإنجليزية والألمانية أكبر لغتين جرمانيتين. ويتحدَّثهما على التوالي ما يقارب الـ 340 مليون والـ 120 مليون شخصٍ كلغةٍ أم. أمّا بالنسبة إلى اللُّغات الجرمانية الأخرى المعروفة، فهي تُعدّ في عداد اللُّغات الجرمانية الدنيا، على غرار اللُّغتَين الهولندية والأفريكانية، فضلاً عن اللُّغات الإسكندنافية، أي اللُّغات الدانماركية والنروجية والسويدية. وشهِدت هذه اللُّغات أولى بداياتها في أوروبا الوسطى والشماليّة، ولكنَّها تُستخدَم الآن في مختلف أنحاء العالم. وفروع اللُّغات الجرمانية ثلاثة، وهي:

- لغات جرمانية شرقية
- لغات جرمانية شمالية
- لغات جرمانية غربيّة

لغة حيّة (Langue vivante): يُطلق على اللُّغة اسم «لغة حيّة» حين تكون مستعملةً ومحكيّةً.

لغة ساميّة (Langue sémitique): إنَّها تتبع أسرة اللُّغات الأفريقيّة الآسيويّة الشمالية الشرقية. ويُنسب الناطقون باللُّغات السامية إلى سام بن نوح الذي هو أبو الشعوب التي تتحدَّث هذه اللُّغات حسب الميثولوجيا الدينية اليهودية. ويتحدث باللغات السامية اليوم حوالى 467 مليون شخصٍ، وهم يتمركزون في شرق أفريقيا وشمالها. وأكثر اللُّغات السامية انتشاراً هذه الأيام هي العربية، إذ يفوق عدد متحدثيها الـ 422 مليون متحدثٍ، وتليها الأمهرية بـ 27 مليون متحدثٍ، ثم العبرية بـ 5 ملايين متحدثٍ. وقد أوجَدَ الألسنيّون عدّة تصنيفات للُّغات السامية، إلاّ أنَّ أحدث التصنيفات تعمد إلى تقسيم هذه اللُّغات إلى مجموعتين كبيرتين، ألا وهما: اللُّغات الساميّة الشرقية واللُّغات الساميّة الغربية. هذا ويتمّ إدراج غالبيّة اللُّغات السامية المعروفة في خانة اللُّغات السامية الغربية.

لغة طبيعيّة (Langue naturelle): هو مصطلحٌ في علم الألسنيّة يقصد به اللُّغة البشرية التي يمكن للأطفال اكتسابها من آبائهم أو مربِّيهم بشكلٍ عفويٍّ دون تعليمٍ أو إرشادٍ والتي يُمكن أن يتعامل معها الناس كلغةٍ أمٍّ.

لغة مستعمرات (Langue créole): نتحدَّث عن لغة مستعمرات حين تصبح اللغة الهجينة اللُّغة الأمّ لقسم من الجماعة اللُّغويّة التي تتكلَّمها. ويمكننا أن نتصوَّر السيناريو التالي: كان العبيد في

المستعمرات يتكلَّمون مع أسيادهم وبين بعضهم البعض مستخدمين لغة هجينة، وتنشّأَ الجيلُ الجديد المبتورة أوصالُ جذوره على يد جماعةٍ من العبيد الذين يتكلَّمون اللغة الهجينة هذه، فطوَّر الجيل الصاعِد هذه اللُّغة وأغناها، فباتت لغته الأمّ. وتُطالعنا لغات المستعمرات في مختلف أصقاع الأرض، ويرتكز السواد الأعظم منها على اللُّغات الأوروبيّة، ولا سيّما البريطانيّة والفرنسيّة والبرتغاليّة.

لغة مُشتقَّة من اللاتينيّة (Langue romane): وتتألَّف من لغاتٍ تتحدَّر من اللُّغة اللاتينية، وهي تشكِّل ما يُعرَف اليوم باللُّغات الرومانشية، ألا وهي: الإسبانية والإيطالية والفرنسية والبرتغالية والرومانية.

لغة ميتة (Langue morte): أسوةً بالأجناس البشريّة والحيوانيّة وما شاكلها، تكون اللُّغات عرضةً للموت والانقراض. وفي الزمن الراهن، يواجه عدد كبير منها حول العالم خطر الزوال والموت، لأنَّ قلَّةً قليلةً من الأشخاص مازالوا يتكلَّمونها. ويُمكننا أن نتنبَّأ بموت اللُّغة من خلال رصد هرم أعمار مستخدميها، فإنْ وجدنا أنَّ جيل الشباب لم يعد يتكلَّمها، وأنَّها لم تعد تُعلَّم في المدارس، نعتبر أنَّها لغةٌ في طريقها للاضمحلال. ولا تزول اللُّغة إلاّ بزوال آخر مُستخدمٍ لها. وتجدر الإشارة إلى أنَّنا نعتبر اللُّغة لغةً ميتةً في حال خلَّفت بعدَ اندثارها أثراً، ونعني به الكتابة، وإلاّ فهي تُعدُّ **لغةً منقرضةً (Langue disparue)**. ويَصعُب علينا أحياناً تحديد زمن موت اللُّغة بدقَّةٍ، لأنَّها تتحوَّل في بعض الأحيان وتتَّخِذ شكلاً مطوَّراً، على غرار اللُّغة اللاتينيّة التي انتقلت إلى طور اللُّغة اللاتينيّة الجديدة (Néo-latin)، ومنه إلى طور اللُّغة اللاتينيّة المتأخِّرة (Latin tardif) . . . إلخ.

لغة هجينة (Pidgin): يُقال إنَّها تحريفٌ لكلمة أعمال (business)

الإنجليزية، وهي لغةٌ ترتكز على اللُّغة الإنجليزية، وكانت تُستخدَم في الأغراض التجاريّة بين البريطانيِّين والصينيِّين... وهكذا، تُعدُّ **اللغة الهجينة** لغةً محدودة الوظائِف، وهي لا تُشكِّل اللُّغةَ الأمَّ لأيٍّ من المجموعات التي تستخدمها، وينتفي وجودها خارج العلاقات التي تربط بين هذه المجموعات، وهي تتلاشى وتندثِر مع الظروف الاجتماعيّة التي تؤدِّي إلى بروزها.

لغة هنديّة أوروبيّة (Langue indo-européenne): تنقسم لغات العالم إلى أسرٍ لغويةٍ (Famille de langues) كبيرةٍ، وأشهرها على الإطلاق أسرة اللُّغات الهندية الأوروبية، أو كما يسميها بعض الألمانيِّين: الهنديّة الجرمانيّة. وتنطوي هذه الأسرة اللُّغويّة على اللُّغات التالية: اللُّغة الهندية الإيرانية، واللُّغة الأرمنية، واللُّغة الحثيّة، واللُّغة اليونانيّة، واللُّغة الألبانيّة، واللُّغة الإيطاليكيّة، واللُّغات السلتيّة، واللُّغة البلطيّة، واللُّغة السلافيّة، فضلاً عن اللُّغات الجرمانيّة.

وظائف اللغة (Les Fonctions du langage): يحدد جاكوبسون ستّ وظائف لغوية أساسيّة، ألا وهي:

ـ **وظيفة مرجعيّة** (تُسمَّى أيضاً بالوظيفة التعيينيّة) تتطابق مع الفكرة السائِدة القاضية بأنَّ اللُّغات تستخدَم قبل كلّ شيءٍ لإثارة ما يُشكِّل السياق والمراجع، سواء الحقيقيّة منها أو الخياليّة أو الممكنة.

ـ **وظيفة تعبيريّة** (أو انفعاليّة) مُركَّزة حول المتكلِّم. وتتجلّى عبر التعبير عن موقفه بصورة مباشرة من مختلف القضايا التي يتكلم عليها. وتعدّ اللُّغة نظام الرموز الوحيد الذي يسمح بالتحدُّث عن سائر أنظمة الرموز، بما في ذلك عن نفسه. وهكذا نتحدَّث عن وظيفة تعدّي اللغة الوظيفة الموجَّهة نحو النظام اللغوي، وذلك حين

يستخدم المتكلِّم اللُّغة للتحدُّث عن اللُّغة، سواء كانت لغته أو لغةً أخرى.

ـ **وظيفة محرِّضة** (أو ايعازيّة) **وإقامة الاتصال**، وهما تتعلَّقان بالعلاقات الذاتيّة المتبادلة بين المتكلِّمين. وترمي الأولى إلى توجيه تصرُّف المُحاوِر في الاتِّجاه الذي يُعيِّنه القول، على غرار النداء أو النهي والأمر. في حين تتجلَّى الوظيفة الثانية من خلال أقوالٍ لا غاية منها سوى إقامة الاتصال والمحافظة عليه، على غرار الجُمل المُقَوْلبة في إطار العلاقات الاجتماعيّة والجُمل الاستهلاليّة التي يقولها المرء حين يتحدَّث عبر الهاتف، من مثل قوله: «آلو، كيف حالك؟».

ـ وأخيراً **وظيفة شعريّة** تُضاف إلى الوظائِف السابقة، وهي لا تُمارَس في الشعر وحسب، بل أيضاً في مختلف الإنتاجات اللغوية في كلّ مرَّةٍ يُنشئ فيها المتكلِّم تعادُلاتٍ بين شكل خطابه اللغويّ وفحواه، رامياً إلى خلق تأثيراتٍ جماليّةٍ.

ولا تأتي هذه الوظائِف كلٌّ منها على حِدةٍ، بل تجمعها الإنتاجات الكلاميّة وتسلسلها في تراتبيّةٍ ضمن أقوالٍ مركَّبةٍ غالباً.

ثبت المصطلحات

أحاديّة لغوية	Monolinguisme
إخراج الأصوات اللغوية	Phonation
إخلال بالواجب	Prévarication
أداء الصّوت	Prosodie
إدخال كلمات	Enchâssement des mots
أدوات لغويّة	Outils linguistiques
إسبرانتو	Esperanto
استعداد مُسبق للكلام	Préaptitude au langage
أُسَر لغويّة كُبرى	Macro-familles
أسرة لغات الخويسان	Famille khoisan
أسرة اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة	Famille indo-européenne
أسرة لغوية	Famille de langue
أُسرة لُغويّة نيجيرية كنغوليّة	Famille Niger-Congo
أسرة لغويّة نيليّة صحراويّة	Famille nilo saharienne
أسرة لغويّة أوراسيّة	Famille eurasiatique
أسلوب برقيّ	Style télégraphique
إشارة صوتيّة	Signal acoustique

Signe	إشارة لغوية
Accents toniques	أصوات المدّ
Arbitrarité du signe	اعتباطيّة الإشارة اللغوية
Analyse grammaticale de la phrase	إعراب الجملة
Fonction grammaticale	إعراب (محلّ من الـ)
Emprunt	اقتراض لغوي
Linguiste	ألسنيّ، لغويّ
Linguistes-typologues	ألسنيّون تصنيفيّون
Postpositions	ألفاظ متأخّرة
Rythme de la parole	إيقاع الكلام
Mimiques	إيمائيّات
Indo-européaniste	باحث في اللُّغات الهنديّة الأوروبيّة
Psycholinguiste	بسيكو - ألسنيّ
Timbre du son	تبدُّل الرنَّة
Tautologie	تحصيل حاصل
Ordre des mots	ترتيب الكلمات في الجملة
Schéma accentuel des mots	ترسيمة نبريّة خاصّة بالكلمات
Codage phonétique	ترميز لفظيّ
Imprégnation	تشبُّع
Conjugaison	تصريف الأفعال
Déclinaisons latines	تصريفات الأسماء في اللُّغة اللاتينيّة
Rigidification de la syntaxe	تصلُّب في التركيب
Catégorisation	تصنيف
Vocalisations	تصويتات
Accord sujet/verbe	تطابق الفعل مع الفاعل
Correspondances phonétiques	تطابقات لفظيّة

Plurilinguisme	تعدُّديّة لغويّة
Changements phonologiques	تغيُّرات لفظيّة
Variations mélodiques	تغيُّرات نغميّة
Modulations «nasales»	تغييرات «خيشوميّة» في طبقة الصوت
Explosion linguistique	تفجُّر لغويّ
Sémantisation	تفضيل المحتوى الدلاليّ للوحدة اللُّغويّة
Grammaticalisation	تقعيد لغويّ
Récurrence	تكرار
Double articulation	تلفّظ مزدوج
Représentations phonémiques	تمثيلات صَواتِميّة
Diversité des langues	تنوُّع اللُّغات
Communication symbolique	تواصل رمزيّ
Communication naturelle	تواصل طبيعيّ
Normalisation	توحيد قياسيّ
Générationnelle universelle	توليديّة كلّية
Gesticulation	تومئة
Babillage	ثغثغة
Trilingue	ثلاثي اللغة
Bilingue	ثنائي اللغة
Bilinguisme	ثنائية لغوية
Racine	جذر
Racines verbales ou nominales	جذور فعليّة واسميّة
Phrase déclarative	جملة خبريّة
Mini phrases dans une phrase complexe	جُمَيلات في جُملة مركَّبة
Appareil phonatoire	جهاز النطق
Gène du langage	جينة مسؤولة عن اللغة

Irrégularités	حالات شاذّة عن القاعِدة
«r» roulé	حرف «الراء» المُردَّد جدّاً إلى الوراء
Voyelle	حرف صائِت
Consonne	حرف صامِت
Terminaison	حركة آخِر الفعل
Gestuelle (la -)	حركيّة (الـ ـ)
Prépositions	حروف الجرّ
Caractéristiques mélodiques et rythmiques	خاصيّات نغميّة وإيقاعيّة
Graphie	خطّ
Gazouillage	زقزقة
Narration	سرد
Préfixes	سوابق
Affixes	سوابق ولواحق
Contexte concret	سياق محسوس
Français lambda	شخص فرنسيّ عاديّ
Forme sonore	شكل صوتيّ
Sabir	صبير
Puriste	صفائيّ
Relative (la -)	صلة الموصول
Contraste consonantique	صلة نطقيّة صوامتيّة
Modes et voix des verbes	صِيَغ وأشكال لتصريف الأفعال
Mode impératif	صيغة الأمر
Forme prélatine	صيغة قَبْل ـ لاتينيّة
Pronom réfléchi	ضمير مُطاوِع يُصرَّف مع الفعل
Dyslexie	عُسر القراءة
Dysphasie	عُسر الكلام

Relations d'implication et d'exclusion	علاقات التضمين والحصر
Etymologie	علم الاشتقاق
Phonétique	علم الأصوات
Sémantique	علم الدلالة
Morphologie	علم الصَّرف
Syntaxe	علم النحو
Sciences cognitives	علوم معرفيّة
Eléments mélodiques	عناصر نغميّة
Richesse linguistique	غنى لغويّ
Branches et familles de langues	فروع وأُسَر لغويّة
Verbe auxiliaire	فِعل مُساعِد
Phrasé	فنّ تأليف الجُمل الموسيقيّة
Proto-phonème	فونيم بَدْئيّ
Prélangue	قَبْل - لغة
Capacités cognitives	قدرات معرفيّة
Règles phonotactiques	قواعد صوتيّة تكتيكيّة
Grammaire	قواعد اللُّغة
Grammaire universelle innée	قواعد لغة كلّية فِطرية
Ecriture non alphabétique	كتابة غير ألفبائيّة
Syllabaire	كتابة مقطعيّة
Monosyllabe	كلمة أحاديّة المقطع
Mot de fonction	كلمة إعرابيّة
Mot ancestral	كلمة سلفيّة
Mot invariable	كلمة لا تتبدَّل
Mot composé	كلمة مركَّبة
Pseudo-mot	كلمة مزيَّفة

Mot trisyllabique	كلمة مؤلَّفة من ثلاثة مقاطع لفظيّة
Mot bisyllabique	كلمة مؤلَّفة من مقطعَين لفظيَّين
Mot grammatical	كلمة نحويّة
Universaux	كلّيات (لغوية)
Agrammatical	لانحويّ
Langues des Aborigènes australiens	لغات الأبارجيِّين (سكَّان أستراليا الأصليّون)
Langues australiennes	لغات أستراليّة
Langues austro-asiatiques	لغات أستراليّة آسيويّة
Langues austronésiennes	لغات أسترونيزيّة
Langues amérindiennes	لغات أمَرنديّة (هنديّة أميركيّة)
Langues ibériques	لُغات إيبيريّة
Langues papoues de Nouvelle-Guinée	لغات الپاپويِّين في غينيا الجديدة
Langues germaniques	لُغات جِرمانيّة
Langues des indigènes des îles Andaman	لغات سكَّان جزر أندَمان الأصليِّين
Langues de Sibérie	لغات سيبيريّة
Langues sino-tibétaines	لغات صينيّة تيبيتيّة
Langues créoles	لغات المستعمرات
Langues romanes	لغات مُشتقَّة من اللاتينيّة
Langues des Veddas de Ceylan	لغات الفدِّيِّين (أهل سيلان الأصليِّين)
Langues indigènes d'Amérique	لُغات يتكلَّمها المواطنون الأصليّون في أميركا
Langue adamique	لُغة آدميّة
Aïnou (le -)	لُغة الآينويّين
Langue fille	لغةٌ إبنةٌ

Turc (le -) — لُغة الأتراك

Etrusque (l' -) — لُغة الأترورّيين

Langue étrangère — لغة أجنبيّة

Arménien (l' -) — لُغة أرمنيّة

Aztèque (l' -) — لُغة أزتكيّة

Espagnol (l' -) — لُغة إسبانيّة

Langue austronésienne de Taiwan — لغة أسترونيزيّة تايوانيّة

Proto-austronésien — لُغة الأسترونيزيّين البَدئيّة

Esquimau (l' -) — لغة الأسكيمو

Langue des signes — لغة الإشارات

Langue originelle — لُغة أصليّة

Langue régionale — لغة إقليميّة

Albanais (l' -) — لُغة الألبانيّين

Alsacien (l' -) — لُغة الألزاسيّين

Altaïque (l' -) — لُغة الألطيّين

Allemand (l' -) — لُغة الألمانيّين

Langue maternelle — لغة أمّ

Anglais britannique (l' -) — لُغة إنجليزية محكيّة في بريطانيا

Anglais américain (l' -) — لُغة إنجليزية محكيّة في الولايات المتَّحِدة

Langue isolat — لغة انعزاليّة

Ouralique (l' -) — لُغة الأوراليّين

Première langue — لغة أولى

Italien (l' -) — لُغة الإيطاليّين

Basque (le -) — لُغة الباسكيّين

Proto-bantou — لغة البانطو البَدْئيّة

Proto-langaue — لغة بَدئيّة

Langue des brahmanes	لغة البَراهِمة
Portugais (le -)	لُغة البرتغاليّين
Provençal (le -)	لُغة البروفانسيّين
Breton (le -)	لُغة البريتانيّين
Langage humain	لغة بشرية
Langue balte	لُغة البلطيّين
Birman (le -)	لُغة البورميّين
Picard (le -)	لُغة البيكارديّين
Taroko (le -)	لُغة التاروكيّين
Thaï (le -)	لُغة التايلانديّين
Tasmanien (le -)	لُغة التسمانيّين
Tokharien (le -)	لُغة التوخاريّين
Tibétain(le -)	لُغة التيبتيّين
Deuxième langue	لغة ثانية
Langue germanique	لغة جرمانيّة
Hittite (le -)	لُغة الحثيّين
Langue vivante	لغة حيّة
Khmer (le -)	لغة الخمير
Langue agglutinante	لغة داغِمة
Langue constitutionnelle	لغة دستوريّة
Langue internationale	لغة دوليّة
Langue officielle	لغة رسميّة
Romanche (le -)	لغة الرومانشيين
Roumain (le -)	لُغة الرومانيّين
Proto-sémitique	لُغة ساميّة بَدْئيّة
Savoyard (le -)	لُغة الساويّين

Sarde (le -)	لُغة السردينيّين
Slave (le -)	لُغة السلافيّين
Langue de la dynastie Han	لغة سلالة هان
Langue celtique	لُغة السَّلتيّين
Langue ancestrale	لغة سلفيّة
Sanskrit (le -)	لُغة السنسكريتيّين
Suédois (le -)	لُغة السويديّين
Langue universelle	لغة شاملة
Langue soeur	لغة شقيقة
Latin de Cicéron (le -)	لغة شيشرون اللاتينيّة
Chinois ancien (le -)	لُغة صينيّة قديمة
Chinois archaïque (le -)	لُغة صينيّة مهجورة
Hébreu (le -)	لُغة العبريّين
Arabe (l' -)	لُغة العرب
Langue Afar	لُغة العفاريّين
Langue gauloise	لُغة غاليّة أو لغة الغاليّين
Langue occidentale	لغة غربية
Langue non écrite	لغة غير مكتوبة
Persan (le -)	لُغة الفرس
Français (le -)	لُغة الفرنسيين
Phrygien (le -)	لغة الفريجيّين
Finnois (le -)	لُغة الفِنلنديّين
Peul	لُغة الفولانيّين
Vénitien (le -)	لُغة الفينيسيّين
Vietnamien (le -)	لُغة الفيتناميّين
Castillan (le -)	لُغة القَشتاليّين

Langue Gothique ou Langue des Goths	لُغة القوط أو لغة القوطيّين
Langue des Wisigoths	لغة القوطيّين الغربيّين
Catalan (le -)	لُغة الكتالونيّين
Cambodgien (le -)	لُغة الكمبوديّين
Cantonais (le -)	لُغة الكنتونيّين
Coréeen (le -)	لُغة الكوريّين
Langue de Confucius	لغة كونفوشيوس
Québécois rural (le -)	لُغة كيبيكيّة ريفيّة
Québécois citadin (le -)	لُغة كيبيكيّة مدينيّة
Latin impérial	لُغة لاتينيّة إمبراطوريّة
Latin classique (le -)	لُغة لاتينيّة كلاسيكيّة
Latin tardif (le -)	لُغة لاتينيّة متأخِّرة
Malais (le -)	لُغة الماليزيّين
Mandchou (le -)	لُغة المانشوويّين
Maori (le -)	لُغة الماووريّين
Langue isolante	لغة متقطّعة
Hongrois (le -)	لُغة المجريّين
Langage parlé	لغة محكية
Egyptien (l' -)	لُغة المصريّين
Langue flexionnelle	لغة مُعرَبة
Langue écrite	لغة مكتوبة
Mandarin (le -)	لُغة المندرينيّين
Mongol (le -)	لُغة المنغوليّين
Langue disparue	لغة منقرضة
Langue dominante	لغة مُهَيمنة
Langue morte	لغة ميتة

Min (le -)	لغة مين
Norvégien (le -)	لُغة النروجيّين
Hakka (le -)	لغة هاكا
Hawaïen (le -)	لُغة الهاوايين
Pidgin	لغة هجينة
L'indo-européen	لُغة هنديّة أوروبيّة
Hindi (le -)	لُغة الهنود
Néerlandais (le -)	لُغة الهولنديّين
Wolof (le -)	لُغة الولفيّين
Japonais (le -)	لُغة اليابانيّين
Yoruba (le -)	لُغة اليوروبيّين
Grec ancien (le -)	لُغة يونانيّة قديمة
Langue grecque	لُغة اليونانيّين
Accent	لكنة
Dialecte	لهجة محليّة
Suffixes	لواحق
Séquence de gestes articulatoires	متتالية من الحركات النُّطقيّة
Plurilingue	متعدِّد لُغة
Argumentation	محاجّة
Onomatopée	محاكية صوتيّة
Contour intonatif	محيط أدائيّ
Environnement linguistique	محيط لغويّ
Palette phonologique	مروحة صِواتيّة
Aphasique	مصاب بالحبسة
Vocabulaire	معجم مفردات لُغة
Vocabulaire de base	معجم المفردات اللُّغوية الأساسيّة

Syllabe faible	مقطعٌ لفظيٌّ ضعيفٌ
Syllabe forte	مقطعٌ لفظيٌّ قويٌّ
Syllabe accentuée	مقطع لفظيّ مُنبَّر
Facultés cognitives	مَلَكات معرفيّة
Faculté humaine de langage	مَلَكة اللغة البشريّة
Articulateurs	مُمَفصلات
Aires de Broca et de Wernicke	منطقتَا بروكا ووِيرنيك
Logorrhéique	مِهذار هذيانيّ
Onde acoustique continue	موجة صوتيّة مطَّردة
Signeur	مؤشِّر (مَن يستخدم لغة الإشارات)
Intonation	نبرة الصوت
Articuler	نطق
Phonation	نُطْق (الـ ـ)
Système d'accent	نظام نبر
Séquences de tons	نظام نبرات
Unité sonore de base	وحدة صوتيّة أساسيّة
Module langage	وحدة اللغة
Unité linguistique	وحدة لغويّة
Fonctions du langage	وظائِف اللغة
Fonction métaphorique	وظيفة استعاريّة
Fonction phatique	وظيفة إقامة الاتصال
Fonction métalinguistique	وظيفة تعدّي اللغة
Fonction poétique	وظيفة شعريّة
Fonction référentielle	وظيفة مرجعيّة
Fonction conative	وظيفة ندائية

المراجع

Books

Bernard, Jean et André Langaney. *Si Hippocrate voyait ça*. Avec Cécile Lestienne. Paris: Editions JC Lattès, 2003.

Bottéro, Jean, Marc-Alain Ouaknin et Joseph Moingt. *La Plus belle histoire de Dieu: Qui est le dieu de la bible?*. Interrogés par Hélène Monsacré et Jean-Louis Schlegel. Paris: Editions du seuil, 1997.

Picq, Pascal G. *Animaux amoureux*. Avec Eric Travers. Paris: Le Chêne, 2007.

———. *Au Commencement était l'homme: De Toumaï à Cro-Magnon*. Paris: Odile Jacob, 2003.

———. *Cro-Magnon et nous*. Paris: Mango-jeunesse, 2000.

———. *Les Grands singes: L'Humanité au fond des yeux*. Préface de Frans de Waal. Paris: Odile Jacob, 2005.

———. *Lucy et l'obscurantisme*. Paris: Odile Jacob, 2007.

———. *Nouvelle histoire de l'homme*. Paris: Perrin, 2005.

———. *Les Origines de la culture*. Avec Jean-Louis Dessalles et Bernard Victorri. Paris: Le Pommier, 2006.

———. *Aux Origines de l'humanité*. Sous la direction de Yves Coppens et Pascal Picq. Paris: Fayard, 2001.

———. *La Plus belle histoire des animaux*. Paris: Editions du seuil, 2000.

———. *La Préhistoire*. Paris: Mango-jeunesse, 2001.

———. *Les Premiers outils*. Paris: Pommier, 2004.

———. *Qu'est-ce que l'humain?*. Avec Michel Serres et Jean-Didier Vincent. Paris: Le Pommier, 2003.

———. *A la Recherche de l'homme*. Paris: Nil, 2002.

———. *Le Singe est-il le frère de l'homme*. Paris: Le Pommier, 2002.

———. *Les Tigres*. Avec François Savigny. Paris: Odile Jacob, 2004.

Sagart, Laurent. *Les Dialectes gan: Etudes sur la phonologie et le lexique d'un groupe de dialectes chinois*. Paris: Langages croisés, 1993.

———. *The Peopling of East Asia: Putting Together Archaeology, Linguistics and Genetics*. Edité par Roger Blench et Alicia Sanchez-Mazas. London: RoutledgeCurzon, 2005.

———. *Phonologie du hakka de Sung Him Tong*. Paris: Langages croisés, 1982.

———. *The Roots of Old Chinese*. Amsterdam: John Benjamins, 1999.

Simonnet, Dominique [et al.]. *La Plus belle histoire de l'amour*. Paris: Editions du seuil, 2003.

———. *La Plus belle histoire de l'homme: Comment la terre devint humaine*. Paris: Editions du seuil, 1998.

———. *La Plus belle histoire de la terre*. Paris: Editions du seuil, 2001.

———. *La Plus belle histoire du Bonheur*. Paris: Editions du seuil, 2004.

———. *La Plus belle histoire du monde: Les Secrets de nos origines*. Paris: Editions du seuil, 1996.

———. *La Plus belle histoire des animaux*. Paris: Editions du seuil, 1997.

———. *La Plus belle histoire des plantes: Les Racines de notre vie.* Paris: Editions du seuil, 1999.



الفهرس

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -



أجمل قصّة عن اللغة



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

«... كلّ كائنٍ بشريّ يُبصر النور وهو يملك استعداداً للتكلُّم، ولكن ينبغي، مع ذلك، تلقينه فعلَ هذا الأمر، فأيُّ تكييفٍ أنجزه التطور، أفضى ذات يوم من أيّام العهود السّحيقة إلى بروز اللغة؟ وكيف كان أسلافنا يعبّرون؟ هل كان ثمّة لغةٌ وحيدةٌ كونيّة في ما مضى؟ ولِمَ تنوّعت اللُّغات، في ما بعد، على سطح المعمورة؟

إنّ اللُّغز المُحيِّر هو في معرفة كيفيّة تعلُّم كلّ طفلٍ بشريّ الكلام من جديدٍ: كيف يتعرَّف إلى الكلمات، وما الذي يحصل في دماغه؟ إنّ الاكتشافات المُذهلة التي أنجزها الأنثروبولوجيّون والألسنيّون وغيرهم تسمح لنا اليوم بتعقُّب مسارب اللغة، منذ الأحافير الأولى. وهنا، في هذا الكتاب، يتعاون ثلاثة باحثين ليرووا لنا، بكلام بسيطٍ، إحدى أجمل قصص البشريّة وأكثرها فرادةً، بلا أدنى شكٍّ.

باسكال بيك: باليوأنثروبولوجيّ ومحاضرٌ في الكوليج دو فرانس (Collège de France)، له عدَّة مؤلَّفاتٍ عن حقبة ما قبل التاريخ.

لوران ساغار: ألسنيّ ومدير أبحاث في المجلس الوطنيّ للبحث العلميّ (CNRS).

جيسلان دوهان: طبيبة أطفالٍ ومديرة أبحاث في المجلس الوطنيّ للبحث العلميّ (CNRS).

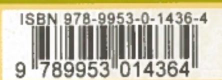
سيسيل ليستيان: صحافيّةٌ.

ريتا خاطر: مترجمة لبنانية.



المنظمة العربية للترجمة

الثمن: 8 دولارات
أو ما يعادلها


ISBN 978-9953-0-1436-4
9 789953 014364